عِلل وأدوية

تأليف

فضيلة الشيخ

محمد الغزالي

عني بطبعه

خادم العلم

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة

إدارة إحياء التراث الإسلامي

الدوحة - قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَـدّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء : ٨٢)

تلك هي حقيقة الوحي الأعلى ، شفاءٌ من كل داءٍ يعتري الأُمم في شئونها النفسية والاجتماعية ، وضمان يحميها جور الطريق ، وشرود الانطلاق ، وفضل من واهب الخير يجعل اليقين والبركة قرناءَ جميعاً ، ويجعل الإيمان والنصر حق المؤمنين .

وهذا الكتاب بيان حسن لما تضمنه الإسلام من أدوية شتى ،

والقضايا الكثيرة التي عالجها تظهر الثروة الطائلة التي احتواها الدين الحنيف فأضاءَ بها كل أُفق ، ومحا كل حيرة ،

وسدد كل خطوة لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ . قَالُوا : خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ . (النحل : ٣٠)

والواقع أن الموضوعات التي خاضها المؤلف كثيرة ، بعضها تاريخي ، وبعضها اجتماعي ، وبعضها تربوي ، والناس قد تتفاوت أنظارهم في طائفة من الأحكام العامة ، وقد اختلف علماءُ الإسلام في كثير من الفروع الفقهية ، بل قد يختلف علماءُ الأثر في تقدير بعض الرواة جرحاً وتعديلا لكننا نتجاوز هذه الخلافات منبهين إلى عظمة الثقافة الإسلامية جملة ، وضخامة التراث الذي آل إلينا ، وضرورة الإفادة منها في إنهاض أُمتنا وترشيد نهضتنا ، وتجاوز الصغائر ، والحفاوة بالصواب ، وتشجيع العاملين ، ومساندة الناصحين .

لقد سرتني النظرات التي عرض بها المؤلف ارشادات القرآن ، وسنن الله في الأنفس والآفاق بأُسلوب سهل سمح يشوق مطالعيه ، ويعلق أفئدتهم بالكتاب الكريم كما سرتني المشاعر الواضحة الجلية التي تبدو في فصول من السيرة النضرة ،

يقرؤُها أَبناؤُنا اليوم فيزداد إعزازهم للنبوة الخاتمة وجهادها العظيم . ونصحها للأُمة الإسلامية .

ولما كان التاريخ الإسلامي يجتاز اليوم مرحلة حساسة ، ويواجه خصوماً مكرة مهرة . فإن حراس العقيدة يجب أَن يكونوا أَيقاظاً وأَن يمدوا أَبصارهم هنا وهناك ليحموا حاضرهم ومستقبلهم وليذودوا عن تراثهم العظيم المرشد إلى السعادة في الدارين .

والغيور على الاسلام لا يلام إذا احتدت غيرته وعلت صيحته ، فما ينبغي إلا إيقاظ قومه . وتنبيههم إلى أَسباب النجاة لقوله تبارك وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف : ١٧٠)

ونرجو الله أَن يكون كتاب «علل وأَدوية» جهداً مبروراً في تخليص كثير من المسلمين من أَنواع السقام التي أَلمّت بهم حتى يأْخذوا كتابهم بقوة ، ويؤدوا رسالتهم بعزم ، وليست هذه أَول بادرة للمؤلف في إرشاده إلى الطريق القويم وذوده عن

معالم الإسلام فهو الفارس المشهور في خوض هذه المعركة حفظه الله ووفقه وألهمه الخير والسداد ، والله ولي التوفيق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

غرة شعبان ١٤٠٤ عبدالله بن إبراهيم الأنصاري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

في هذه الآية معنى يشيع في القرآن كله ، تقوى الله ، والإعداد ليوم اللقاء ، وانتظار بشريات سارة بعد دنيا لم تخلُ من الكدر والقلق .

هذا المعنى الشريف يصحح للإنسان هدفه ، ويضبط خطاه ، ويقيه الزيغ والعثار ! .

وقد كان أئمة التربية عندنا يعتمدون عليه وحده عندما يعجزون عن إصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية ، لا لأنه يغني عن سلامتها بل لأنه يخفف من ضرها ، ويقلل من خللهـا ...

ونحن ننشد إقامة الشرائع التي تقينا السيئات وترهب المجرمين ، ولكننا قبل ذلك نقيم العقائد التي تربط الناس بالله عزَّ وجلَّ وتجعل تعاملهم معه وخوفهم منه وأملهم فيه .

إن كثرة الحديث عن الآخرة والجنة والنار لم يكن من قبيل اللغو ! وكثرة الحديث عن التقوى وما تورثه في القلب من استقرار وما تلقيه في الطريق من نور ليس من قبيل الخيال .

لقد استيقنت أنه لا يقتل الغرور والشَّره ، وحب النفس وحب الظهور ، والمكاثرة بالمال والجاه ... إلا الإيمان الحي والتعلق الشديد بما عند الله تبارك وتعالى .

لقد رأيت من طغى عندما حكم ، ومن غش عندما تعامل ، ومن استكبر عندما استغنى ، ومن أفسد أُسرته وأُمته عندما تمهد له الطريق .

وتأملت الدوافع إلى هذا كله فلم أر إلا قلوباً خالية من الله جلَّ وعزَّ بعيدة عن الشعور بعظمته ورقابته ! وإن همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحي !

وأُؤكِّد أنه عند فساد الفطره لا يوجد دين ، وعند اختلال العقل أو نقصانه لا يفهم وحي ! وأن الأوامر الجزئية المتناثرة المنفصلة عن روح جامع لا تكوِّن سلوكاً ، كما أن اللَّبنات المركومة وأسياخ الحديد الملقاة لا تنشئ بيتاً ...

أن تعليمات المرور لا تفيد من أُصيب بانفصال في الشبكيَّة ، أو من أُصيب في صمامات القلب .

ولقد أقام نبينا صلى الله عليه وسلم حضارة حققت الغاية العليا من الوجود الإنساني ، وكانت عدته في ذلك ما تلقي من وحي ، وما أُلهم من هدى .

كان أقدر المستقدمين والمستأخرين على تصحيح المسار الإنساني عن طريق ضبط الأجهزة الرئيسية في الكيان الإنساني.

ونحن في هذا المنهج نسير ، وبمواريث النبوة نستهدي .

إنني عندما أكتب أُقسِّم مشاعري وأفكاري قسمين ! قِسْماً يتعرَّف الواقع الإسلاميّ بدقَّة أعني أحوال أُمَّتنا ما ظهر منها وما بطن ! وآخر يتلمَّس من توجيهات الإسلام ما يشفي السَّقام ويدعَم الكيان ...

وفي تعرُّفي على أحوال أُمتنا أُميز الأمراض الموروثة عن الوافدة حتى لا أضل العلاج ، ولا أسمح للأعراض المتشابهة أن تخدعني عن جراثيمها المختلفة !

وفي تلمُّسي للأدوية أُفرق بين الإسلام من مصادره المعصومة وبين تاريخه المتفاوت بين مدٍّ وجزر ، سواء كان هذا التاريخ سياسياً أو ثقافياً ...

وعندما أُخطئُ ـ وأنا خطاءٌ ـ أكون أطوع الناس لمن يأْخذ بيدي إلى الصواب ، والمشكلة أن المرءُ قد يطبُّ لغيره ، ولا يحسن أن يطبَّ لنفسه ، ولا مناص من أن يلهج أبداً بالدعاءِ المأْثور : «اللَّهُمَّ اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت»

والله ولي التوفيق ، ، ،

محمد الغزالي

الدوحة في غرة شعبان ١٤٠٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان في القرآن

كانت الملائكة متشائمة من مستقبل الانسان على ظهر الأرض ..

لعلها أحست أن أصله الترابى سيجعله هشا أمام الاختبارات الصلبة ، وأنه سيفقد تماسكه أمام الأهواء والمغريات ؟

لعلها رأت أنه يشبه أجناسا أخرى لم تصدع بأمر الله ، ولم تحسن تنفيذ وصاياه .. ؟

أو لعل شعاعا من عالم الغيب طلع عليها فرأت معه صورا من الحروب الدامية ، والمسالك المعوجة التى سوف يخوضها البشر ، ويظلمون بها أنفسهم .

على أية حال لقد تساءلت الملائكة وقالت لله جل شأنه :

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ﴾ (البقرة : ٣٠)

وكان الجواب الأعلى :

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٣٠)

وخلق الله آدم ووهب له عقلا محيطا بالأشياء كلها ، ووضع فى هذا العقل خاصة باهرة يستمكن بها من معرفة الأسرار والظواهر ، ويهيمن بها على شتيت من القوى والعناصر ، ان هذا الانسان المحدود فى أعضائه ومشاعره يملك طاقات ضخمة تجعله سيدا لما حوله ، بل تجعله ملكا واسع السلطان ممدود النفوذ .

ولعل الملائكة اليوم ترقبه دهشة وهو يخترق الفضاء ويغزو الكواكب .

لكن عظمة الانسان لاتكمن فى هذه القدرات الطليعة ، انها تكمن فى أمر آخر أهم منها وأجل ، هو معرفته لمن خلقه فسواه لمن أعلى قدره ورفع مستواه ! لله الذى خلق هذا الكون ومكنه فيه وسخره له .

ان هذا الفريق من الناس الذى عرف ربه وأسلم له وجهه ، وافتتح مفاليق الحياة باسمه ، هو الذى يبرز الحكمة من وجود الانسان فى العالم ، وأحسب أن هذا الفريق الصالح المصلح هو الذى استشفت الملائكة خبره ثم قالت لله :

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة : ٣٢)

وقصة الحياة الانسانية كما ساقها القرآن الكريم تستوقف النظر من نواح عدة نحب أن نتبينها :

أولها هذا التنعيم الذى أحاط بها منذ بدايتها ، فبين يدى عرض القصة فى سورة البقرة نقرأ قوله تعالى :

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّافِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة : ٢٩)

وقبل ذلك بقليل نقرأ :

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً وٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾ (البقرة : ٢٢)

وبين يدى عرضها فى سورة الأعراف نقرأ قوله :

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (الأعراف : ١٠ ـ ١١)

وبين يدى عرضها فى سورة الحجر ، سرد للنعم التى تحف الحياة البشرية نقرأ منه قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾
(الحجر : ١٦ـ٢٠)

والواقع أن الرغيف الذى يطعمه انسان تشترك فى انباته وانضاجه فجاج الأرض وآفاق السماء .

فتربة الأرض ، والسحب الهامية ، والأشعة العمودية أو المائلة التى تتعرض لها الحقول وأثر الضوء فى تكوين الخضرة مثلا وأشياء أخرى كثيرة تتعاون جميعا على تكوين الغذاء والكساء والدواء الذى يحتاج اليه البشر .

ان شبكة من المواد الدقيقة جدا ، والجسيمة جدا ، انتظمت فى خدمة الانسان وتأمين معايشه وتخطيط حاضره ومستقبله ، كل يؤدى دوره بوفاء وقدرة ، الكواكب السابحة فى الفضاء ، والجراثيم التى لاتراها العين !

وذاك سر الأقسام الكثيرة التى وردت فى القرآن الكريم مشيرة الى فخامة هذا العالم

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق : ١٦ ـ ١٩)

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ (المدثر : ٣٢ ـ ٣٥)

وتدبر القسم بالرياح المثيرة والسحب الحافلة وما يتبع ذلك من زرع وحصاد وتجارة واحتراف وخيرات تعم البشر :

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (الذاريات : ١ ـ ٥)

ان رب العالمين أبدع ماصنع ! وحدثنا عن هذا الابداع لنعجب به ونتذوق جماله ٠

وأنى لأستغرب أحوال ناس ينتسبون الى الاسلام ويديرون ظهرهم للكون ، فلا يدرسون له قانونا ، ولا يكشفون له سرا ٠

أى ايمان هذا ؟ وأى جهل بقصة الحياة ووظيفة آدم وبنيه فى ربوعها ٠٠ ؟

ان الانسان فى القرآن الكريم كائن مكرم مفضل محترم مخدوم ، ومن حق الله تبارك اسمه أن يعاتب البشر على سوء تقديرهم لآلائه :

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً ومِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾
(لقمان : ٢٠)

هذه ناحية تتصل بالتكريم المادى للانسان ، وثم ناحية ثانية تتصل بكيانه المعنوى ٠

فالانسان نفخة من روح الله الأعلى ، هكذا بدأ خلق آدم ، وهكذا تتخلق الأجنة فى بطون الأمهات ٠

ان الحياة فى شتى الأجسام المتحركة شىء ، وخصائص الحياة الرفيعة فى أبناء آدم شىء آخر ، وقد أشاع الله نعمة الخلق بين خلائق كثيرة برزت من العدم الى الوجود ، بيد أن آدم وحده هو الذى وصفه بقوله :

﴿سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر : ٢٩)

واطرد هذا التكريم فى ذريته الى قيام الساعة :

﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ﴾
(السجده : ٧ ـ ٩)

والانسان بهذه النفخة كائن جديد يعلو فوق مايشبهه من ضروب الحيوان ولذلك قال جل شأنه :

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون : ١٤)

وبعد أن تم خلق آدم على هذه الصورة أمر الله الملائكة أن تسجد له سجود تعظيم وتوقير لا سجود عبادة ! ٠

والملائكة هى التى أبدت دهشتها لايجاد هذا الانسان واستنكرت ما سوف يقع منه من فساد وفوضى ٠

انها طولبت بالسجود له بعدما تم تكوينه ! وعوقب من رفض السجود بالطرد من رحمة الله ٠

وسواء كان ابليس من الملائكة ، أم كان وجوده بينهم وهو من الجن ، فان النتيجة لاتختلف ، اذ أن الاستهانة بالانسان هى عند الله عصيان وخيم العاقبة ! ٠

وهذا التكريم البين ينضم اليه أمر آخر عظيم الدلالة على مكانة الانسان وحفاوة الله به ، هذا الأمر هو الفرح الآلهى بعودة الانسان التائب واستقبال الله له باعزاز بالغ وتجاوزه عما فرط منه من خطأ وقوله فى عفو شامل :

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾
(طه : ٨٢)

كلتا الناحيتين من تكريم وتنعيم استتبعت ناحية ثالثة كان لها الأثر الأكبر فى مستقبل الانسان ومستقبل الكوكب الذى أعد لسكناه ، بل فى مستقبل المجموعة الشمسية كلها التى سينتشر عقدها وينطفىء نورها مع انتهاء الرسالة الانسانية على ظهر الأرض ٠

هذه الناحيـة هى « التكليف » ، فان الله الذى زود الانسـان بهذا السمو فى مواهبه لم يتركه سدى ، بل أمره ونهـاه وطلب منه أن يفعل وأن يترك ! وربما كلفه أن يفعل مايثقله ، وأن يترك مايشتهيه ٠

وهنا نقف وقفة يسيرة أمـام سر التكليف ومعناه لنتناول جمـلة أمـور ٠

ان أبانا آدم ، وهو الانسان الأول ، كلف ألا يأكل من شجرة معينة وكان جديرا به أن يعرف حق الآمر جل شأنه وأن يـدع الأكـل من هذه الشجرة أبدا ٠

ولكنه بعد مرحلة من الذهول والضعف ، عرضت له ساعة انهيار فى ارادته وامتداد فى رغبته فأكل من الشجرة المحرمة ، وشاركته زوجتـه فى عصيانه فطردا جميعا من الجنة ٠

وكانا قد أحسا بالخطأ الذى تورطا فيه فدعوا الله نادمين :

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ الأعراف : ٢٣ ـ ٢٥)

ونزل أبوانا الى الأرض وشرع كثير من الأبناء يمثلون القصة نفسها ويرتكبون الخطأ ذاته ، ولكنه ليس آكلا من شجرة بل اتباعا للشهوات التى تقود الى العصيان والحرمان ! ٠

العنوان متغير والحقيقة واحدة ٠٠ ان هذا السلوك من الانسان الأول يجعلنا نتساءل عن علته ؟ والعلة واضحة فان الانسان بدأ حياته بطبيعة مزدوجة ، قبس من نور الله داخل غلاف من طين الأرض !

ان الله تبارك اسمه بعدما صور الانسان من التراب وسواه ، نفخ فيه من روحه ، فاذا كائن عجيب يجمع النقائض فى تركيبه ، يقدر على التسامى وعلى الاسفاف ، يقدر على الاستقامة وعلى الانحراف ٠

وقد نبه القرآن الكريم الى هذا الخليط فى التكوين البشرى فقال جل شأنه :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (الانسان : ٢)

كما نبه الى أن المامه بالخطايا ليس مستغربا ، انه ينزع الى عرق فيه !

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ (النجم : ٣٢)

كلتا النزعتين الأرضية والسماوية تجد فى الحياة ــ أو فى البيئة ما يضعفها أو يقويها ، وقبل ذلك كله تجد فى الانسان نفسه مايرجح كفة على أخرى ، وما يسلم زمامه للخير أو للشر ، كما يريد هو لنفسه دون تدخل من أحد فى اتجاهه هنا أو هنا ٠

ان ايثار الوقوف عند الاشارة الحمراء أو المروق منها والتعرض لأخطار الانطلاق الأحمق تصرف انسانى محض ٠

وفى هذا يقول تعالى :

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ (الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٦)

ـ أى لو تسامى وترفع ـ

﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف : ١٧٦)

فتركه الله حيث شاء لنفسه ٠

ولابد من توكيد هذه الحقيقة حقيقة الارادة الحرة فى الصعود والهبوط ، فى التقوى والفجور ، فى اغضاب الله أو ارضائه ، فان الرحمن الرحيم يستحيل أن ينقم على انسان سعى فى مرضاته ، كما أنه لايرضى عن انسان سعى فى اغضابه ٠

وبعض الناس يمارى فى هذه الحقيقة من مكابرة ، أو تحمل أعذار وهيهات فقصة الوجود الانسانى تقوم على اختبار حقيقى لاكتشاف المحسن والمسيء :

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك : ٢)

والمحسن انسان اتقن العمل واحترم الصواب ٠ والمسيء انسان فرط ولزم العوج ٠٠

والعراك داخل النفس الانسانية لاختيار أحد النهجين عراك حقيقى لا صورى ٠

وتلمح صدق هذا العراك وقبول نتائجه فى قوله تعالى :

﴿فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَى﴾ (النازعات : ٣٧ ـ ٤١)

ان السالم فى هذا العراك انسان يشعر بقيام الله عليه وعلى سائر الكائنات ، ومع نماء هذا الشعور يخفت صوت الهوى ويغلبه صوت الضمير اليقظان أو القلب الحى ٠٠ فأين التمثيل أو المحاباة أو الخداع فى هذه الحالات ؟

الله جل شأنه ينادى الانسان ويذكره ويهديه ، وعلى الانسان أن يلبى ويتذكر ويهتدى ، فاذا أبى الا الشرود فهو وحده الملوم ، ومن ثم تقررت هذه الأحكام العادلة التى ندركها من قوله تعالى :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأنعام : ١٠٤)

﴿ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس : ٧ ـ ١٠)

والتزكية والتدسية جهد بشرى محض ، أو كذلك يكون أول الطريق ثم يلحقه من مشيئة الله مايصل به الى النهاية :

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ (النساء : ١١٥)

ونتساءل مرة ثانية : ماقيمة الصوت المضلل الذى يستمع اليه الانسان فيزيغ ويشقى ؟ ٠

الحق أنه صداه الضخم أضعاف أضعاف حقيقته التافهة ، انه كنقيق الضفدعة يملأ أكناف الليل ومصدره لاقيمة له ! ٠

ما الشجرة التى أكل منها آدم ؟ هل أحس طويلا لذة ثمرها ومتعة ازدرادها لقد كانت وهما هذه النشوة المأمولة ولو فرضناها لذة ساعة

فما قيمتها ! اذا وزنت بما أعقبته من حسرات سنين عـددا ؟ بل دهـرا طـويلا ! ٠

ان الانسان فى هذه الدنيا تهيجه رغبة حمقاء الى شىء محرم ما ان يواقعه حتى يحس الفراغ والضياع وحقيق بالانسـان أن يتماسك أمام عوامل الاستفزاز ومزالق القدم ٠

ونتساءل مرة أخرى ما مصدر هذا الصوت النابى الجهول الذى يزل الانسـان ٠

والجواب أن له مصدرين اثنين : أولهما نفس الانسـان أو الاهاب الترابى الذى غلفت به ، والمصدر الثانى من كائن آخر خاصم الانسـان من النشأة الأولى وهو الشيطان الذى آلى على نفسه استدامة هذا الخصام الى يوم النشور ٠

فى المصدر الداخلى للمعصية يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾
(طه : ١١٥)

فالنسيان وضعف العزيمـة رذائل وقع فيها الانسـان الأول ، ومع تولدها فى نفسه تتهيأ الامكانات للشيطان كى يوسوس ويخادع ويقول لآدم وامرأته :

﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف : ٢٠ ـ ٢٢)

وما تمت هذه التدلية ولا نجح الشيطان فى خدعته الا لأن آدم كان قد ضعفت ذاكرته وضعفت ارادته ٠

الضعف النفسى أولا ثم وساوس الشيطان ثانيا ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير فى انحدارهم ! ٠

ان الشيطان محطة ارسال يذيع منها فنون الاغراء والاغواء ، والانسان هو الذى يهيء أقطار نفسه لاستقبال هذه الاذاعات والتجاوب معها .

وانت الذى تتخير ماتسمع من محطات « الراديو » المختلفة ، ولو شئت أغلقت للفور ماتعاف سماعه ، أو ابتعدت عنه حتى لايصل صداه الى سمعك ، أو قاومته بمشاعر النفور والمقت حتى لايستولى عليك ! .

وقد منح الشيطان من أول يوم القدرة على اغراء الانسان وخداعه .

ودفعته خصومته الى ابتكار وسائل كثيرة ونصب أحابيل مختلفة لايقاع الأغرار والغافلين ، وقيل له :

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ (الاسراء : ٦٤)

وكان الشيطان لايملك أكثر من الكلام يكذب فيه ويغر ، وقد نبه الله آدم وبنيه الى هذا العدو الغار الكاذب . وحذره من الشراك المنصوبة والأقاويل المزورة .

ان الشيطان يعد كاذبا ، ويقسم حانثا ، وينصح غاشا ، ويلين ليلدغ وينحنى ليثب ويصرع .

وهو فى هذا كله لايملك الا شيئا واحدا ، الكلام ، الكلام وحده ! فلا يجوز أن نصدقه :

﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه : ١١٧)

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف : ٥٠)

ومع ذلك فقد قدر الشيطان بالكلام المضلل أن يزيغ الكثيرين ·

وسيقول يوم القيامة لمن استجابوا له :

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (ابراهيم : ٢٢)

ان سلاح الشيطان مفلول والنجاة منه ميسورة ! وعندما يقع البعض فى قبضته فلا حماية له لأن القانون لايحمى المغفلين ·

ومن ثم فالجهد الحقيقى فى النصح والتربية يتجه الى الانسان أولا وآخرا ليوقظ فيه أسباب الحذر ، وليسد الثغرات التى يمكن أن يتسلل منها الشيطان بوساوسه الماكرة ·

لقد أشرنا الى الأمشاج التى يتكون منها الانسان ، والحق أن فى الانسان ـ مع أصله السماوى ـ طباعا لايجوز تركها حرة تتصرف كما تشاء ، لابد من مراقبتها واخضاع حركاتها وسكناتها لحكم الله ، والا جرته من القمة الى الحضيض :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين : ٤ ـ ٥)

وليس معنى هذا الرد أنه تحول الى مسخ ذميم بعدما كان فى ذروة الحسن ! كلا ··

المعنى أن امكانات الهبوط جاورت معانى الرفعة فى نفسه ، وأنه يستطيع التحليق والاسفاف معا ، وذاك سر الاستثناء بعد :

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ (العصر : ٣)

أى سوف يبقى قوامهم حسنا ، ماديا ومعنويا !

وجاءت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر الطبائع الرديئة التى ينبغى الخلاص منها ·

فالانسان « أنانى » يحب نفسه وحسب ، وقد تكون محبة النفس أصلا فى استبقاء الحياة ، ولكن هذه المحبة تتحول الى مرض خطير يورث الشره والطمع والبغى واجتياح الحقوق بنزق ٠

وقد ذكر القرآن أن هذه الأثرة لايطفئها الغنى مهما اتسع :

﴿قُل لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ (الاسراء : ١٠٠)

والانسان نسّاء أو غافل ، وقد يكون هذا أو ذاك أصلا فى استبقاء الحياة ، فلو استصحب المرء حزنه الى الأبد على مافقد ماصلحت الدنيا ٠

ولكن هذا الذهول قد يكون جرثومة الكنود ونكران الجميل ونسيان الرب وما أولى :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنْسانُ كَفُوراً﴾

(الاسراء : ٦٧)

﴿إِنَّ ٱلْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾

العاديات : (٦ ـ ٧)

والانسان الذى يحلو له أحيانا أن يفخر ، ويتطاول ، وينظر الى السماء بقلة اكتراث ، تذله علة فى أى مكان فى جسمه أو تزله غلطة فى أى وقت من تفكيره مهما كان عبقريا ٠٠

﴿يُرِيدُ ٱللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾

(النساء : ٢٨)

والانسان محتال كبير فى الدفاع عن نفسه ، والتماس الأعذار لأخطائه وعد مايقع منه وجهة نظر مقبولة أو مغفورة :

﴿وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف : ٥٤)

وهذه الطبائع جميعا مزالق لمن يسترسل معها ، وقد نبه القرآن الكريم الى أمراض شتى تعترى النفس ، فالانسان قد يبطر مع الغنى ، ويطغى مع السلطة ، ويقنط مع الفشل ، وقد يستحلى من شهوات النساء والرياء والاستعلاء مايحيله الى عبد لنفسه وهواه .

ولكن الفكاك من هذه الآثام كلها ميسور فان القرآن الكريم لما خوف عواقب هذه الانحرافات الانسانية ذكر أسباب النجاة منها :

﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾
(العصر)

وما أجملته سورة العصر من وصف للداء والدواء فصلته سور أخرى .

نختار منها سورة المعارج التى أسندت للانسان هذه الخلال :

﴿إِنَّ ٱلْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ منُوعاً﴾ (المعارج : ١٩ ـ ٢١)

لكن الانسان يبرأ من هذه العلل اذا قام بجملة العبادات المفروضة .

ونتساءل : هل هذه العبادات « مصل » واق أم شفاء من أمراض توجد وتتجدد ؟ قد يكون هذا أو ذاك ! .

ولنتدبر أولا الاستثناء الذى تضمنته السورة الكريمة :

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *

إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ (المعارج : ٢٢ ـ ٣٥)

لاشك أن هذه العبادات مجتمعة تنشىء انسانا كاملا شريطة أن تؤدى أداء حقيقيا لا أداء تمثيليا ، وأحب أن أقف عند واحدة من هذه العبادات لأتأملها وأتعرف على آثارها النفسية ، وهى قوله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (المعارج : ٣٣)

ان الانسان المسلم يجب أن يكون مستعدا دائما لأداء الشهادة على وجهها ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويدعم العدالة .

والقيام بالشهادة يتطلب صراحة لاتخاف فى الله لومة لائم ، ذلك أن الحق يختنق فى هذه الدنيا وسط دخان الشهوات المتصاعد من هنا ومن هناك .

والمرء ينكل عن الادلاء بالرأى الصحيح والقول الصحيح لأنه يخشى على مستقبله مثلا ، أو يريد محاباة قريب ، أو يطمع فى مال ، أو يتطلع الى منصب ، انه لايستبين وجه الله من غلظ الحجب على بصيرته ! .

والمجتمع الاسلامى يسقط مع اختفاء الذين هم بشهاداتهم قائمون . لأن هؤلاء المؤمنين ـ كما يزعمون ـ ليسوا بشهاداتهم قائمين ، ربما سكتوا أو قالوا فلم يعدلوا ! .

وكم رأينا من أناس قدموا وحقهم التأخير أو أخروا وحقهم التقديم

ولقد عرفت لماذا سبقت بعض المجتمعات سبقا بعيدا عندما قرأت أن زوج الملكة فى هولندا عزل وجرد من أوسمته لما كشفت صلته بقضية

رشوة ، وأن رئيس وزراء اليابان عزل ورمى بـه فى السـجن للتهمـة نفسـها ! ٠

ان القيام بالشهادة يعنى ألا نترك صاحب حق مسـتوحشا فى هذه الدنيا لا صديق له ولا ظهير ٠

والشهادة بداهة ليست مايقال أمام المحاكم فقط ، بل مايقـال فى كل خلاف أو مشورة أو اختيار أو انتخاب أو أى شأن ذى بال ٠

والقائم بالشهادة رجل أسلم لله وجهه وقرر أن يحيا للحق وحده !

وقد تتشابك فى نفس الانسان عدة طبـاع مثل تشـهى الحيـاة ، وتعجل النتائج ٠ وغلبة الأثرة ، فيصدر أحكاما خاطئة على مايصيبه من خير أو شر ، وتستبد به المبالغة فتجمح به مشـاعره نحو نفسـه ونحـو الناس ٠ وفى هذا يقول جل شأنه :

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

هود : (٩ ـ ١١)

فى هذه الآيات صورة الانسان الذى تسـتعبده السـاعة الحاضرة وحدها ، فهو عند فقد مايسر منهزم كسير من شـدة القنـوط ، وعنـد وجدانه ، ينتشى ويغتر من شدة الفرح ٠

وكان يجب أن يتمالك نفسه فى الحالين وينظر الى أصابع القـدر وراء مايحسه فيستكين لله ويؤدى ما عليه بتعقل ٠٠

ثم ينضم الى هذا الاحساس المعتدل شعور آخر ، أساسه أن ماينـاله من خير ليس تمتيعا له وحده ، فان للمحرومين سهما فيما جـاءه ، وقد يكون سهما كبيرا :

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنْسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ الفجر : (١٥ ـ ٢٠)

والآيات تشير الى أن الغنى ابتلاء ، وأن الفقر ابتلاء ، ومن الخطأ تصور أن الاغناء تكريم ، والافقار اهانة ، العبرة بالنتائج ، فان الذى يستعف فى فقره أسبق عند الله وأرجح فى الميزان من الذى يطغى بغناه ٠

والذى يمنح الثراء ، فيفتح أبوابه لليتيم والمسكين ويسارع بالبذل فى مواطن النفقة هو الانسان الناجح فى الامتحان السابق فى الميدان ٠

لكن البشر ـ للأسف ـ يحسبون العطاء تدليلا لأشخاصهم ، والحرمان اهانة واذلالا ٠٠ وذلك خطأ بالغ فى فهم الدين والدنيا ٠

وعندما خال الناس أن الغنى تكريم ذاتى لبعض الأفراد والأسر ، وأن الفقر هوان ذاتى قصده الله لبعض الأفراد والأسر ، عندما شاع ذلك انفجرت براكين الأحقاد ضد أصحاب الثروات ، وانفجرت معها عواصف الالحاد والكفر ، وتعرض مستقبل الانسانية كلها للبوار ، وهل انتشرت الشيوعية الا فى هذا الجو ؟ ان العبادة هى السلم الفذ الذى تصعد فيه النفس الانسانية الى الكمال المنشود ٠

يجب على الانسان أن يعرف ربه ، وأن يقف فى ساحته عبدا نقيا من الآفات والعاهات ٠

ان آدم لما نسى وضعف أضحى دون مستوى الجنة فأخرج منها ٠

ولن يعود أبناؤه الى الجنة وهم يحملون أوزار النسيان والضعف ، لابد من ايمان واضح وعمل صالح ٠

وفى طول القرآن وعرضه توكيد لهذه الحقيقة التى يحاول كثيرون الزوغان منها ٠

ونعود الى الخاصة الأولى فى تكوين آدم وبنيه ، خاصة العقل العالم بالأشياء الخبير بالحقائق والأسماء ، ان الانسان المكلف بعبادة الله لايعبده بشبحه المحدود ، وجسمه المادى القاصر ! انما يعبده بتطويع طاقاته كلها لله ٠ انه يضع بصماته المؤمنة على الأرض حتى اذا سجد سجد معه زرعها وضرعها وحديدها وذهبها وكل ما ملك وارتفق ! ٠

وأرى أن ذا القرنين عندما ساوى بين الصدفين ، وذوب الحديد والنحاس داخل سلسلة من القلاع التى تحمى الضعاف وتذود الطغاة ــ أرى أنه أحق الحق وأبطل الباطل لا بالكلام وحده ، ولكن بجعل الأرض ومعالمها ومعادنها تؤدى وظيفته وتحمل طابعه وكأنها امتداد لنبض قلبه وبطش يده ٠

وهل ملك الله الأرض للانسان الا لهذا ؟ ٠

عندما تعطى خادمك أسباب الزينة والوجاهة فيجيئك أشعث أغبر فأنت تضيق به ٠

والعباد الجهلة بالحياة ، والغرباء فى الكون ، سوأة زرية ، وجهل أو تمرد على الخلافة الانسانية فى العالم ٠

ونحن المسلمين سنحاسب حسابا عسيرا على تخلفنا الفاضح فى العلوم الطبيعية ٠

ربما احتاج الانسان كى يصلى الى مساحة من الأرض لاتعدو ذراعا فى ذراع ، ولكنه كى يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل يحتاج الى معرفة تمتد من الأرض الى المريخ بل الى الشمس ٠

معرفة فى هذا العصر تهيمن على مافى الأرض وما فوق البر ، وتخترق طباق الجو متحسسة آفاقا بعد آفاق من أغوار الكون البعيد ٠

كتب الدكتور فاروق الباز الخبير فى غزو الفضاء عن حاجة العرب الى « متنقل فضائى » يستعينون به على اكتشاف أرضهم وما أودع فيها من خيرات ، وأهاب بالحكومات العربية أن تمـول هذا المشروع ، قال : «ليس من المستبعد فى نظرى أن تخطو دولة أو دول عربية هذه الخطوة فتحقق مافيه الخير للعالم العربى كله • نحن نعـلم أن الصحـراء تكون ٩٦ ٪ من جملة الأراضى العربية ، ولابـد من الانتفاع بجـزء كبير من هذه الصحراء الى جانب دراستها دراسة علمية صحيحة فنحن لانعلم عن الصحراء الا قليلا ، وربما كان سبب هذا ان علمـاء الغـرب لم يهتموا بالصحراء لقلة الصحارى فى بلادهـم ولصعـوبة التنقل فى صحرائنـا الشاسعة •• !

ويلزم العلماء العرب أن يدرسوا الصحراء وتضاريسها وتراكيبها دراسة تفصيلية ، لأن البادية منبع كل ماهو عربى •

والصحراء تحيط بالعرب من كل ناحية ، ويتضح هذا لرواد الفضاء فى المدار الأرضى وضوحا تاما حتى أن رواد القمر كانوا يتعجبون لظهور الصحراء العربية فى صورهم الملتقطة كتلة واحدة على بعد ٤٠٠٠٠٠٠ كيلو متر » •

قال : « وتعتبر الصحراء خزانا عظيم الشأن للنفط وللمياه الجوفية ويصلح بعض أجزائها للزراعة المثمرة •

وأهم من ذلك كله أن الصحراء خزان عظيم لطاقة لا نهـاية لها هى الطاقة الشمسية ، ولذلك يجب أن تشـتمل دراسـة الصحراء العربيـة تحديد أصلح الأماكن لأبحاث الطاقة الشمسية وطرق الافادة منها •

ومن الناحية الاجتماعية يجب أن تشـمل الدراسـة التعرف على الأماكن المختارة لمعيشة الانسان وانشاء المدن الكبيرة والصغيرة وطرق المواصلات ومنتجات السياحة والترفيـه ، وتحـديد بنيـة الخضرة فى الصحراء لاستغلالها ، ومعرفة المؤثرات المختلفة على حيـاة البدو ، الى غير ذلك مما يجعل الصحراء بقاعا لائقة للعيش الكريم » •

قال : « وينجح هذا العمل اذا تم على مستوى عربى جماعى ! فالصحراء العربية برغم ترامى أطرافها اقليم واحد له ميزات ومعالم جغرافية واحدة ، ولا صلة لهذه الوحدة بالحدود السياسية الوهمية بين الدول وخطوط الشتات التى مزقت الكيان الواحد » ٠

قال : « أما المطلوب لدراسة الصحراء على المدار الأرضى فهو فى اعتقادى قمر صناعى يرحل الى الفضاء مع (المتنقل الفضائى) ـ الذى سبق للدكتور الباز اقتراحه ـ يرجع صوره الملتقطة الى الأرض رواد الفضاء المختارون ، وذلك بين آونة وأخرى !

ويكون هذا القمر عربيا فى أغلب نواحيه ، يختار مكوناته علماء يقومون بتشغيله ، وتدرس المعلومات المرسلة فى عدة معاهد عربية أو فى مركز عربى موحد تشترك فيه الدول العربية كلها » ٠

قال (وكنموذج للمكونات التى يجب أن يشتمل عليها القمر الصناعى العلمى ينبغى وجود عدة « كاميرات » أهمها « كاميرا » للتصوير الطبوغرافى ، و « كاميرا » للتصوير الدقيق ، أى بانورامية و « كاميرا » لأخذ الصور المتعددة الأطياف ، على نمط أجهزة لاندسات بل أكثر دقة وأقل تعقيدا) ٠

الكاميرات الطبوغرافية تلزم لأخذ الصور المطلوبة لخرائط على مقياس ١ : ١٥٠٠٠٠ من ارتفاع ١٨٠ كيلو متر ، وطول عدسة هذه (الكاميرا) هو ٣٠٥ ملليمتر ومساحة الصورة الواحدة ٢٣ × ٤٦ سنتيمتر ٠٠ الخ ٠

اننى تعمدت هذا النقل ليعلم من يجهل أن دراسة الكون شىء مثير وخطير ولابد منه لدنيانا ودِيننا معا ٠

وأن هذه الدراسة برع فيها غيرنا ونبت لديه جيل من الرواد والباحثين العباقرة على حين تراجعنا نحن وراء وراء ٠

ان هذا التخلف اذا بقى فسوف تتلاشى عقائد الايمان بالله واليوم الآخر ، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء ٠

وانني لأصرح دون مواربة ان هذا التخلف جريمة دينية لاتقل نكرا عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التى ألفنا الترهيب منها ٠

بل لعلها أشنع وأوخم عقبى ٠

ان الجو الذى يحيا فيه قارىء القرآن يسع البر والبحر ، والسماء والأرض ، ويطلق الفكر سابحا فى ملكوت لانهاية له ٠

ويؤكد للانسان انه ملك يخدمه كل شىء فما الذى جعل الفكر الدينى يعيش فى قوقعة ؟ ٠

اننى أحس فزعا كبيرا عندما أرى بعض المتصدرين فى العلوم الدينية ـ هكذا يوصفون ـ يمارى فى دوران الأرض أو ينكر وصول الانسان الى القمر ! لماذا ؟ ٠

لأنه يعيش فى مغارة سحيقة صنعها أشخاص قاصرون ، لايتصلون بحقيقة القرآن الا كما يتصل القروى بعلوم الذرة ٠

واذا كنا هنا قد أطلنا الكلام فى التسامى الروحى للانسان فلنذكر أن القرآن الكريم ينشد التسامى العقلى والخلقى معا ٠

ويشدد النكير على السقوط الفكرى كما يشدد النكير على السقوط النفسى ٠

أى أنه يحارب الخرافة بالقوة نفسها التى يحارب بها الرذيلة ٠

بل ان منابع الايمان فى نفس الانسان تنبجس من علم عميق محيط دارس للكون دراسة ملاحظة وتجربة واستقراء لا دراسة تخمين وظنون وخيال ٠٠ واذا لم تنبعث نهضتنا من هذا الأصل فلن تكون نهضة اسلامية صحيحة ٠

ان هذا العلم بالمادة ، بالفطرة التى فطر الله الكون عليها ، بالسنن التى تحكم هذا الكون علوه وسفله ، وطوله وعرضه ، ان هذا العلم ينظم الانسان مع الملائكة فى الشهادة لله الكبير بالتوحيد والعدل ٠

نعم أن أولى العلم ، والملأ الأعلى يؤكدون هذه الحقيقة التى شهد الله بها لنفسه فقال :

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(آل عمران : ١٨)

كيف غيّر الإسلام مسار العالم

لم يكن الاسلام فكرة يحلم بها فيلسوف ، أو نظرة ينقطع لها راهب بل كان دينا تتغير به النفوس وتنتقل من أدنى الى أعلى ! وتتغير به المجتمعات تغيرا يصبها فى قوالب جديدة من صنع الله لا أثرا لصنع الناس .

ان العمل الذى كلف به محمد صلى الله عليه وسلم بعيد الآماد ، شاق المراحل ، كان عليه أن يزيح ركاما هائلا من الأوهام والأهواء أثقل القلب الانسانى وضلل سعيه .

كان عليه أن يفك قيودا منعته شاركت فى صنعها أديان أرضية وسماوية .

كان عليه أن ينقذ الناس من مواريث روحية وفكرية وأدت الحق وطمست الفطرة .

ماكان أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم يستطيع ذلك ! الأمر كما قال الكتاب العزيز :

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينه : ١ ـ ٣)

ان انفكاك القرون عما ألفت ، وانتقالها الى طور آخر من الوعى والسداد هو العمل الكبير الذى أتمه صاحب الرسالة الخاتمة ، وغير به وجه الأرض ، وصحح به أخطار التاريخ ولابد من تفصيل يضع النقط على الحروف ٠

ان محمدا وعيسى أخوان ، ولكن الاسلام حاسم فى رفضه للفكر الشائع بين النصارى ، أى رافض لعقيدتى التثليث والفداء ، أساس الدين اله واحد ، وانسان مسئول برأسه عن نفسه ، وعيسى لم يقل الا هذا ٠٠

ومحمد وموسى أخوان بيد أن دين محمد صلى الله عليه وسلم يرفض صلف اليهود ، وتصورهم الردىء للألوهية وزعمهم أن لهم بالله علاقة خاصة تسول لهم الجور على سائر الخلق ، ان موسى لم يقل شيئا من هذا ٠٠

غير صحيح أن محمدا بعيد عن موسى أو عيسى ، كلا ، انه بعيد عن مبتدعات أقحمت عليهما وغشت تراثهما ، وخدعت الجماهير باسم الله عن دين الله ٠٠

لكن كيف يتم تصحيح تلك الأخطاء التى غبرت عليها قرون طوال ؟ يتم بانارة العقل والتفاهم الهادىء والحوار الحسن ! يتم برد الانسان الى فطرته واحترامه لمواهبه واستكشافه لحقيقته ٠

انك لتلمح ذلك المنهج فى قوله سبحانه :

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة : ١١١ ـ ١١٢)

لماذا أحرم عناية الله وعطفه وأنا أخلص له قلبى وأسلم له وجهى ٠

لقد كان أهل الكتاب ينتشرون شمالى الجزيرة العربية وفوقها حتى ملتقى البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى أما الجزيرة نفسها ، وشرقها حتى المحيط الهادى فان الوثنيات وجدت لها مرتعا خصبا ٠

وغريب أن يعبد الانسان حجرا كان من حقه أن يجعله درج سلم يصعد فيه ، أو يعبد بقرة كان من حقه أن يذبحها ، ويسد بها جوعه الى طعام دسم ! ولكن الانسان كان ولا يزال يفعل ذلك ٠

الظاهر أن هذه الوثنية غطاء لاتباع المرء هواه، أو هى سد يعترض التفكير السوى ويردم مجراه لتنطلق بعد ذلك غرائز الانسان الدنيا وشهواته العاجلة لتعربد كيف تشاء ٠

هل تلك حقيقة الوثنية وحدها ؟ أم هى حقيقة كل تدين ينيم العقل ويأبى منطقه ؟ سواء فى ذلك الالحاد والتعديد ، والجحد والتجسيد ، وما ينتسب الى الارض أو ماينتسب الى السماء ٠

ان الانحراف عن الصراط المستقيم يأخذ خطوطا شتى ، ولا نحاول احصاء هذه الخطوط ، ولا معرفة أين زاغت ! المهم معرفة الصراط المستقيم وايضاح معالمه وارشاد التائهين يمنة ويسرة اليه ٠

وكم تكون هذه المهمة جسيمة وفادحة اذا كانت تتناول العالم أجمع

وقد كانت هذه هى الرسالة التى صدع بها النبى العربى الخاتم ، عليه أن يهدى الناس كلهم ، عليه أن ينير بالحق بصائرهم ، عليه أن يفك القيود التى شلت حراكهم الروحى والعقلى ، انه رحمة للعالمين وقد تضمن الكتاب الذى نزل عليه التحقيق الأمثل لهذا الهدف الجليل ، ونذكر منه الحقائق الاتية :

أولا ــ لايستطيع المرء أن يعرف ربه معرفة حقة وهو محجوب عن الكون الكبير الذى يعيش فيه ، ان التأمل فى الذات العليا مستحيل ، وانما ندرك عظمة الذات من آيات الله فى ملكوته الضخم ، وذاك منهج القرآن فى بناء الايمان :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ (الأنعام : ٩٥)

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَناً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾ (الأنعام : ٩٦)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الأنعام : ٩٧)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام : ٩٩)

ولا نعرف كتابا قبل القرآن ، ولا نبيا غير محمد صلى الله عليه وسلم ، ربط الناس بروائع العالم وبدائعه على هذا النحو .

وليست صلة الانسان بالعالم لمعرفة بديع السماوات والأرض فقط بل لبيان المملكة الفسيحة الأرصاد التى أعدت للانسان وجعلت له مرتفقا ..

ان التدين ليس غربة ولا عجزا ولا انحسارا فى هذه الدنيا ، كيف وقد قيل للناس كلهم :

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان : ٢٠)

وفى آية أخرى :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثيه : ١٣)

ولو انساق المسلمون مع توجيهات دينهم لكانوا أسبق الى غزو الفضاء من غيرهم ولكن معنى الدين انكمش فى نفوس كثيرة فما قدرت الله حق قدره ، ولا أبصرت وظيفة فى كونه ، ولا سمت همتها لتتبع نبيها المتجاوب مع ملكوت الله ، الذى أسرج مصابيح حضارة مادية وأدبية لانظير لها ..

ثانيا ـ من العلماء والأطباء من اعتبر الزمان بعدا ماديا رائعا مع الطول والعرض والعمق واذا كان ذلك موضع جدال فى عالم المادة فهو فى حياة الامم وتاريخها المديد حقيقة ملحوظة .. وقد أشار علماء التفسير الى أن كيان الأمم فى الماضى والحاضر وحدة متماسكة ، وأن الاخلاف النابتين بعد الاسلاف مسئولون معهم عما قدموا ماداموا ينشأون على عقائدهم ويسيرون فى مسالكهم ويتبنون قيمهم ! .

من أجل ذلك قيل لبنى اسرائيل فى المدينة أيام البعثة الشريفة :

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة : ٤٩)

لقد خوطبوا بما وقع لآبائهم مع بعد الزمان لأن المسئولية مشتركة بين أفراد القافلة التى تنطلق الى هدف واحد ، وينتظمها باعث واحد ، وان اختلفت الأعصار والامصار .

وهذه النظرة الشاملة للانسانية قديمها وحديثها جعلت القرآن الكريم يمتلىء بالقصص الحاكية لأحوال الأولين ، وأطوار الصراع بين الحق والباطل والخير والشر ، والمرسلين وأتباعهم من ناحية ،والمجرمين وأحزابهم من ناحية .

نعم فعلى المستأخرين أن يفيدوا من التجارب الماضية كما يستفيد أى شخص من عظات الأمس القريب أو البعيد ! .

عليهم أن يدركوا :

﴿ومَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾
(هود : ١١٧)

وعلى المصلحين الثبات فى مواقفهم وان تجهمت الدنيا لهم وغاب النصر عنهم فان المستقبل لمبادئهم على أية حال :

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود : ١٢١ ــ ١٢٣)

ثالثا ــ الدين عقائد وتوجيهات عملية ، وآفة العقيدة الا تكون مطابقة للواقع ، ان الكذب هنا أمر خطير ، وآفة التوجيهات أن تكون جائرة مرذولة ، تضر الأفراد والشعوب •

والاسلام ــ فى كلا الميدانين ــ منزه عن هذه الآفات ، بل هو يتهدد مروجى الكذب فى مجال الايمان ، ومروجى الشر فى ميدان السلوك فيقول :

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (الجاثيه : ٧)

ثم يكشف الاسلام عن طبيعة الصدق فى عقائده ، والعدالة فى وصاياه ، فيقول :

﴿وتَمَّتْ كَلِمتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنعام : ١١٥)

وهكذا يبنى الاسلام حاضر الناس على الحق والخير ، ان الله الأحد ليس له شركاء ، أين هم ؟ •

لا وجود لهم فى شرق أو غرب ، لا وجود لهم فى أرض أو سماء ، ان الاشراك خيالات سكارى يجسدون الأوهام ، لا اله الا الله ! •

وأذكى الناس فى تصوير هذه الحقيقة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ومنه وحده يعرف الخبر اليقين ، كما أن منه وحده يعرف التوجيه الصحيح لسلوك الناس على ظهر هذه الأرض ٠

فالعبادات التى شرحها ضوابط للسمو وموانع من الاسفاف والمعاملات التى شرعها تدور على محور من المصالح عادة وترفض الضرر للافراد والجماعات ٠

ان الدين ـ من أفواه بعض الدعاة ـ مر المذاق كريه التناول ! لأنهم يضيفون اليه من نفوسهم المعتلة ماتعافه الطباع السليمة ، ولأمر ما يقول الله فى كتابه :

﴿قُلْ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (المائدة : ٧٧)

وهزائم الدين فى بيئات شتى ترجع الى هذه الاضافات الأرضية لا الى أصوله السماوية ، وعلى المسلمين المعاصرين الالتفات الى هذه الحقيقة وهم يتصورون دينهم ويصورونه للناس ان فتانين كثيرين انتشروا هنا وهنالك يتحدثون باسم الاسلام وبصرهم بحقائقه كليل ٠

رابعا ـ الى أين المصير ؟ لقد فضح الموت الحياة ، فهو يسطو عليها كل دقيقة من الساعة ، بل كل ثانية من الدقيقة ، وفى أنحاء القارات الخمس تتصل مواكب الذين يغادرون هذه الأرض ليخلوا المكان لقادمين جدد عجبا أين يذهبون ؟ ٠

يقول الدين : انهم يعودون الى بارئهم كى يقدموا حسابا عن حياتهم السابقة ٠

ويفر كثيرون من الاجابة على هذا السؤال لأن سكرة الدنيا تشغلهم عنه ، أو لأن خطورة المصير تفزعهم فهم يفضلون عدم رؤيته كما تفضل النعامة دفن رأسها فى الثرى حتى لاترى ٠٠ الصياد المقبل ٠

وحديث اليهود عن الآخرة غامض ونادر ، بل لا ذكر له فى أسفار موسى الخمسة « التوراة » عندهم ! وحديث النصارى عن الآخرة روحانى محدود الصورة ، أما حديث القرآن فهو عن عالم مكتمل الوعى محسوس الثواب والعقاب ، تسمع فيه دوى الحوار بين السعداء والأشقياء كما تلمح فيه استيعاب المساءلة لكل مايقع من المرء فى دنياه ..

هناك أجل لكل فرد ، ماينكر ذلك مؤمن ولا ملحد ! فأما الملحدون فيرون ذلك الأجل ختام الحياة كلها ، وأما المؤمنون فيرون ذلك بدء الحياة الأبدية الصحيحة . وستبقى الدنيا تركل وفودها كل لحظة الى العالم الآخر حتى ينتهى أجلها هى الأخرى ، وهنا تلتقى القرون كلها لتتوزع على النعيم والجحيم ، وتكتمل نشأة الدار الآخرة .

هناك من يرفض ذلك التصور كله ، ولا يدرى من أين أتى ولا من أتى به ؟ وتصوير القرآن لذلك الانسان جدير بالتأمل :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (الصافات : ٥٠ ـ ٥٧)

ان هناك ميثاقا غير مكتوب بين المذاهب والمبادىء المنتشرة فى عالمنا المعاصر ، ألا تذكر الدار الآخرة ! وأن يقتضب الحديث عنها اذا عرضت ضرورة لهذا الحديث الكئيب ! وهذا موقف يستحق النظر .

اننى أؤيد ذلك عندما يكون الدين تعويقا لحركة الأحياء ، وكسرا لهمم العاملين المنتجين ، ومن أهل الدين من يريد بذكر الموت اطفاء شرارات الحضارة ، وتجفيف منابع الأمل ، وهؤلاء يسيئون الى الدين والدنيا معا .

لقد أكثر القرآن الكريم من الحديث فى الدار الآخرة ومشاهد البعث والجزاء ، والغرض من ذلك لايعدو تذكير الغافلين وترشيد المسعورين حتى يدخلوا حساب العالم القادم فى حساب يومهم الحاضر ، مستشعرين قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

(القصص : ٦١)

والنسيان شديد الوطأة على ألباب الناس حتى ليذهلهم عن حقائق قريبة وشئون ذات بال ، فاذا كانوا يسهون عن حاضرهم أفلا يكونون عن الغد البعيد أكثر سهوا وأحوج الى مذكر ملحاح ؟ ·

وبعد فقد ارتقت العلوم الكونية والانسانية ، واتسع تطبيقها لترفيه العالم وترقيته ، فهل يستغنى الناس فى عصرهم هذا عن تلك العناصر التى تضمنها الاسلام لضبط مسارهم وأحكام أمرهم ؟ يبدو أنه مع اتساع الحضارة تكثر الحاجات المادية والروحية على سواء ، ولعلهم فى يومهم القريب أشد فقرا الى الاسلام من أمسهم البعيد ·

أبعاد التغيير الإنساني قبل كلمات الله الحاسمة

لاتنجح رسالة أو تزدهر حضارة أو تسبق أمة الا اذا وقع تغيير جذرى فى كيان هذه الامة السابقة المتفوقة ، أو تلاقت خصائص مادية وأدبية فى مقومات تلك الرسالة الناجحة والحضارة المزدهرة ·

نعم ، فصعود الجماعات أو هبوطها لايتم وفق حظوظ عمياء أو مصادفات طارئه ! بل للمد والجزر علل كامنة ان غابت عن العين المجردة فلن تغيب عن البصائر الحادة والعقول الثاقبة ·

وقد تتبعت أسباب التحليق والاسفاف عند من يحلقون ومن يسفون فوجدت سنن الله الكونية تعمل عملها كأنها خصائص المادة وقوانينها الثابتة ، لاتنخرم ولا تتخلف ٠

ويسرنى أن أقدم نموذجا لاطراد هذه الحقيقة من سورة «الأنفال» وهى تخص أسباب النصر لقوم والهزيمة لآخرين ٠

ولكن ــ قبل هذا التقديم ــ أثبت كلمة قالها لى سائح مسلم فى ديار الأندلس قال : ان الدليل الذى قادنى بين آثار الحمراء تناول المسلمين بالكلمة الحاسمة ، لقد قامت لهم دولة هنا لما كانوا لله خلائف ، ثم طردوا من هذه الديار لما أصبحوا على ثراها طوائف ٠

العبارة لاذعة بيد أنها تصور الحق المجرد ، يوم قادهم الايمان قامت لهم دولة ترعى الخير والشرف ، وتصدر للاخرين العقائد والقيم ، فلما أسلموا زمامهم لشهوات ، ومزق وحدتهم الترف وحب الدنيا ، لم يبق لوجودهم معنى ، فعادوا من حيث جاءوا ٠

ترى هل وعوا ذلك الدرس الفاجع ؟ لا أدرى ! ٠ ولكنى وأنا أتدبر القرآن الكريم وجدت صورة لأبعاد التغير الذى يسبق كلمات الله الحاسمة فى الاعزاز والاذلال ، وجدتها وأنا أتلو سورة الأنفال ، فأحببت أن أصورها فى هذه العجالة ٠

وفى وسط السورة تلمح قادة الوثنية الجاهلية وهم يودعون الحياة شر وداع ، تتناولهم ملائكة الموت باللطمات والصفعات وهم يواجهون جزاءهم

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (الأنفال : ٥٠ ــ ٥١)

ماذا فعلوا ؟ ظلوا أمدا طويلا يكرهون الحق ويؤثرون العناد ، ويحيون لأنفسهم فما يرجون لله وقارا ، ولا يتخذون عنده مآبا ٠

كانوا في رخاء لاتشوبه أزمة ، وفي أمان لايعكره قلق ، فما شكروا من هذه النعماء قليلا ولا كثيرا ، وجاءهم رجل منهم لاترقى الى سيرته تهمة فطاردوه في صلف غريب .

والانسان العادي اذا اشتبهت عليه الأمور طلب من الله أن يهديه الى الصواب ، أما هؤلاء فقد أبغضوا الحق ، وأبغضوا النزول على حكمه ، وقالوا مكابرين رب الكون :

﴿ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال : ٣٢)

ولقي دعاؤهم الأخير بعض الاجابة ، فلما التقوا بالمسلمين في « بدر » حل بهم خزي رهيب ، وتبخر السراب الذي كانوا يعيشون في خداعه فسقطوا بين قتيل وأسير .

أنهم ليسوا وحدهم الذين يفسدون فيعاقبون ، كان الفراعنة على هذا الغرار ، فغشيهم من اليم ما غشيهم

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال : ٥٢ ـ ٥٣)

وعند الجملة الأخيرة نقف طويلا لنتساءل : ما أبعاد هذا التغيير وما مداه ؟ ان القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ويؤكد بعضه بعضا ! في سورة أخرى يقول جل شأنه :

﴿ إِنَّ ٱللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١)

ويقول بعد ما أودى بنعيم « سبأ » وخرب جنانها :

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سبا : ١٦ ، ١٧)

ويقول فى أهل مكة لما حاربوا الرسالة الخاتمة ، وقاوموا أمام الأنبياء ، ورفضوا احالة النظر فيما عرض من آيات بينات ·· يقول :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل : ١١٢)

وما يجب ابرازه هو طول المدة التى يستغرقها الاختبار الالهى، فان الاقدار طويلة الأنفاس ، والصراع بين الحق والباطل لاتتكشف عقباه فى سنة أو سنتين ، ولا فى جولة أو جولتين ·

انه قد يستوعب السنين والقرون :

﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج ٤٧)

ولما كان عمر الأفراد محدودا ، فقد اقتضت حكمة الله أن يهيىء لكل انسان فرصة كافية يتمكن فيها من معرفة الحق ، ويقدر فيها على اعتناقه ، وذلك من تمام العدل الالهى ·

ان الناس تحكمهم تقاليد شديدة ، ويتوارثون أفكارا يحتاج نقدها ووزنها الى زمان غير قصير ·· بل ان الأهواء التى تصرف البشر لها سلطان محيط ، والخلاص منها لايتم بين عشية وضحاها ·

وقد تأملت فى ماضى خالد بن الوليد عبقرى الحروب الملهم ، وماضى عمرو بن العاص السياسى الداهية ، فوجدت كلا الرجلين لم ينشرح صدره للاسلام الا بعد مايقارب العشرين سنة ·

ومن رحمة الله وحكمته أن منحهما هذه الفرصة ، وهما مثل لغيرهم من سائر الخلق ٠

وفى سورة الأنفال رأينا المعركة التى قصمت ظهر الوثنية ، وقعت بعد خمس عشرة سنة من بدء الرسالة كانت هذه الفترة هى المدة التى حددها القدر الأعلى ليكشف مصير فريقين من الناس ٠

أولهما : المؤمنون الذين تحملوا العنت وصابروا الليالى الكوالح وهم يساندون الحق ويأملون فى الغد القريب أو فى الدار الآخرة ان فاتهم النصر فى هذه الدنيا ٠

والفريق الثانى : الكفار الذين قاوموا الشعاع المقبل بكل مالديهم من جبروت ، واستماتوا كيما يبقى ليل الوثنية مخيما على جزيرةالعرب وكيما تبقى الخرافات تسرح فى المشارق والمغارب ٠

ويخيل الى أنه الى آخر ليلة باتها المشركون قريبا من بدر كانت الفرصة باقية أمامهم ليسلموا ويسلموا ٠٠ ولكن المرء عندما يمضى على سيرته ، أو عندما يتحرك وفق طبيعته يرتكب الغلطة التى تبت فى عاقبته كلها ، أى يفعل مايسمى بالقشة التى قصمت ظهر البعير ، أو القطرة التى فاض بها الاناء ٠

وذلك مافعله أبو جهل ، كان الرجل يستطيع أن يعود بقومه مادامت القافلة التى خرجوا لانقاذها قد نجت ، بيد أن مشاعر الكبرياء ، والغرور هاجت فى دمه فقال : لانعود حتى ننحر الجزور ، ونشرب الخمور ، وتغنى لنا القيان ، ويسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا أى أنه كان حريصا على اذلال الاسلام وأهله فى مهجرهم الجديد ٠

ان هذا القصد النزق هو الذى ذبحه ، وقاد قومه معه الى المأساة ! وهذا ماتفسره الايات من سورة الأنفال التى نزلت لتشرح العدل الالهى فى مصاب المهزومين :

﴿ولَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عنْ بَيِّنَةٍ ويَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَة وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال : ٤٢)

وفى أول السورة يزداد الأمر وضوحا ، ان القدر الأعلى تدخل على غير مايود المؤمنون ! انهم كانوا يودون الأوبة الى المدينة بغنيمة باردة يدعدون (١) بها حياتهم المرهقة ! ولكن الله ـ بعدما أنهى المشركون الفرصة الممنوحة لهم كى يعقلوا ـ قرر انزال ضربة مهينة بهم :

﴿وتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ويُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ويَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ ويُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال ٧ ، ٨)

ان الأمم تضيع بعدما تبدد آخر فرصة للنجاة ، والأقدار التى تنزل بصعود هذا ، أو هبوط ذاك ليست حركات عابثة ، انها أقدار تزن بدقة هائلة مسالك الأفراد والجماعات .

وتتجدد فرص النجاة ، أو امكانات التوبة مرة أخرى أمام الصناديد الذين وقعوا أسرى ! لطالما ضيقوا الخناق على الاخرين وحرموهم حق الكلمة وحرية المعتقد ، وهاهم أولاء أصبحوا فى قيود الهوان والمسكنة لقد قيل لهم : انكم وحدكم الذين تصنعون مستقبلكم ، ان انتويتم خيرا للناس انفتحت أمامكم مجالات رحبة للحركة والعطاء ، والا فلكم الويل .

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال ٧٠ ـ ٧١)

(١) دَعْ دَعْ : كلمة تقال للعاثر يدعى بها له فى معنى قم فانتعش واسلم ، ودعدع دعدعة عدا عدوا فيه بطء والتواء .

ان الخونة قد يستطيعون الاساءة الى غيرهم ردحا من الزمان ، وقد يتطاولون فى المجتمعات ويحسبون أن الجو قد خلا لهم ·· غير أن القضاء الحكيم يتربص بهم الى حين ، ثم يستمكن الوثاق من أعناقهم ·

وندع المجتمع الكفور يلقى مصيره كما صورته سورة الأنفال ، ونلقى نظرة أخرى على المجتمع المؤمن ! لقد عاش قبل الهجرة وبعدها يحترم دينه ، ويقدم مطالبه على رغائبه ، ويحمل فى الحياة شارته ويرفع رايته ! وكان خصومه يستكثرون عليه حق الحياة كما يريد ، بل كانوا يروعونه فى الحرم الآمن ، ويرغمونه على النزوح هنا وهناك ·· لقد أنالته الأقدار مكافأة سخية لم تخطر له ببال ، فضلا عن أن يرسم لها خطة ويشرف على التنفيذ ·

أجل ، لقد أنالته الأقدار النصر والتمكين والسيادة ، والى ذلك أشارت الآية الكريمة :

﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال : ٢٦)

وهنا نلقى نظرة أشمل على السورة كلها ، لنرى أنها فى صدرها رسمت صورة المجتمع المؤمن حقا ثم بثت خلال القصص الواعى وعبره البالغة نداءات شتى للمؤمنين تحدوهم الى الكمال وكأنها تقول لهم : ان البقاء فى القمة يحتاج الى مثل الجهد الذى بذل فى بلوغها ! فلا قعود ولا ترف ·

ومن أجل ذلك تضمنت السورة ستة نداءات لايستغنى عنها سلف ولا خلف ، بل لعلنا اليوم أحوج الناس الى فقهها ·· أول هذه النداءات وآخرها يقومان على معنى واحد ، هما قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ (الأنفال : ١٥)

وقوله تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال : ٤٥)

وثم أربعة نداءات أخرى تتضافر على صون الأمة ، واستدامة صلاحيتها للرسالة التى تحملها ، هى قوله :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال ٢٠)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال : ٢٤)

وقوله :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال : ٢٧)

وأخيرا قوله :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ (الأنفال : ٢٩)

ذلكم هو الأساس للتغير الشامل الذى يجىء بعده حكم القدر بيننا وبين أعداء الله ، وهو أساس لايختلف مع اختلاف الليل والنهار .

أولوا الألباب في كتاب الله

أشعر بغضاضة وغضب عندما يفهم الدين على أنه ركون الى غيبيات غامضة ، أو انسياق وراء مشاعر مبهمة ، كأن الايمان فكر قاعد والالحاد فكر متحرك ، أو أن الانسان المؤمن يستكين للمجهول أما الآخرون فيستكشفون الأسرار ، ويبحثون عن المعرفة ·

ربما كان بعض المنسوبين الى الدين ردىء النظر عليل الفطرة ، فما ذنب الدين اذ يحمل لهؤلاء أو يحمله هؤلاء ؟ ·

لقد رأيت القرآن الكريم يتحدث عن « أولى الألباب » يعنى أصحاب العقول فى ستة عشر موضعا ، نستطيع عند تدبر كل موضع منها أن نعرف المستوى العالى لذوى الايمان الصحيح ، وكيف يتحرك العقل المؤمن فى كل اتجاه ليقرر الحق ، ويقود اليه ·

ونكتفى الآن بسرد هذه الايات المنوهة بقيام الدين وأحكامه على الرشد والصواب لا على الجزاف والفوضى ·

فى سورة البقرة ثلاث آيات مختلفة السياق والموضوع هى :

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
(البقرة : ١٧٩)

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾
(البقرة : ١٩٧)

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ (البقرة : ٢٦٩)

وللحكمة مواضعها الحميدة سواء فى تبليغ الدعوة أو فى انفاق المال ، أو فى أى شأن آخر ٠

وفى سورة آل عمران آيتان : الأولى تتحدث عن عصمة الفكر من البحث فيما وراء المادة ، لان هذا النوع من البحوث يقوم على التخمين والتوهم ٠٠

والثانية تطلق العنان للفكر كى يبحث ويستنتج فى المادة وأسرارها وقوانينها ، وقيام الله عليها ، واحكامه لوجودها ٠

قال تعالى فى الموضع الأول :

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَه مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ومَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللهُ وٱلرَّاسِخُونَ في ٱلْعِلْمِ يقُولُونَ آمنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران : ٧)

أما الحث على التأمل فى الكون فهو فى الموضع الثانى من السورة قال تعالى :

﴿إِنَّ في خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي ٱلْأَلْبَابِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١)

ومعرفة الحق لاتكترث بالتقاليد السائدة ، ولا تتقيد بالعرف الشائع ، انها بحث حر لا علاقة له بكثرة الأصوات أو قلتها ·

والمغالاة بالحق مطلوبة فى وجه المنكرين له أو النافرين منه مهما كثروا ، فهم كما قيل :

ان شئت ان يسود ظنك كله فأجله فى هذا السواد الأعظم !

وذلك مايشير اليه قوله تعالى :

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَـٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
(المائدة : ١٠٠)

ولمعرفة التاريخ العام أثر عميق فى صوغ العقل ونفعه بتجارب لاحصر لها ، فان حاضر الانسانية امتداد لماضيها البعيد ، ومهاد لمستقبلها المرتقب وعلى المؤمنين أن يلتمسوا العبرة مما مضى ليصونوا يومهم وغدهم ، وهل للتاريخ ثمرة الا هذا ؟ قال تعالى فى سورة يوسف :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ما كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (يوسف : ١١١)

وهذه الآية ختام لفصل متكامل من التاريخ البشرى الحافل ، وهو ختام صريح فى أن القصص القرآنى واقع لا خيال ، واخبار صادق لا تأليف مفتعل كما يشيع بعض المبشرين التائهين ·

وفى سورة الرعد حديث مفصل عن الخلال النبيلة التى يستجمعها أولو الألباب ، وتضبط مسالكهم كلها ، والذى يثير الانتباه هنا هو ارتباط الفضائل الانسانية بالبصر العقلى ! وبراءة المؤمنين من التخبط الذى يقع فيه العميان وكل من ضل الطريق ! ·

قال تعالى فى الموضع التاسع من ذكر أولى الألباب :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ ﴾ (الرعد : ١٩ ـ ٢٠)

وفى سورة ابراهيم نجد وصفا للصراع بين الحق والباطل ، والآثار القريبة والبعيدة لهذا الصراع ، سواء فى دنيا الناس أو فى اللقاء الأخير مع رب العالمين .

وقد ختمت السورة بهذه الآية :

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ (ابراهيم : ٥٢)

وأريد أن استطرد قليلا وأنا أنقل هذا البلاغ للناس ، فى أول سورة من القرآن تحدثت عن بناء الكعبة ، وكيف جعلها ابراهيم حصنا للتوحيد ، وبيتا لعبادة الله الواحد ، وقبلة لكل من يقيم الصلاة .

رأيى أن هذا الختام يومىء الى وظيفة الأمة العربية ، والى رسالتها الضخمة فى هداية الخلق كافة ، انه ـ فى هذه السورة ـ ايماء وحسب ! ولكن عند الحديث عن القبلة الدائمة لجماهير المصلين فى كل القارات ، ذكر دور العرب بايضاح أكثر .

وتدبر معى قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾

(البقره : ١٥٠)

هنا تحديد للقبلة على اختلاف الزمان والمكان ، وتهوين بشأن المكابرين والمعوقين ٠

ثم ماذا ؟ ثم امتنان من الله على العرب يقول فيه :

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(البقرة : ١٥٠)

أى قد جعلنا الكعبة المبنية فى أرضكم قبلة الجنس البشرى كله عندما يصلى لربه ، وليس هذا أول تكريم لكم ، بل هو تكرار للتكريم الذى سبق بابتعاث النبى الخاتم منكم ! وهذا معنى قوله :

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقره : ١٥١)

ومن حق الله بعد ماجعل القبلة فى أرضكم ، والرسالة بلغتكم ومن جنسكم ، أن تعرفوا هذه المكانة ، وأن تشكروا هذا الصنيع ٠

ومن ثم قال :

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

(البقره : ١٥٢)

اننى بعد هذا البيان لا أجد أحقر ممن يفصل العروبة عن الاسلام ، ويظن لها مجدا دونه ٠

وعلى ضوء ذلك التفسير نستصرخ أولى الألباب من العرب ليعيدوا النظر فى تدبر قوله سبحانه :

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ابراهيم : ٥٢)

فى سورة ص نجد الموضعين العاشر والحادى عشر ، لأولى الألباب ٠

فى الموضع الأول يقول تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (ص : ٢٩)

القرآن غزير المعانى ، مفعم بالحقائق بيد أن الطريق لاستبانة هذا كله ادمان النظر ، وتعميق البصر وطرق الأبواب دون سآمة ، فان حسن الفهم عطاء أعلى قبل أن يكون كد الذهن وطول التلاوة .

وهو كتاب مبارك ، دراسته زكاة للفؤاد ، ونور على الطريق .

وتطبيقه دعم للسلطة وترشيد للحكم وخير لاتفنى ينابيعه ..

والمؤسف أن أمتنا تقرأ القرآن أحرفا وتسمعه أنغاما ، فهل ترجع من ذلك بشىء يرفعها الى مصاف أولى الألباب ؟ .

أما الموضع الثانى فيتصل بالانسان عندما يترنح تحت وطأة الألم ، وتتابع على أعصابه سياط البأساء والضراء ، هل من ملجأ الا الله ؟ هل من موقف يقفه المؤمن الا التسليم والصبر ، والانتظار دون تبرم ؟ .

لقد حكى القرآن باجمال قصة أيوب الذى ألحت عليه الأوجاع ، فانحصر داخل عبوديته يتألم ويؤمل ، يتحمل ويرجو ، حتى تأذّن الله بالفرج ، وجاءت العافية المنظورة :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص : ٤٣ ـ ٤٤)

فى أدبنا العربى القديم تحدث أولو الألباب عن الشدائد التى عرضت لهم ، ويفخرون بأنها لم تلجئهم الى الاسفاف أو الصغار ، لا الغنى أطغاهم ، ولا الفقر أذلهم .

فان تكن الأيـام فينـا تبدلت ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل
فمـا لينت منا قنـاة صليبـة ولا ذللتنـا للتى ليس تجمـل
ولكن رحلناها نفوسا كريمـة تحمـل مالا يستطاع ، فتحمل
وقينا بحسن الصبر منا نفوسنا فصحت لنا الأعراض والناس هزل

وفى هذا المعنى نفسه يقـول آخـر ، لم يذكـر الـرواة اسـمه ! لعله جندى مجهول فى باب الأخلاق ·

وانى لأستغنى فما أبطر الغنى وأعرض ميسورى على مبتغى قرض
وأعسر أحيانا فتشتد عسرتى وأدرك ميسـور الغنى ومعى عرضى
وما نالها حتى تجلت وأسفرت أخو ثقة منى بقرض ، ولا فرض

يعنى أنه ظل متجلدا لايكشف نفسه حتى انجلت الظلمة ، فما مـد يده طلبا لقرض أو طلبا لهبة ·

والأمم انما تعلو أو تهبط وفق رصيدها الخلقى ، لا المالى ، كذلك قال كتابنا ، وسجل أدبنا ·

وفى سورة الزمر نجد المواضع (٩ ، ١٨ ، ٢١) لأولى الألباب ·

فى الموضع الاول حديث عن قوام الليل ، هناك رجال فى أعصابهم مدخر من نشاط لايستنفذه شبح النهار الطويل ، فهم يبقون مع ادبـار النهار واقبال الليل قادرين على العمل ، فماذا يعملون ؟ ·

يميتون الليل بالغفلة ؟ أم يجعلونه أحمر بالعصيان ؟ انهم يضيئون جوانبه بالعبادة والتهجد مقتدين بامام العابدين ·

قال تعالى :

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱلَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ (الزمر : ٩)

وتلحظ أن أول الآية ذكر الأيقاظ الخاشعين وطوى ذكر النيام الذين لايرجون ولا يحذرون ! كأنهم أتفه من أن يذكـروا فى هذه المفاضلة ، وهم بداهة لايحسبون من أولى الألباب ٠ ٠

وفى الموضع الثانى من سورة الزمر نرى معالم للشخصية الانسانية التى تنشر الأكمل والأجمل فى كل مايعرض عليها ٠٠ انهـا توازن بين المبادىء ، والمذاهب وتؤثر الأحسن باستمرار ٠

من الناس من تراه صريع عقدة ثابتة فى دمه ، ومنهم من تراه سائب القياد يجره تيار هنا وتيار هناك ، أما أولـو الألبـاب فى هـذا الموضع فهواهم الغالب مع الأشرف والأفضل ٠

قال تعالى :

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ وَأُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾
(الزمر : ١٧ ، ١٨)

مايقول المرء فيمن لايتجاوز بصرهم مواقع أقدامهم ؟ ومن يرضون بالأدنى من كل شىء ؟ ان الايمان الحق مع الهمم العوالى ، وفى كل كفاح على ظهر الأرض ماتكون البشرى الا لهؤلاء ٠

أظن أبا الطيب المتنبى كان يستوحى الآية الكريمة نصا وروحـا عندما قال بيته المشهور :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام !

والموضع الأخير لكلمة « أولى الالباب » فى سورة الزمـر يتنـاول مصدرا من مصادر الايمان الحق ، وكيف ينبنى هذا الايمان على التفكر الواعى ٠

قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(الزمر : ٢١)

لا ريب أن خروج الحبوب والثمار من هذا الحمأ المسنون وهى حافلة بشتى الأغذية ، وأنواع الطعوم ، وروائع الألوان ، يدل على قدرة مبدعة ولطافة فوق التصور ٠

ان دورة الماء فى الكون ، ودورة النبات فى الأرض وراءهما أسرار جديرة بدراسة أولى الألباب ٠

تختفى الثمار فى بطون الآكلين حينا ، ثم تعود الى الأرض مرة أخرى لتتحول من جديد الى أغذية كاملة العناصر ، وألوان تزهو تحت الضوء ، وهكذا دواليك ٠

والانسان ـ الذى من أجله هذا الصنيع ـ كيف يحيا ؟

قرأت أنه كل اربع عشرة ساعة ينبض القلب الانسانى نحو ١٠٣٦٨٩ مرة ، ويقطع دمه فى الشرايين ١٦٨ مليون ميل ويتنفس ٢٣٢٢ مرة ويأكل كل يوم نحو ثلاثة أرطال من الطعام تبدأ على مانعرف وتنتهى الى ماندرى ٠

ثم ماذا ؟ ثم يقف هذا الجهاز الانسانى الدوار عندما يشاء الله لتدفن الالوف المؤلفة من تلافيف المخ تحت الثرى ، هى وما كان يخضع لها من غدد وجوارح ومشاعر ٠

وعندما يتم الدفن تكون الأرحام قد دفعت بأطفال جدد ينشئون دورة انسانية أخرى على ظهر الأرض ٠

والمحيى المميت يرقب من عليائه هذا الانسان الذى تبلغ الصفاقة به أحيانا أن يكفر خالقه ·

﴿خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُو خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾
(النحل : ٤)

ان أولى الألباب هم الذين يعرفون الله ، ويسبحون بحمده ، أما الجهال وأنصاف العلماء ومرضى القلوب فهم الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ·

وجاء ذكر « أولى الألباب » للمرة (١٥) فى سورة غافر ، ويبدو من السياق أنه يتناول الاقدمين من بنى اسرائيل ، ولا ريب أن أتباع موسى الأوائل كانوا أولى بالحق والنصرة والتكريم من فرعون وآله وجنده ! ومن هنا اعطاهم الله الكثير ·

قال سبحانه :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ (غافر : ٥٣ ـ ٥٤)

على أن صفة أولى الألباب يمكن أن تنسحب على الاتباع المتأخرين اذا كان رسوخهم فى العلم حاملا لهم على تصديق محمد صلى الله عليه وسلم واتباع رسالته ، وذاك ماقررته آية أخرى :

﴿لٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ﴾
(النساء : ١٦٢)

أما آخر مكان فى المصحف الشريف لأولى الألباب فهو سورة النساء الصغرى قال تعالى للمرة (١٦) :

﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ ٱللَّهُ

إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾
(الطلاق : ١٠ ـ ١١)

وهذه الكلمات تشير الى أن حياة محمد صلى الله عليه وسلم هى تفسير كتابه ، وأن سيرته العملية وسنته القولية بيان تطبيقى للقرآن الكريم ٠٠ والحق أنه لا قرآن بلا سنة ولا سنة بلا قرآن ، وأن فصل أحدهما عن الآخر زيغ ٠

ان ما أثبتناه هنا نموذج واحد من نماذج كثيرة لأسلوب القرآن فى بناء الأمم على الفكر الناضج والعقل السليم ٠٠ ونحن نجزم بأن الأمم المتخلفة عقليا لاتتصل بالاسلام الا دعوى ، وأنها ماتصدق فى هذا الانتماء المزعوم الا يوم تكون من أولى الألباب ٠

دين الفطرة

أكاد أشعر بأن أشواق الفطرة وآثارها أشيع فى ظل الحضارة الحديثة منها فى ظل التدين المختل ٠

ان الانسان بفطرته التى ولد بها يدرك ان العدل حسن والظلم قبيح ، وان العلم مفخرة والجهل معرة ، وأن الطهر سمو والعهر سقوط٠

ومع تجاوب المرء مع فطرته ، ومع تعاونه مع أشباهه يمكن اقامة مجتمع أدنى الى روح الدين ، أو أقرب الى تعاليم الاسلام ٠

وعند الموازنة يكون هذا المجتمع أرجح وأنجح من مجتمعات أخرى صماء عن نداء الفطرة ، ماهرة فى احترام المظاهر ، قد يروج الدين فيها أشكالا من العبادات ، تمارس برتابة بعد تفريغها من محتواها المهم أعنى بعد أن تخلو من الخشوع والفهم ٠

والعبادات تفقد وجهتها السماوية وقيمتها الروحية ونتائجها الاجتماعية عندما تمارس حركات بدنية وحسب ٠

ولنزد هذا الكلام وضوحا ، ان أساس الفطرة عقل سليم وقلب نقيّ.

وسلامة العقل توجب احترام الحقائق ، وادراك الواقع دون نقص أو زيادة ، ورفض الأوهام والخرافات ، والوقوف بالظنون عند حدودها فلا تتحول النظرية الى يقين مثلا ! وضبط الأحجام المادية والأدبية للأشخاص والأشياء فلا يجمح الخيال بها الى فوق أو تحت ٠٠ ذاك بالنسبة الى العقل ٠

أما بالنسبة الى القلب ونقاوته فان الفطرة السليمة تعنى انسانا لايعبد نفسه ، ولا يقدم أثرته ، ولا يتحامل على الآخرين ٠

تعنى انسانا يشعر بأن الحياة حقه وحق غيره على سواء ، فلا معنى للحقد والغش والافتراء وتلمس العيوب للأبرياء ومحاولة الصعود على أنقاض الخصوم ، أو من نرى نحن أنهم خصوم ٠

ذلك كله هو مفهوم الفطرة السليمة ، اذ هو جوهرها الحر ومعدنها الغالى ، وأى امرىء يفقد هذه الفطرة فقد خسر نفسه ولن يعوضه عن هذا الخسار شيء ٠

هناك عباد نحقر صلاتنا الى صلاتهم ، وقراءتنا الى قراءتهم ، ومظاهرنا الى مظاهرهم ، يفلتون من الدين بسرعة البرق لأن روابطهم الفطرية بالدين واهية أو معدومة ، فأى دين لأولئك المزورين ؟ ان فى عقولهم خللا لاتحسن معه وزن قضية ، وفى قلوبهم علل تجرئهم على استباحة غيرهم ، فأى تقوى ترتقب عند من فقد فكره وفؤاده ؟

لقد كان الاسلام مبينا فى اعلائه قدر الفطرة ، وفى جعلها عنوانا للاسلام ، فان الكهانة ، وشارات الاتصال بالله على نحو مبهم ، وطلب الدنيا باسم الدين ، هذه كلها رذائل فضح الاسلام ذويها عندما قال :

﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ ويَصُدُّونَ عَنْ سبِيلِ ٱللهِ﴾ (التوبة : ٣٤)

والمؤسف أنا نجد أقواما تنقصهم الدقة العقلية وسلامة الصدور يزحمون البيئات الدينية ٠

ولا أدرى كيف ينتمى الى دين الفطرة من فقد ركنى الفطرة كليهما نفاذ العقل ، ونقاء الضمير ؟ ٠

فى رفع الانسانية الى مستواها المطلوب يقول الله جل شأنه :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم : ٣٠)

ان الدين القيم هو أساس النبوات التى رحمت القرون الأولى ثم ختمت أخيرا بالنبى العربى « المحمد » الذى نقى الأصول مما عراها ، ونفى عن حقيقة الفطرة كل مايشينها ، ووضع الدين فى صيغته النهائية فلا تحوير بعد ولا تبديل الى آخر الدهر ٠

وللفطرة الصحيحة سماتها البارزة فى العقيدة والشريعة ، والحق بطبيعته لايتعدد ، لأنه خط مستقيم ، وكما قال علماء الهندسة : الخط المستقيم أقصر طريق بين نقطتين ، ومن ثم لايكون الا واحدا ٠٠ أما مع فقدان الاستقامة واختلاف المبدأ والنهاية فان الخطوط المائلة لاتحصر عدا ٠

وسواء كانت عن يمين الخط المستقيم أو يساره فهى طرق معوجة ، والسائرون عليها ضالون ، ولا رشد الا فى التزام الصراط المستقيم ٠٠

ولعل أول معلم فى دين الفطرة هو أن يعرف المرء ربه الواحد معرفة واضحة صادقة ، وأن يؤسس معه علاقة وطيدة وثيقة ٠

ان الولد العاق لأبيه وغد ذميم ! والمرء الجاحد لربه شر وأخبث ·· والناس تشرد بهم عن الله عباداتهم لانفسهم ، أو علاقة سخيفة بحجر ، أو بشيء حيا كان أو ميتا ·

ومع نسيان الله واهمال الصلاة له تنشأ مذاهب شتى وفلسفات كثيرة ، يتعصب لها المتعصبون ، والناس ان لم يجمعهم الحق فرقهم الباطل ، وان لم تقنعهم الاخرة توزعتهم أودية الدنيا ، واستبدت بهم أطماعها ، وتناحروا على سرابها ·

من أجل ذلك قال الله لنبيه ولمن تبعه من المؤمنين الذين آثروا الفطرة :

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم : ٣٢)

وليس معنى الفطرة أن الناس يولدون بعقائدها وفضائلها ، فلو كان الأمر كذلك ماكان هنالك تكليف ، وأنما المعنى أن الناس يولدون مستعدين لها مؤثرين لمنهجها ، يتدافعون فى مجراها تدافع الماء الى منحدره ، وأن عوائق مصطنعة هى التى تقطع طريقهم وتردهم عن وجهتهم · ترى ما هذه العوائق ؟ ان الحديث الشريف أشار الى أخطار البيئات المنحرفة ، فهى التى تلوى زمام الفطرة عن التوحيد الى التثليث أو التجسيد · وهذا صحيح مشاهد ·

ان ذلك يطرد حتى فى عالم النبات ، ففى بعض الحقول تستطيع أن ترى الأزهار زاهية والجنى وارفا والثمار مفرحة ·· وفى بعض آخر تغير أسراب من الجراثيم ، وتظهر الأمراض الفاتكة بالمحاصيل فاذا الفواكه معطوبة ، والحبوب مشوهة وناقصة ·

ماكانت هذه فطرتها ، ولكنه عمل العلل الوافدة ·

وفساد الناس قد يصل الى الأجنة قبل أن تولد ! فالمفروض أن تبرز الأجنة الى الوجود كاملة الحواس سوية المشاعر ! بيد أن الزناة الفسقة قد يصابون بمرض الزهرى ، فتعدو جرثومته على عينى الطفل فتودى بهما ويولد أكمه ! لقد برز على غير الفطرة البدنية الكاملة ، والسبب هو فساد البيئة ٠

ولما كانت نواقض الفطرة كثيرة فان النبى صلى الله عليه وسلم نبه اليها وحذر منها ٠

وبين يدى الآن حديث طويل للامام مسلم (١) بعضه قدسى وبعضه نبوى يشرح عللا ومسالك تؤذى الفطرة ، وتبطل عملها ، وسأشرح هذا الحديث خلال سرده موجزا لتفسير ما أمكن ٠

عن عياض المجاشعى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ذات يوم فى خطبة له : « الا ان ربى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى يومى هذا ٠٠ » « كل مال نحلته عبدا حلال » ما معنى هذه الجملة ؟ هذه الجملة تؤكد المعنى فى قوله تعالى :

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة : ٢٩)

قال تعالى :

﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّباً﴾

(البقرة : ١٦٨)

ان التدين الفاسد مولع بالتحريم ، راغب فى تضييق دائرة المباحات ، وهذا ظاهر فى الاديان الباطلة والمنحرفة ٠

وقد يظهر على السنة بعض المسلمين الجهلة ، فهم يشددون على الناس ، ويقاومون منهج الفطرة ٠

والحديث القدسى هنا يرفض ذلك الجهل ثم يستأنف توجيهه السديد فيقول : « وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ١٩٧ ط المطبعة المصرية ومكتبتها (كتاب الجنة ٠٠ باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار)

بى مالم أنزل به سلطانا ٠٠ وان الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب » ٠

فى هذا الكلام اشارة الى الضلال الذى أطبق على الأرض قبل البعثة الشريفة فلم ينج منه الا الأقلون ٠

لقد طمست الفطـرة واختفى وهجهـا تحت ركـام من الكهـانات والخرافات التى نشرتها الجاهليات السائدة فى العالم ٠

وعودة بالناس الى دين الفطرة يقول الله تعالى لنبيه فى هذا الحديث القدسى : « وقال انما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك ! وأنزلت عليك كتابا لايغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان » ٠

فى هذه العبارة اشارة الى خلود القرآن الكـريم واستعصائه على عوامل المحو ، لقد ضاعت كتب سابقة وتطـرق اليها الغـش ! أمـا هذا القرآن فقد تم حفظه شكلا وموضوعا ، معانى وحروفا ، ان الصـدور استوعبته فهو يقرأ فى كل زمان ومكان ، لايمحوه من القلوب شىء ٠

وهنا معنى آخر ، يقول العلماء : ان العصمة لاتمنع المحنـة أى أن النبى المعصوم مبتلى بأعباء الرسالة ، يشق عليه أداؤها ولكنـه يتحمل بجلد هذه المشقة ٠

ماتقول فى أناس يشمئزون من عقيدة التوحيد ؟ ويكادون يوقعون صاحبها على الأرض حين يحدثهم عنها ؟ :

﴿وَإِنْ يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَـرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم : ٥١)

ويريدون السطو عليه والبطش به وهو يقـرأ كتـابه ! ومع هذه المقاومة فقد أمر بالبلاغ ، واسماع القـوم ما يلـذع جلودهم ، ويهيج ثائرتهم ٠

ولنسمع الى هذا الحوار الجليل فى الحديث الذى نرويه « وان الله أمرنى أن أحرق قريشا ــ باسماعهم مايكرهون ــ فقلت : رب اذن يثلغوا

رأسى ـ يكسروه ـ فيدعوه خبزة ـ كالرغيف المهشوم ـ قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك ـ أى نُعِنْك عليهم ـ وأنفق فسننفق عليك ، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ·· وقاتل بمن أطاعك من عصاك » ·

وظاهر من الحديث الشريف أنه قيل بعد الهجرة وبعدما تصدرت قريش مواكب المعاندين ، وأرصدت كل ماتملك لمحو الاسلام ، فكلف صاحب الرسالة الخاتمة أن يجند نفسه ومن معه لضرب الضلال حتى يستكين ·

ومضى الحديث بعدئذ يصف ذوى الفطر السليمة ، وأخلاقهم فى مواقعهم الاجتماعية المختلفة فقال : « ··· وأهل الجنة ثلاثة · ذو سلطان مقسط متصدق موفق ! ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » ·

قال : « وأهل النار خمسة الضعيف الذى لاعقل له ـ يعنى السفهاء الرعاع ـ » الذين هم فيكم تبعا لايبتغون أهلا ولا مالا ـ يعنى أصحاب الفراغ اليدوى والنفسى الذين استهلكت البطالة أوقاتهم فلا يسعون لدنيا أو دين ·

« والخائن الذى لايخفى له طمع وان دق الاخانه » هذه صفة النوع الثانى من أهل النار ، ناس لاتشغلهم أمانة ، ولا تقفهم حدود ، ولا ترهبهم مسئولية ، فهم يلتهمون مايصل الى أيديهم من حقوق الآخرين ·

وقريب من ذلك النوع الثالث الذى يصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ورجل لايصبح ولا يمسى الا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » ··

أما الصنف الرابع فقد تردد الراوى فيه بين البخلاء والكذبة ، وكلاهما شر من صاحبه ·

والخامس الفحاش ، يعنى المشتط فى سوء قوله وعمله ·

وعندما ننظر الى أصحاب النار فى هذا الحديث نجد أقواما غلبت عليهم الافات النفسية ، وتركتهم دون خلق شريف أو مسلك قويم ·

ونستطيع ونحن ندرس الاسلام الحنيف أن نرى سنن الفطرة وآدابها وتعاليمها الكثيرة ، لكن شيئا من ذلك ـ على مكانته ـ لايغنى عن ركنى الفطرة الأصيلين ، وهما الفكر الحصيف ، والقلب السليم ·

ذلك أنه عن حصافة الفكر ونضج العقل ينشأ الادراك الفقهى الواسع وكما جاء فى الأثر : فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد فكم من عابدين أساءوا الى الاسلام وجروا عليه المتاعب بقصور فقههم وان كانوا له مخلصين ·

وقد يكون الرجل حسن المعرفة ذكى الفهم ، ولكن رغبته فى فرض ذاته ، واظهار مكانته ، تستبد به فيقتحم الصعب والذلول ، وينفق الغالى والرخيص ليكون الأمر له على حساب الدين ومصلحة الأمة ومستقبلها ·

انه لابد من وضاءة الضمير والتفكير معا لتتم مقومات الفطرة السليمة ·

ان الفقه كشاف جيد للنية الصالحة ، وللسريرة المعافاة من العلل ·

ويؤسفنى القول بأن المجامع الدينية تحتفى بالمظاهر المزوقة أكثر مما تحتفى بسلامة الفطرة ، ولذلك فهى تتحرك فى مكانها ، وربما تراجعت الى الوراء ·

جِدَال .. مِن ورائه أمُور ذات بال

هذا حديث لم أختر موضوعه وانما دفعنى الى الخوض فيه رجل يكره محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويخفى كرهه وراء ستار من اعتناق مبدأ الانسانية المطلقة ، وعدم التقيد بدين ما ·

قلت له : ما أراك تكره الرسل كلهم بمثل هذا النفور الذى تكنه لمحمد صلى الله عليه وسلم ! فلم هذه العاطفة الخاصة ؟ ·

فأراد الالتواء فى الاجابة وقال : بل الأديان عندى كلها سواء ، وقد يكون ما أعرفه عن محمد سببا فى ضيق خاص به ٠

قلت : وما تعرفه عن المرسلين الآخرين سبب كاف عندك للرضا عنهم والاعجاب بهم ؟ ٠

فتضايق صاحبى من هذا الحوار ، وأراد أن يتخذ خطة الهجوم فقال فى حدة يحاول اخفاءها : وما الذى يجعلك أنت تتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وتحبه ؟ ٠

قلت ــ وأنا الآخر أخفى حدتى ــ اننى أعرف بدقة ما دعا اليه ، وأعرف كذلك خط حياته بدءا وانتهاء فلا أرى الا مايشد ضميرى وتفكيرى اليه ٠

ولأكن صريحا معك ، انك قرأت العهدين القديم والجديد وتأثرت بهما فى صدر حياتك ، ثم رأيت أن تتجه مع التيارات الانسانية التى تهب من هنا ومن هناك ٠

ولك ذلك كله ، ما أستغربه منك ، ولكن بقية من المواريث الآسنة بقيت فى نفسك تجعلك تكره الاسلام ونبيه ، والمسلمين وحقوقهم الطبيعية ٠

وهذا ما نأباه على انسان يصطنع الحياد الفكرى والنفسى بين الأديان ٠

قال : قد أكون كذلك أو لا أكون ، انى لا أدرى لماذا تتبع محمدا ، وتغالى بشخصه ؟ حدثنى ٠

قلت : سأحدثك بانيا على معتقداتك أنت وان كنت أنا غير مؤمن بها ٠

قل لى : لماذا يكون نوح أولى بالرسالة من محمد ــ فى عقلك الحر ــ مع أن نوحا كما قرأت أنت سكر وتعرى حتى جاء من غطى سوأته بعد ما فضحتها الخمر ؟ ٠

ان محمدا لم يذق قطرة من خمر فى عمره كله ، ولم تفقده النشوة وعيه لا فى شباب ولا فى شيخوخة ، فلم ترجح عليه رجلا ينتشى حتى يفقد وعيه ؟ .

وأى الرجلين أحق باصطفاء السماء لتلقى الوحى ؟ اننى استرسل معك فقط ، لأبنى على رأيك والا فان لى رأيا آخر فى قصة نوح كلها .

انكم تستبيحون محمدا الصاحى الراشد ،وتستكثرون عليه النبوة.

ولا تستكثرون النبوة على رجل زنى بابنتيه كما تزعمون !

انكم تعاملون محمدا بِغِلٍّ أعمى وهو الانسان المبرأ الطهور ، فهل هذا هو الحياد العقلى كما تصف نفسك ؟ .

قال الرجل وقد بدا عليه الحرج : ان حب محمد للنساء ينزله عن مكانة الرجل الربانى والمصلح الاجتماعى ودعنا من الخمر ومجالسها ونداماها .

قلت : سأتنزل معك أيضا ، وأبنى على ماتعرف أنت وأنكر أنا ! انكم ترون محمدا صلى الله عليه وسلم عارم الشهوة ، فماذا فعل ليشبع هواه ؟ .

هل جمع سبعمائة امرأة فى قصره يخدمهن الانس والجن كما فعل سليمان الحكيم .

هل خطف ثم غصب امرأة قائده وهو غائب فى الجبهة ، ولما عاد الزوج المظلوم أعيد الى الميدان ليقتل وينفرد الغاصب الزانى بعشيقته؟ كما تذكرون ذلك عن النبى داود ؟ .

هل محمد ليس أهلا للنبوة لأنه تزوج بضع نسوة فى السنوات العشر الأخيرة من حياته لظروف انسانية واضحة ؟ والذى يستحق النبوة هو خاطف النساء للعهر ، وجامع المئات منهن للمتعة ؟ .

ياصاحبى ما أظلمكم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، حين تحكمون عليه بأنه امرؤ مادى غير جدير بالنبوة بينما ترون النبوة حقا للزناة والقتلة ــ كما تتخيلون ــ

قال : ان داود وسليمان ملوك وليسوا أنبياء !

قلت : بل هم عندكم حملة وحى ، ومبلغو هداية ولهم فى الكتاب المقدس عشرات الصفحات ابتداء من المزامير الى نشيد الانشاد الذى لسليمان ٠

اننا نرى الرجلين أكبر مما تقولون فيهما وأشرف مما تتقولون عليهما ٠

ولكنى كما ذكرت أبنى على ماتعتقدون أنتم ٠

وأدهش للمفارقة الواسعة وأنتم تضنون بالنبوة على محمد ، ولا تضنون بها على انسان مال قلبه الى الوثنية ارضاء لنسائه عابدات الأصنام ، وهن كثرة يبلغن عدة مئات ٠

ان محمدا صلى الله عليه وسلم ــ فى السنوات الأخيرة من عمره ــ تزوج عدة نساء كسيرات القلوب لظروف ألمت بهن ، وعشن معه طالبات آخرة لا ترف ولا سرف ، بل على المستوى الأدنى من الضرورات الماسة ٠

وربما أرسل الى الحبشة يتزوج من لم يرها ، لأنها وهى من أسرة رياسة وملك فقدت رجلها فأسرع الى مواساتها كما فعل ذلك مع بنت قائد المشركين وزعيم مكه أبى سفيان بن حرب ، فأين مكان الشهوة هنا أو هنا؟

يا عجبا تمرون بمقتل القائد «أوريا» والسطو على زوجته الجميلة فلا ترون الزنا والقتل مانعين من النبوة ، وترون فى عقود الزواج المعلنة على رءوس الأشهاد بنساء فاضلات شريفات مايخدش الايمان ويمنع من منصب النبوة ؟ ٠

انكم ياصاحبى تعاملون محمدا بمنطق لا انصاف فيه ولا اتزان ٠٠

قال وقد احتدت نبرته وازداد حرجه : لك أن تتبع محمدا ماشئت ، وأما الأنبياء الذين ذكرت فهم غير معصومين من الخطايا ٠٠ فأسرعت أقول : ان الله لايختار المبلغين عنه والمتحدثين باسمه من الزناة والسكارى الواقع أن تاريخ أولئك الأنبياء مزور ٠

والآن لندخل فى صميم القضية ، ولنتجاوز هامشها لنرى جدارة محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ٠

قال : أما كنت تتحدث في الموضوع آنفا ؟ قلت : كان الحديث في نامشه ، أما الآن فله سياق آخر ، انني رجل احترم الانسانية المجردة ، ومن طريقها عرفت محمدا صلى الله عليه وسلم ، ولست مشلك أدعى الانسانية ، وأتعصب للأرهام وأتلمس للأبرياء العيوب ٠

أسأل : ما الانسانية التي تعشقها ، ويستحب الانتماء اليها ألوف المثقفين الآن ؟ انها الارتفاع بقيمة الانسان ، وتنمية خصائصه الراقية في انشاء حضارة ذكية نافعة ، وتمكينه من ارتفاق الكون كله وتسخيره لخدمته ٠٠ ثم تجاوز الفروق بين الأجناس والأديان وجعل الحياة تعاونا على المصالح العامة لاتعاركا على المآرب الخاصة ٠

هذا تقريبا كل مايقال في تعريف هذه الانسانية المنشودة ، أو بتعبير صريح الانسانية التي تحل محل الدين على ظهر الأرض ٠

ان عنوان الانسانية أبرزته فلسفات كثيرة ومذاهب اجتماعية متناقضة أو متناسقة وقد ظهر بعد التطبيق العملي لهذا المبدأ ، سواء في المحافل الدولية أو السلطات المحلية ، أنه غطاء لقضايا أخرى خبيثة ، أو أنه شعار لجأ اليه الفاسقون بوجود الله٠ أو المترفون بوجود ألوهيات مفتعلة ، كي ينشروا ما لديهم وهم آمنون ٠

وقد شعرنا نحن المسلمين أن الانسانية تتجزأ عندما يكون النزاع بين اليهود والعرب ، وأنها تتأخر عندما يكون الخصام بين البيض والسود وأن صوتها يعلو بل يهدر بالفسوح عند جيشان الغرائز الجنسية ، والنزعات العرقية ، وأن هذا الصوت يحتبس ويتلاشى عند ذكر الآخرة وما وراءها ٠

ان موقف الانسانية المعاصرة من الله الواحد ومن حقوقه على خلقه غريب ٠

انه لا بأس عندها من التبشير بإله مزدوج أو مثلث أو مربع (!) أما الدعوة الى إله واحد فشيء منكر ٠

بل قد يكون التعطيل المحض أفضل عند سدنة هذه الانسانية من التوحيد النقى الذى شرحه محمد صلى الله عليه وسلم ، أية انسانية هذه ؟ ٠

ان مخلب الوحش لن يتحول الى يد رقيقة آسية لأنه وضع فى قفاز من الحرير ٠

قاطعنى محدثى وقد ضاق بما سمع وقال : ماهى معالم الانسانية التى تتخيلها ، والتى قلت ان محمدا صلى الله عليه وسلم عرفك بها ٠٠ ودعنى من هجائك للمدنية المعاصرة ؟ ٠

أجبت غير ضائق : اسمع ! ، ان أشرف مافى الانسان عقله وقلبه ونحن عندما نتبع محمدا عليه الصلاة والسلام نصطلح مع انسانية لاتضع على العقل قيدا ، ولا تدع فى القلب عوجا ، ذاك كلام مجمل يحتاج الى تفصيل ٠

ان الانسانية الصحيحة ترفض جمود الفكر ، وانسداد الآفاق امامه وترفض عجز الحواس البشرية عن أن تكون أدوات لاستبانة الحقائق واصدار الأحكام الصحيحة ٠

والاسلام يرى هذا القصور ذنبا جديرا بالعقاب :

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ (الملك : ١٠ ـ ١١)

وفى وصف أصحاب النار يقول الله تعالى عن سبب تعذيبهم :

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (هود : ٢٠)

فهؤلاء لهم حواس ، ولكنهم عطلوها ، ولهم عقل ولكنهم أماتوه ٠

والدين الحق تشغيل لمواهب الانسان الرفيعة بحيث ينتفى من حياته الظن والتوهم ، ويبقى اليقين وحده ٠

الكفر ليس الا لونا من الحيوانيـة الهابطـة تقـدر على التقليـد والتبعية فقط ، أما الايمان فمعناه دوران الأجهزة الفطرية فى الكيـان الانسانى على نحو صحيح ٠

وعندما ينضج العقل ويرزق الذكاء الحاد، فانه يتحول وسيلة جيدة لخدمة مايريد من الأغراض ؟ ٠

هناك أذكياء أشرار ، هناك من يسخر علمـه الواسـع لبلوغ أردأ الغايات ، وهنا يجىء دور القلب ٠

ان القلب السليم أساس التدين المقبول ولباب التقوى ٠

والانسانية تبرز فى أرقى صورها وأزكاها مع نبل القصد وحسن النيـة ٠

والقلب المشرق يشق طريقه وسط الظلمـات والأشـواك وقلمـا يخطىء هدفه٠ وقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله : أخبرنى مايحل لى وما يحرم على ؟ فقال له : البر ماسكنت اليه النفـس واطمأن اليه القلب والاثم مالم تسـكن اليه النفـس ، ولم يطمئن اليه القلب وان أفتاك المفتون (١)

ان هذا التوجيه النبوى يخلق الانسانية الرفيعة خلقا ، ويجعل المرء يضاء من الداخل قبل كل شىء ، دون انتظار للتعلات والمعـاذير ، ودون رهبة من القوانين والأقاويل ٠

قال محدثى : موعظة حسـنة لا بـأس من قبـولها ! ولكن ما صـلة الانسانية بصور العبادات التى يجىء بهـا الـدين ، أو بتعبير أصرح : ما صلة العقل بهذه المراسم ؟ وأنت تشيد به ، قلت له : اننا نكتب لغتنا العربية من اليمين الى اليسار ، والأوربيون يكتبون لغاتهم من اليسـار الى اليمين فما صلة العقل بذلك ؟ ٠

قال : هذه أشياء تواضع الناس عليها ولا صلة للعقل بها ٠

قلت : يكفينى ذلك فى اجابتك ٠

---

(١) الحديث رواه الامـام أحمد عن أبى ثعلبـة الخشنى قـال : قلت : يارسـول اللـه أخبرنى بما يحل وبما يحرم فصعد النبى صلى الله عليه وسلم وصـوب فى النظـر ثم ذكره ، قال الهيثمى : رجاله ثقات ٠

هناك أشياء يرفضها العقل حتما ، وهذه يستحيل أن تكون دينا ، لا حقائق ولا مراسم ٠

وهناك أشياء لا دخل للعقل فيها لا سلبا ولا ايجابا ٠

ان الانجليز يلتزمون السير شمالا وغيرهم يلتزم السير يمينا وهؤلاء وأولئك لا يوصفون بحمق ولا ذكاء ٠

فاذا وضع الدين صور العبادة ركوعا وسجودا فى الصلاة ، وطوافا بالبيت العتيق فى الحج ، وامتناعا عن الشهوات من الفجر الى الغروب فى الصوم ، فلا توصف هذه العبادات بأنها مخالفة للعقل ٠

وقد وضع الدين ضوابط كثيرة لشرائعه ولم يترك هذه الأوضاع لكل ذوق حتى لاتشيع الفوضى ٠

وقريب من ذلك موقف الدين من الغرائز الانسانية ، فان قيام الحياة يعتمد على نشاط هذه الغرائز ، ان قتلها خطأ ، وتركها حبلها على غاربها خطأ ٠

والمرء يحتاج الى الضرورات التى تصونه والمرفهات التى تنعمه ، والاسلام يضمن ذلك كله له ٠

فاذا جارت هذه الغرائز أو طغت كسر الدين حدتها وقمع طغواها ، وذاك سر التذكير الطويل بالله ولقائه الحتم ٠

قال لى محدثى : فيما تقول أشياء موضع تسليم ، فهل ذاك سر حبك لمحمد صلى الله عليه وسلم واتباعك له ؟ قلت : ذاك جزء من أسباب تشبثى برسالته وتعلقى بشخصه ٠

أما الجزء الأكبر فيعود الى أسباب أخرى ! ان القرآن الكريم هو الكتاب الذى نزل على قلبه ، وشرح دعوته وأيد نبوته ٠

ترى لو وجدت هذا القرآن كله فى فلاة من الأرض ، أكنت أستطيع الانتفاع به دون أن أجلس بين يدى محمد عليه الصلاة والسلام ، وأستمع الى شرحه له ، وأتابع تأثره به ؟ ما أظن ! سيعطينى القرآن

جملة الحقائق العلمية والنفسية للرسالة الخاتمة ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم سيعطينى المنهج العملى ، والأسوة الحية والتطبيق الحاسم ، والتفسير الذى يضع النقط على الحروف كما يقولون ٠

ومن ثم فانك لن تعرف الاسلام معرفة صحيحة واضحة ٠ اذا جهلت سيرة محمد عليه الصلاة والسلام ، ورفضت سنته التى نفذ بها توجيهات القرآن القريبة والبعيدة ٠

ثم أى عظيم فى الأولين والآخرين قرر الناس تجاهل حياته واطراح كلماته ؟ ٠

واذا كان نفر من الناس يحيا على غير مايدعو ، فان حياة محمد صلى الله عليه وسلم كانت قرآنا متحركا على دروب الأرض كلها ٠

كان خلقه القرآن ، والخلق ـ كما عرف العلماء ـ هو الملكة النفسية والعادات المطردة الثابتة ٠

ان سنته هى أعماله وأقواله ، هى ترجمة القرآن من المعنى الى الواقع ، فكيف يجازف بعض الحمقى فينكر السنة لأن حديثا دس عليها أو لأن حديثا لم يعجبه ؟ وراء الخطوات المحسوبة بدقة ، والكلمات المرسلة بحكمة كان محمد صلى الله عليه وسلم يتحرك ويتكلم وأشعة القرآن تعمر قلبه ولبه ٠

قد يرى عظمة القدرة العليا أمامه فى الصحراء المبسوطه والآكام الشامخة ، ولكنه عن طريق القرآن وعلومه كان يرى هذه العظمة فى السحب المركومة فوق المحيطات والكواكب المتهادية فى آفاق السموات ٠

قد يعيش مع الناس فى مجالسهم ويستمع الى سمرهم وشغلهم ، ولكنه ببصيرته النافذة يعيش فى جو آخر يرى فيه الجنة ونعيمها حتى ليكاد يقطف من ثمارها وكرومها ، ويرى فيه النار وأهوالها حتى ليكاد يتقهقر أمام شعوره بويلاتها ٠

ما أكثر حديث القرآن عن مشاهد البعث والجزاء ·

مع التخلق بالقرآن كان الحس بتاريخ الماضين يغالبه ، فقد رأى في قصص القرآن أن مجتمعا فاسدا أودت به الريح العاصفة ، فهو يحس بشيء من القلق عندما تهب الريح على نحو ما ·

من تخطيط القرآن الكريم لكل شيء في الحياة ومن بيانه المضيء في كل قضية تفرعت السنة تفرع الانهار من منبعها الفوار ، وما يعرف ذلك الا العلماء الراسخون لا السطحيون المتفيهقون ·

قال محدثي : انكم معشر المسلمين تحبون محمدا حبا جارفا ، وقد استمعت أخيرا الى أناس ينكرون السنة النبوية ، وقد أومأت آنت على عجل الى ارتباط السنة بالقرآن نفسه في نبوة محمد ·

وأياما كان الأمر فلا ريب أن محمدا انسان عظيم ، وليس كغيره من الناس ·

قلت : ماتعجبني هذه اللهجة ! والقول بأن محمدا صلى الله عليه وسلم انسان عظيم لايزيده ولا ينقصه ·

الأمر عندنا أكبر من ذلك ! في علوم الدين يقولون : ان النبوة هبة لا كسب ، يعنون أن النبوة ليست اجازة علمية أو تربوية يحصل عليها بعض الدارسين بعد ليال ساهرة في البحث والتمحيص ·

انها فضل أعلى ، يخلق الله له أناسا من معدن خاص ، يكونون بنقاوتهم الفطرية أهلا لتلقي الوحي ، والوصول الى درجة من المعرفة دونها جمهرة الفلاسفة والمفكرين ·

ونحن نقول : لو كانت النبوة كسبا شخصيا ـ وهذا فرض فحسب ـ لكان الانسان الذي يتناولها ولو كانت في الثريا هو محمد بن عبد الله · صلى الله عليه وسلم ·

ولكان استحقاقه لها بتفوق ساحق يجعل مكانة الذين يجيئون بعده في مؤخرة الصف ·

انه الوحيد الذى غير الدنيا وأجتاح ظلماتها ومظالمها ·

والوحيد الذى ترك تراثا قديرا على هذا التغيير المطرد كلما تفسخت الحضارات ، واعوجت الخطوات ·

اننا نحب محمدا صلى الله عليه وسلم بعقولنا قبل أن نحبه بأفئدتنا ، ونعرف مكانته بالدراسة المتعمقة لا بالتقليد المتوارث ·

وأنا شخصيا لا أخاف على رسالته ضغائن الخصوم وانما أخشى عليها الأصدقاء الجهال ·

من نفحات اليقين

الانسان عادة محاصر بمطالبه القريبة والبعيدة يفكر فيها ويكترث بها ·

وكلما اشتدت وطأتها زاد همه وربا نشاطه ! فما يكاد يستيقظ مع الصباح حتى يبدأ تلبية هذه المطالب ، مواصلا السعى مرحلة بعد أخرى فاما بلغ غايته فرضى ، أو عجز فسخط ، وهكذا طول عمره ·

ترى ماهذه المطالب المسيطرة ؟ ·

البعض يدور حول نفسه فما يدرى غيرها ··

وهناك من يفكر فى « الرب » الذى خلقه فسواه ، وفى الحقوق المفروضة له فهو يجعل لله وفرائضه نصيبا من حياته يقل أو يكثر ·

لكن لماذا تكون القسمة كذلك ؟ امرؤ يكدح لنفسه ، وآخر يتجه بين الحين والحين الى ربه ؟ ·

اننا نحب أنفسنا يقينا ، والعاقل حين يكدح لربه يرقب منه أن يصون يومه وغده ويحفظ عليه معاشه ومعاده ، نعم ، انه يزرع لنفسه وأهله ولكنه يقرن الحصاد المنشود ببركة الله الواهب المحمود ·

فهو في طيات عبادته لربه يحيي مجده وينتظر رفده على سواء .

الايمان الحق أن يكون الله في قلبك وأنت تقطع الليل والنهار على ظهر الأرض .

يقول علماء المادة : ان الطبيعة لاتعرف الفراغ . وهذا صحيح . فالاناء الخالي من الماء مملوء بالهواء ، ترى هل الفؤاد الخالي من الله فارغ من كل شيء ؟ كلا ، انه مملوء بشيء آخر حتما مملوء بالأثرة أو الحقد ، أو عاكف على عبادة صنم حديث .

والأصنام الحديثة في عصرنا كثيرة ، من بينها الثراء والجاه والشهرة ، وسائر الشهوات العاصفة .

ولذلك جاءت الآية الكريمة تقول :

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف : ٢٨)

ان الغفلة عن الله تبعها دعى للشهوات ويقظة لشتى المآرب الهابطة .

ومن هنا انفرط العقد النفسي ، ونشأ التسيب الاجتماعي ، ونشأت مع التقدم العلمي أهواء جامحة تتسم بالضلالة والميوع غزت الروح والجسد جميعا .

وفي القرآن الكريم أمر باكثار ذكر الله ، واستدامة هذا الذكر مع تجدد الزمان .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الاحزاب : ٤١ ـ ٤٢)

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الروم : ١٧ ـ ١٨)

وقد تأملت في هذه الأوامر ، وعرفت حكمتها ! ان الفرقة التي ينقطع منها « تكييف » النهار سرعان ما يغلبها الجو العام ٠

والقلب الذي ينقطع عنه تيار الذكر سرعان ما تتسلل اليه الأحاسيس الرخيصة ، ومادام لايشتغل بالخير فستقتحمه الشرور ٠

ومن هنا جاءت الوصية بالتذكر المستمر ، التذكر الذي يشعر المرء فيه بالحاجة الى الله والافتقار الى ارشاده وتسديد خطاه ، والخوف من أن يتركه الله وحده في هذه الحياة ٠

والويل لمن حرم العناية العليا ! انه يركض في الدنيا ركض الوحش ثم يعود آخر الشوط صفر اليد ، بل قد يعود مثخنا بالجراح مثقلا بالهزيمة ٠

ان استكانة المرء الى ربه ضمان نجاحه ونجاته ، وذلك معنى قوله تبارك اسمه :

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾

(الأعراف : ٢٠٥)

لكن ما معنى هذا الذكر ؟ هل هو استغراق عقلي ؟ أو سياحة نظرية ؟ أو خلوة نفسية بعزلة عن الناس ؟ أو مراحل من التأمل الذاتي المطلق ؟ ٠

ان الاجابة على هذا السؤال لانجيء بها من عند أنفسنا ، وانما نجيء بها من القرآن الكريم وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة ٠

وسنرى أن الذكر المقصود سلوك ظاهر ، وعمل بارز ، ووجهة في الحياة تصبغ كل شيء بالربانية وتسوق الأحياء الى ربهم سوقا رفيقا ساميا يرفض الدنايا ويؤثر الآخرة ٠

لأن عبادة الحياة ليست شيمة المؤمنين :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَـاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود : ١٥ ـ ١٦)

لعل أول آثار الذكر الصحيح الارتقاء بالضمير حتى لايسف الى رذيلة ، أو يلم بما يغضب الله ٠

وقد جاء فى الحديث عن السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله :

« **ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : انى أخاف الله** » ٠٠
(البخارى)

وكره المعصية مع امكانات فعلها نقاء خلقى رائع ، وفى سيرة يوسف الصديق مايستدعى الاعجاب والاسوة وهو يقول لمن طلبن منه السقوط :

﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾
(يوسف : ٣٣)

وانه لشىء رفيع حقا أن يؤثر الانسان السجن على الفاحشة ٠

ومن الناس من يحسب الاستحواذ على ملكة أغرمت به شيئا مشرفا ! ان الحيوانية فى هذا العصر لها منطق وضيع بالغ الوضاعة قد يغريها بالدنايا ثم يدفعها الى الفخر بها ٠

والقلب الكبير يستمد عظمته من رقابته لله والتزامه لوصاياه ٠

وربما وضع بعضهم فاصلا بين الحياة الخاصة والحياة العامة ، فالتزم مثلا أن يخدم وطنه بأمانة ، وأن يدافع عن قضاياه بقوة ، ثم

ينثنى الى حياته الخاصة فلا يحترم قيدا ولا يضع حـدا ، ويتصرف فى الظلام كيف يشاء ٠

والاسـلام برىء من هذا الازدواج ، انه نقـاء فى السر والعلن ، وصفحة واحدة يستوى فى نصاعتها ما لله وما للناس ٠

عن ثوبان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لأعلمن أقواما من أمتى يأتون يوم القيـامة بحسـنات أمثـال جبـال تهامة فيجعلها الله هباء منثورا ! ٠**

قال ثوبان : يارسول الله صفهم لنـا جلهـم ٠٠ أن لانكـون منهم ونحن لانعـلم ! ٠

قال : أما انهم اخوانكم ، ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليـل كما تأخذون ، ولكنهم أقوام اذا خلوا بمحارم الله انتهكوها »(١) ٠

ليس الذكر المطلوب أن تنشق الحناجـر بالهتـاف لله ، أو يطـول الاحصاء فى ترداد الأسماء الحسنى ، فاذا انكشف النقـاب عن المخبـوء وجدت الوحشة والعجز ٠

الذكر المطلوب عمل ايجابى يغلب أعتى الغـرائز ويسـيرها وفق مراد الله طوعا أو كرها ٠

فالمال مثلا محبوب للانسان ، ربما غلب حبه فكسبه صاحبه من أى وجه ، وربما غلب كنزه فشح به صاحبه فى مواطن النفقة ٠

هنا يبرز عمل الذكر الصحيح عفة فى الكسب وعطاء عند الحاجة٠

وهذا هو معنى قوله جل وعز :

﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِـي أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ

(١) ابن ماجه ج ٢ ص ١٤١٨ رقم ٤٢٤٥ كتاب الزهد باب ذكر الذنوب ٠

رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون : ٩ ـ ١١)

وجاء عن جابر بن عبد الله فى خطبة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« **بادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا** » • (ابن ماجه)

والذكر الذى يقتل داء البخل معناه الثقة فيما بيد الله ، وأنه مخلف كل ذاهب ومنجز كل موعود ، وأن المال فى الحقيقة لمالكه الأعلى ، وأنه موضوع تحت يدنا امتحانا ليظهر : أنتشبث به أم نطيع واهبه ؟ •

وقد يخبث صاحب المال ، ويحاول امساكه ، والظهور بطاعة الله فى عبادات أخرى وهيهات •• فان الغنى اذا شح بماله لم ينفعه عند الله أن يطول صيامه أو تطول تلاوته ، أو تطول قراءته للاوراد فى الصباح والمساء •

نوع واحد من الذكر هو الذى يجديه ، الذكر الذى يحمله على البذل فى هذه الدار ، ابتغاء ماعند الله فى الدار الأخرى •

النجاة فى هذا الذكر وحده •

ويتدخل ذكر الله تدخلا عميقا فى أشد الساعات رهبة فى حياة الانسان ، ساعة مواجهة الموت ، ان النفس البشرية ليست آلة طيعة فى يد الانسان يأمرها فتطيع ، كما يضغط كاتب الآلة أزرار آلته فاذا هى تطبع الحروف المطلوبة •• كلا ••

ان حب الحياة ناشب بكل عضو من أعضاء البدن ، وكل خطرة من خطرات الحس ، وستحاول النفس البقاء ما استطاعت الى ذلك سبيلا !

وقد تتبعت مشاعر عدد من فرسان العرب المعدودين ، وهم يواجهون

الحتوف ، فرأيتهم يصفون بصدق حركات نفوسهم وكيف قاوموها ، تدبر قول عمرو بن معدى كرب :

فجاشت الى النفس أول مرة فرده على مكروهها فاستقرت !

وقول قطرى بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال : ويحك لن تراعى !
فانك لو طلبت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى !

وقول عبد الله بن رواحة :

أقسمت يانفس لتنزلنه لتنزلنه ، أو لتكرهنه

والقرآن الكريم يكلف المؤمنين عند ملاقاة الموت أن يكثروا من ذكر الله ، فان ذلك أعون لهم على الثبات ، فاما النصر واما الشهادة .

ايا كانت النتيجة فهى احدى الحسنيين ، قال تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال : ٤٥)

واعمال الروية مع مراقبة الله وتدبر العاقبة أدل على الرشد وذاك معنى قول الأحنف بن قيس : أسرع الناس الى الفتنة أقلهم حياء من الفرار .

وفى الحديث عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو ، حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال :

« يا أيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو ، وأسألوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »

(البخارى ومسلم)

قال ابن كثير رحمه الله وفى الحديث المرفوع يقول الله تعالى :

« ان عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه .. »

(حديث قدسى)

وكان العرب يفخرون بذكر أحبتهم فى هذه اللحظات على نحو ماقال عنتـــرة ٠

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى ٠ وبيض الهند تقطر من دمى !

وذكر الله أزكى وأشرف ٠٠

وفى الحروب الباردة ــ بتعبير أهل العصر ــ يحتاج المجاهدون الى ذكر الله كما يحتاج المقاتلون سواء بسواء ، فان حماة العقائد المضطهدة والمبادىء المستضعفة تمر بهم أوقات مزعجة وأزمات شداد لايحميهم فيها الا ذكر الله والاعتماد عليه ٠

وفى الأيام الأولى من جهاد الدعوة وتألب المشركين يقول الله لنبيه :

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

(المزمل : ٩ ــ ١٠)

وأهل الحق يبدءون نصرته فرادى مستوحشين وســط مجتمعــات تضيق بهم ، بل تضن عليهم بحق الحياة ٠

واذا كان لهم فى المستقبل أمل فهو بالاســتناد الى الله والاستمداد منــه ٠

والواقع أن ثقتهم فى أنفسهم لاتنبع من يومهم الواهن ، وانما تنبع من غد يسوقه الله لهم حافلا بالنصر ، ولذلك فهم يذكرون ربهم ليمضوا فى طريقهم :

﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد : ٢٨)

ولما كانت الحياة يسرا وعسرا وحلوا ومــرا فان جمــاهير البشر لاتستغنى ابان متاعبها عن هذا الذكر الذى يعينها على اجتياز المضايق برجــاء وقدرة ٠

وفيمن تؤمل ؟ الا فى الحى الذى لايموت ٠

بعد هذه النماذج المفردة لأحوال الذاكـرين ينبغى التنبيـه الى أن الجماعة الاسلامية تبنى وجودها المحلى والعالمى على ذكر الله ، والشهادة بوحدانيته ٠

فهى ليست جماعة تعتز بدم معين ، أو يتعاون أبناؤها على تحصيل منافع معينة ، لا انها جماعة ربانية يعنيها ابتداء اقام الصـلاة والهتاف باسم الله مع كل أذان ، قبل طلوع الشمس وبعد الغروب ٠

وجهادها الفذ هو لتأمين الطريق أمام كل راغب فى عبـادة ربـه ، يجعل هذه الحياة الدنيا مهادا لما بعدها من خلود طويل ٠

العلو لاسم الله لا لفرد ولا لجنس ، فان الله يقول :

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾ (القصص : ٨٣)

وكم كان سلفنا الاول جليلا ورائعا عندما طوف بالمشارق والمغارب كادحا لتكون كلمة الله هى العليا ٠

عنـدما يكون الإلحـادُ أذكى ..!

قرأت للدكتور طه حسين ، واستمعت له ، ودار بينى وبينـه حوار قصير مرة أو مرتين فصد عنى وصددت عنه ! ٠

أسلوب الرجل منساب رائق ! وأداؤه جيد معجب ، وهو بين أقرانه قد يدانيهم أو يساويهم ويستحيل أن يتقدم عليهم ٠٠ بل عندما أوازن بينه وبين العقاد من الناحية العلمية أجد العقـاد أعمق فكـرا وأغزر مادة وأقوم قيلا ، وأكاد أقول :

ان الموازنة المجردة تخدش قدر العقاد ٠٠

وأسلوب زكي مبارك أرشق عبارة وأنصع بيانا من أسلوب الدكتور طه حسين ، ولولا أن الرجل قتله الادمان لكان له شأن أفضل .

ودون غمط لمكانة الدكتور الأدبية نقول : انه واحد من الأدباء المشهورين في القرن الماضي ، له وعليه .. وحسبه هذا .

بيد أنني لاحظت أن هناك اصرارا على جعل الرجل عميد الأدب العربي ، وامام الفكر الجديد ، وأنه زعيم النهضة الأدبية الحديثة .

ولم أبذل جهدا مذكورا لأدرك السبب ، ان السبب لايعود الى الوزن الفني أو التقدير الشخصي ، السبب يعود الى دعم المبادىء التي حملها الرجل ، وكلف بخدمتها طول عمره ، انه مات بيد أن ماقاله يجب أن يبقى ، وأن يدرس ، وأن يكون معيار التقديم .

تدبر هذه العبارة للدكتور « العميد » :

« ان الدين الاسلامي يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومي لا كدين الهي نزل بين الشرائع البشر ، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام ، ولذلك لايجوز أن يبقى الاسلام في صميم الحياة السياسية ! أو يتخذ كأساس لتجديد الأمة (!) فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين » .

الاسلام وحده يجب أن يبعد

ويمكن الرجوع لمثل كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » لتجد اشباها لهذه العبارات السامة .

ويشاء القدر أن تقع عيني على هذه العبارة وقد قرت «اسرائيل» رقم الطيران في تركة المال يوم السبت احتراما لتعاليم اليهودية ! .

ان الاسلام وحده هو الذي يجب ابعاده عن الحياة العامة ، أما الأديان الأخرى فلتقم باسمها دول ، ولترسم على هداها سياسات .

وظاهر أن الدكتور طه حسين كان ترجمانا أمينا لأهداف لم تعد خفية على أحد عندما طالب باقصاء الاسلام وأخلاقه وأحكامه ، وعدم جعله أساسا تنطلق الأمة منه وتحيا وفق شرائعه وشعائره .

قائل هذا الكلام يجب أن يكون عميد الأدب العربى فى حياته وبعد مماته ، وأن تشتغل الصحافة والمسارح بحديث طويل عن عبقريته ، ويكون علما فى رأسه نار كما يقول العرب قديما .

أما العقاد واسلامياته الكثيرة فيجب دفنه ودفنها معه ، ومع أن الرجل حارب الشيوعية والنازية وسائر النظم المستبدة ، وساند « الديمقراطية » مساندة مخلصة جبارة ، فان العالم « الحر » ينبغى أن يبخل على ذكراه التراب ، ليكون عبرة لكل من يتحدث فى الاسلام ، ولو بالتلم ! فكيف اذا كان حديثا بالفكر والشعور ، والدعوة والسلوك ، والمخاصمة والكفاح ؟ هذا هو الخصم الجدير بالفناء والازدراء .

ضرورة هتك الأستار :

والقوى التى تعمل دائبة على تخليد الدكتور طه حسين ، وتجديد ذكره ، واعلاء شأنه معروفة لدينا ، ونريد أن نكشف عنها ، اذ لا معنى لبقائها فى جحورها تلدغ ثم تستخفى ، وتنال منا باسم حرية العلم ، وهى لاتعرف من الحرية الا لونا وحيدا : كيف تضرب الاسلام وتطفىء جذوته وتميت صحوته ؟

ذلك ، الى أن الريح تعصف اليوم ضدنا أكثر مما كانت تعصف يوم ألف الدكتور طه ضد ديننا وتراثنا ، لقد أقامت اليهودية على أنقاضنا دولة تريد اجتياح حاضرنا ومستقبلنا ، وهى تربى النساء والأطفال لتحقيق هذه الغاية ، وتعتبر المدرسة ثكنة عسكرية ، والثكنة معبدا دينيا ، والتوراة دينا ودولة .

أما الصليبية العالمية فانى أكتفى بنقل عبارات للشيخ « عبد الله كنون » سجلها فى احدى زياراته لأوروبا .

قال : « أذكر للاعتبار أنى كنت فى اسبانيا ذات مـرة ، وصـادف وجودى فى غرناطة يوم الاثنين ، وهو يوم تعطل فيه الصحف الاسبانية ، ولا تصدر فيه الا جريدة واحدة تسمى صحيفة الأثنين ، فأخذت هذه الجريدة لأنظر فيها أنباء اليوم .. فاذا داخلها ملحق صغير للأطفال يكاد يستغرقه كله مقال رئيسى بعنوان (محمد النبى المزيف) كتب بلغة سهلة مبسطة ، ولكنها مليئة بالهزء والسخرية .

وقد بنى المقال على فكرة أن القرآن مقتبس من التوراة والانجيل اقتباسا مشوها ، لأن صاحبه ـ على حد تعبير الكاتب ـ كان أميا لايعرف قراءة ولا كتابة ، وانما تلقف ماضمنه كتابه من أفـواه اليهـود الذين كانوا يسكنون جزيرة العرب ، ومن بعض الرهبان الذين لقيهم فى أثناء رحلته الى الشـام .

وهكذا يعمل النصارى على تنشئة أبنائهم منذ الصغر على احترام عقيدتهم ـ وحدها ـ ويرابط الكاثوليك فى حصن غرناطة ، مستأنفين الى اليوم مطاردة الاسلام حتى فى نشرات الأطفال بعد أن أجلوا أتباعه من هذا الحصن قبل بضعة قرون » .

هذا ماسجله الشيخ الأديب فى كتابه اللطيف « جولات فى الفكـر الاسلامى » ومن حق القارىء أن يتساءل اذا كانوا يربون أولادهم على هذا الغرار فكيف نربى نحن أولادنا ؟ .

وما هى المناهج التى اختارها عميد الأدب العربى عندما كان وزيرا للتربية والتعليم ، أو اختارها أمثاله لتخريج أجيال تعرف دينها ونبيها وتاريخها وتراثها ؟ .

ويعلم أولو النهى وذوو الانصاف ان الاسـلام مختـرع الحـريات الدينية منذ العصور الوسطى ، وصانع المجتمعات البعيدة عن التعصب الأعمى .. وأنه قدم للعالم حضارة فريدة ، تجاور فيها أهل الكتاب مع علماء الاسلام ، فكانت الحضارة الاسلامية نتاج جهود مشـتركة وتعاون صالح بين الكثرة المسلمة والقلة اليهودية أو النصرانية ..

الطائفيـة زرع الاستعمار :

حتى جاء الاستعمار الحديث فشرع يشحن أفئدة الطوائف الدينية في العالم الاسـلامي بالحقـد والغـش على اخوانهم الطيبين ، ويختلق حكايات مفتراة عن ظلم الأكثرية للأقليات الدينيـة ، ويغرى نفرا من الغلاة بمطالب مجنونة لاحصيلة لها الا زرع الفتن ·· ويقـول الشـيخ عبد الله كنون في هذا المجال :

« أحب أن أوضح هذه النقطة التى أصاب العالم الاسلامى منها خطر كبير ، ذلك أن هذه الأقليات وان كانت تتمتع بجميع الحقوق ، ويتوفر لها ماليس لأقلية أخرى فى بلد غير اسلامى ، الا أنها لاتقنع الا بالهيمنة على أجهزة الحـكم والقـوانين الدستورية ، وأستطاعت بذلك احكـام سيطرتها على الدول التى تنتمى اليها ·

ان بعض هذه الدول كان فى دستورها أن دين الدولة هو الاسلام ، فحذف هذا البند من الدستور ارضاء لأقلية متحكمة ، وهذا أمر لانظير له فى العالم أن تنقاد الأكثرية لحكم الأقلية » ·

قال : « ولا نذكر هنا الأقليات الاسلامية الكبيرة فى الهنـد والصين والاتحاد السوفييتى ، وانما نذكر الأقلية الكاثوليكية فى المملكة المتحدة البريطانية ، وهى أقلية تبلغ أربعـة ملايين ــ تزيد انجلترا قليـلا عن خمسين مليونا من البروتستانت ــ ونسأل : هل دار بخلد هذه الأقلية أن تتحكم فى الكثرة المخالفة لها فى المذهب ؟ هل فكرت فى معارضة الملكـة عندما تؤدى القسم التقليدى على حماية الكنيسة الانجيلية ، والاخلاص لها عندما ترتقى العرش ؟ ·

ويطرد هذا التساؤل عند الكلام عن الأقليات الدينيـة فى المانيـا وهولندا وسويسرا وغيرها » ·

ولا نريد أن نقتبس أكثر من ذلك ، وانما نريد المضى فيما بدأنا به واشعار الذاهلين بخطورة الثقافات المؤذية بل القاتلة التى روجها يوما ما

أدبـاء ضعاف الخلق مرضى الايمان ٠٠ فلما قضـوا وتراجع مدهم أتى من يحاول استحياء فكرهم وتلميع أسمائهم حتى يقع الأغرار فى شركهم ويستقر الأمـر للاستعمار الصهيـونى والصليبى على سـواء ٠٠ على حساب الاسلام الذاهب ٠

قصـــور معيب ٠٠

ويحزننى أن أقول : ان الدكتور طه انتصر فى معارك كثيرة لأن خصومه لم يكونوا على شىء ! فمن نيف وأربعين سنة أمر الدكتور ـ وكان عميدا لكلية الآداب بالقاهرة ـ بقبول طالبات فى الكلية لأول مـرة فى تاريخ التعليم الجامعى ٠

وانفجرت مراجل الغضب عند الأزهريين ، وزلزلت الأرض زلزالها فقد كان الحاق النساء بالتعليم العالى شيئا ادا ٠

والواقع أن جمـاهير من المتدينين كانت تستنكر تعليم المـرأة فى أى مرحلة ، وتعد تجهيلها من الايمان ٠

ولو أنهـا غضبت لأن التعليـم مختلط ، وينبغى تخصيص كليـات للبنات لكانت على حق ٠

وفتحت بعد ذلك بعشرين سنة كليات للفتيات فى الأزهر ٠٠ لقد استيقظ بعد مافاته القطار ٠٠ ان التدين القاصر ينيل أعداءه مكاسب كبيرة دون جهد يبذلونه ٠

والغريب أن هذا القصور المعيب لايزال سمة غالبة على المتكلمين باسم الاسلام فى أماكن شتى ! وفى قضـايا سياسية واجتماعية بعيـدة الآثـار ٠

ألا فلنعلم أن الموقف السلبى لايهزم العمل الخاطىء ، انما يهزمه بديل منصف نفاع للناس ، حام لحقوقهم ومصالحهم ٠

قد تكون « للديمقراطيات » الغربيـة هنات تنـال منها ، لكن هذه الأنظمة لاتهزمها قصيدة هجاء ، أو خطبة رنانة ، انما يهزمها نظام ينفى

الاستبداد ، ويعز الشعوب ، ويصون الفطرة ، ويحترم البرهان ، ويطارد الأوهام .

لم تكن الجبهة الاسلامية قادرة على تقديم هذا البديل ، فنجح سماسرة الاستشراق والتنصير فى اجتياح مواقع كثيرة .. على أن الدكتور توقف عندما واجهه عاملون جدد فى حقل التراث ، كان يبشر بعظمة اليونان وعراقة تاريخهم وحضاراتهم ، حتى كتب العقاد يثبت عكس ذلك ، وكان يريد تغيير الكتابة العربية ، ونشر مقالا أدخل فيه حروف العلة فى بنية الكلمة للدلالة على الحركات ، ولكن الدعوة سرعان ما انهارت لأن حماة أشداء ـ من غير البيئة الدينية ـ بصقوا على الفتنة فانطفأت .

ولست بصدد التاريخ لما كان ، وانما بصدد التوجس مما هو كائن فان العراك لايزال محتدما بين الاسلام ورسالته من ناحية ، وبين الاستعمار العالمى واحقاده التاريخية من ناحية أخرى ، والمستقبل مقلق اذا بقيت شؤون المدافعين على ماهى عليه الآن .

مقابلة .. ومقارنة ..

تسألنى كيف ؟ والجواب :

ان الهاجمين متفاهمون على الغاية المنشودة ، متعاونون فى الطريق الطويل ، يقيم بعضهم بعضا اذا كبا ، ويغطيه اذا تعرى ، ومع أن للكثير منهم أخطاء مذلة فقلما تجد من يتتبعها ، وقد وزعوا الأدوار بينهم ، ومشوا الى هدفهم متساندين .

أما نحن فما بيننا متقطع ، واذا تصالح ندامى الحان ، وتشاكس اخوان المسجد ، فستنكسر المئذنة ويستولى السكارى على المحراب .

اطلعت أمس على مجلة أحبها فقرأت فيها لمزا للأديب الحر المصلح عبد الرحمن الكواكبى وتفسيقا لرجلين من بناة النهضة الاسلامية الحديثة .. وأنا أحد تلامذة « المنار » وشيخها محمد رشيد ، وأستاذه الشيخ محمد عبده .

وأنا أعرف أن المتنبى غفر الله له كان يحب المال الى حد البخل ! ويحب الامارة الى حد الجنون • ومع ذلك أطرب لشعره ، وأستجيده وأستزيده ، واذا لم يكن أمير الشعراء العرب فهو من قممهم •

اننى لا أجعل عيبا ما يغطى مواهب العبقرى ، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبى والدينى ؟ ولمصلحة من أشتم اليوم علماء لهم فى خدمة الاسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور ؟ •

ومن يبقى من رجالنا اذا أخذت تاريخ الشيخين أبى بكر وعمر من أفواه غلاة الشيعة ، وتاريخ على بن أبى طالب من أفواه الخوارج ، وتاريخ أبى حنيفة من أفواه الاخباريين ، وتاريخ ابن تيمية من ابن بطوطة وابن فلان ، وتاريخ محمد بن عبد الوهاب من أفواه الأتراك •• الخ ؟ •

وددت لو أعنت على محاكاة أبى حامد الغزالى مؤلف « الجام العوام عن علم الكلام » فألفت كتابا عنوانه « الجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار » لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم ، وتنفع أممهم بهم •

وجهة نظر فى أقدار الرجال

أكره التعصب المذهبى ، وأراه ضيق عقل وقلة علم ، أو ضيق خلق وقلة مروءة •

وأستحب التقليد المذهبى للعامة وأشباههم ، وللاخصائيين فى علوم الكون والحياة وشئون الدنيا ، حتى لاتشغلهم الفضول عن الأصول ! وأعنى بالأصول ماتوفروا عليه من مهارات فنية وحيوية ، مدنية أو عسكرية لابد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها ، فان مصاب المسلمين فى هذه الميادين فادح أو فاضح •

أنا المشتغلون بعلوم الدين التقليدية ، فلا بأس أن يوازنوا بين وجهات النظر المختلفة ويرجحوا دليلا على دليل ومذهبا على مذهب .

مع اكنان الاحترام للرجال الذين قادوا ثقافتنا القديمة ، وليس هذا تفضلا عليهم نتطوع به ، بل هو أدب ننزل به على قول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم « **ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه** » . (١)

واحترامي لك لايعني بتاتا أن أسلم بكل ماتقول ، وتخطئتي لانسان مالا تعني أبدا أني أفضل منه ، ان حقيقة الفضل لايعلمها الا الله والأئمة الراسخون قد تقع منهم هنات ، وما يهدم ذلك مكانة حصلوها بالسهر والاخلاص والدأب والتفاني .

وقد نبتت في عصرنا هذا نابتة سوء ، تغمز الأكابر بما تراه مأخذا عليها وتتعامى عن كل مالهم من حسنات .

من المعروف أن الامام الشافعي هو أحد مجددي الاسلام ، وهو واضع علم الأصول ، والمحامي المجيد عن السنة النبوية ، ومع ذلك فان البعض لايذكرونه الا بأنه يبيح زواج البنت من الزنى ، ويقترف بدعة القنوت في الفجر .. وتوافه أخرى يذكرونها .

وبهذا المنطق الصبياني لايبقى في تاريخ المسلمين رجل موضع ثقة ! .

فمن من عباقرة الأرض رزق العصمة ؟ ذاك لو سلمنا بأن ما ذكروا مأخذ .. اقول ذلك لمناسبة ما قرأت من تهجم على الشيخ محمد عبده وهو أحد رواد الاصلاح الحديث ، وروح الفقه المتجدد في مدرسة المنار .

أول ماعرفت الشيخ في كتابه « رسالة التوحيد » وهو عرض جديد لعلم الكلام ردم الفجوة بين السلف والخلف ، وشرح العقائد شرحا يمزج بين العقل والنقل ، وتجاوز الترف العقلي والجدل اللفظي ومنهج المتون والشروح ، وقدم أصول الاسلام تقدمة دقيقة جيدة .

---

(١) الحديث رواه أحمد والحاكم والطبراني عن عبادة بن الصامت بلفظ (ليس منا من لم يجل كبيرنا ..) الحديث قال الهيثمي : وسنده حسن .

ثم قرأت كتابه عن الاسلام والعلم الذى رد به على وزير خارجية فرنسا ، فرأيت رجلا عليما بالاسلام وتاريخه وفضله على الحضارة الانسانية ، عليما فى الوقت نفسه بالنصرانية والهندوكية وتاريخهما وما يكتنفه من غيوم •

وقد ألف الكتاب فى ليلة واحدة لشدة غضبه من الهجوم الفرنسى ، وملأه بالوثائق التى تشرف الحق وتخزى الباطل •

من من علماء المسلمين فى عهده تحرك بهذه العاطفة ورد بهذا الرسوخ ؟ •

ثم قرأت تفسيره للقرآن الكريم ، ووجدت بواكير التفسير الموضوعى للسورة فيما كتب ، اهتدى اليها ذهن لماح مستوعب ، وبصر حديد فى ادراك الخيوط التى تشد أجزاء السورة ، كما تشد الأعصاب اجزاء الكائن الحى •

ويمكن عند متابعة المنار أن يعرف فضل الرجل فى تجلية المعنى والحكمة ، ودفع الشبهات ودعم اليقين •

قال صديق : لاتنس أن الرجل ــ من الناحية العلمية ــ متهم بتجاوز أحاديث صحاح ، وهو اتهام لو صح يسىء الى مكانته ! قلت : نعم ، ان الذين يرفضون السنة النبوية مصدرا للتشريع بعد القرآن الكريم أقرب الى الكفر منهم الى الايمان ، واذا كان رفضهم للمتواتر والآحاد جميعا فهم كافرون يقينا •• بيد أن هنا خلطا مزعجا ينبغى كشفه ، فان جماهير أهل العلم تعترف بالسنة جملة ، ويقوم لديها بعدئذ من الأسباب الوجيهة ماترد به حديثا من مرويات الآحاد •

والذين يفعلون ذلك لايسمون مكذبين بالسنة ، فان ردهم لهذا الحديث انما وقع لأنهم يستبعدونه من السنة المطهرة ، كأنهم يقولون عنه : هو موضوع ، أو فاقد لشرط من شروط القبول المقررة •

قال : انك تعلم دقة الشروط التى وضعها علماء هذا الفن لتمييز الصحيح والحسن والضعيف ، فهل تتهم ما ارتضوه من قواعد •

قلت : بل انزل وينزل غيرى عندها ! فهى شروط جامعة مانعة ، لو نظر فيها رجل مادى لارتضاها فى ضبط الأخبار وتأصيلها ٠

وما حدث أن تساهلا وقع فى تطبيق هذه الشروط ٠

فان حديث الثقات اذا ورد مخالفا لمن هم أوثق وصف بالشذوذ ،وان كان سنده صحيحا ٠

كيف تقع هذه المخالفة ؟ ان الراوى بشر قد يخطىء الفهم أو يغلبه النسيان وهنا تجىء المقابلة بين حديث وحديث وسند وسند ، ومع التحرى والاستقصاء يظهر الحق ٠

وقد تجىء المقابلة بين الدلالات المأخوذة من آية قرآنية ، وبين الخبر المروى عن طريق الآحاد ، ومن غرائب ذلك أن أبا حنيفة يبيح أن تباشر المرأة عقد زواجها بنفسها ويرد ما روى بالمنع ، لأن الله يقول :

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾
(البقرة : ٢٣٤)

ويقول تعالى :

﴿حتَّى تنْكِحَ زَوْجاً غيْرَهُ﴾ (البقرة : ٢٣٠)

فنسب العقد اليها ، وهذا الاسناد حقيقى ولا داعى للقول بالمجاز ٠٠ الخ ٠٠ وأغلب الفقهاء يرفض هذا المذهب لضعف الاستنتاج وان ايده كثيرون والذى نلفت النظر اليه أن أحدا لايرد حديثا بالهوى أو لأنه لم يعجبه ، فذلك مسلك كما قلنا أقرب الى الكفر منه الى الايمان٠

مع الامام مالك ٠٠

ونتأمل فى مسلك أمام فقيه محدث ، هو مالك بن أنس رضى الله عنه ، يرى مالك أن المدينة المنورة على عهده ورثت علم الصحابة والتابعين ، وهم القرون المفضلة فى هذه الأمة ، وأن ما اجمع عليه أهل المدينة هو الصورة الدقيقة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاذا جاء

حديث مخالف لما عليه العمل عند أهل المدينة تجهم له مالك ، وتوقف فى قبـوله ٠

انه وان رواه الثقة فقد خالف الثقات ، أى أنه وفق مصطلح أهـل هذا الفن شاذ ، ومن ثم رفض مالك النافلة قبل المغـرب ، ورفض تحيـة المسجد والامام يخطب مع ورود أحاديث تجيز ذلك ، بل تستحبه ٠٠ ان موقف مالك من هذه المرويات كموقف عمر بن الخطاب من حديث فاطمة بنت قيس فى سكنى ونفقة المطلقة ثلاثا ، فقد رد الحديث ـ على صحته ـ قائلا : لاندع كتاب ربنا وسنة نبينا لحديث امـرأة لاندرى حفظت أو نسيت ! انه لايرد السنة وحاشا له ذلك ، أنه ينكر ان هذا الحديث سنة٠ قال الشيخ عبد الله كنون كبير علماء المغرب ـ وهو مالكى المذهب ـ ٠

« نلمح الى رأينا فى تقديم مالك لعمل أهـل المدينـة على الخبـر الصحيح الذى يروى عن طريق الآحاد فانا نرى أنه ذهاب منه الى وجوب النظر فى متن الحديث كما ننظر الى السند ٠ ان متن الحـديث اذا وجد له معارض من الأصول والحقائق الثابتة المسلمة ، وكان من رواية الآحاد أى لم يكن متواترا فيعلم بالضرورة أنه من الدين ، فانه يمكن وضعـه موضع البحث ، ويتوقف العمل به حتى يبت فيه أهل العلم » ٠

قال : « مما يستأنس به لهذا ما روى عن ابن المعذل أنه قال :

سمعت انسانا سأل ابن الماجشون : لم رويتم الحديث ثم تركتموه ؟ فقال : ليعلم أنا على علم تركناه » ٠٠

وهذا القول يرد على من زعم أن الامام مالكا ترك العمل بالحديث لأنه لم يبلغه ، لا ، انه بلغه ، ولكن ثقته برجحان ما عنده يأباه ٠

ان الآحاد لاترد الاجماع أو شبه الاجمـاع وهو يرى أن ما خـالف اجماع أهل المدينة مرفوض ٠

ويرى أبو حنيفة أن حديث الآحاد يفيد الظن الراجح ، فكل دلالة أقوى ترجح عليه كظاهر القرآن ، والقياس القطعى ٠

مع الامام محمد عبده ..

وخصوم محمد عبده يكادون يتهمونه بالزيغ لأنه رفض حديث سحر الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه رفضه تعلقا بظاهر القرآن الكريم واعلاء لقدر المصطفى .

وأخلص من هذا التطويل الى أن اتهام الرجل برفض السنة كلها لأنه اعترض أثرا محددا جور شديد ، ومدرسة المنار شديدة الاحترام للسنة ولكن القرآن عندها الدليل المقدم ، ومن يعترض هذا ؟

قال الصديق : فى كلامك وجهة نظر قد تقبل ، لكن مالا يقبل تطويع القرآن لنظريات علمية أو مفاهيم حديثة ، ان تفسير الشيخ للملائكة ، وللطير الأبابيل لا مساغ له ! .

قلت : قد يكون تطرف فى تقريب المعانى من أذهان المعاصرين ، ولست ممن يرتضون هذا المنهج ، غير أنى أتساءل : لماذا يحسب عليه ذلك ولا يحسب له تفسيره القيم النقى لآيات سورة الأحزاب فى زواج بنت جحش ، وتفسيره الرائع لآيات سورة الحج :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج : ٥٢)

ان الرجل دمر خرافة الغرانيق التى وجدت لها أسانيد عند بعض المحدثين الكبار ، وذاد عن السيرة الشريفة أوهاما تعكر صفاءها ، وبدا من أسلوبه فى الاستدلال انه استدرك على بعض المحدثين اهتمامهم بالسند وذهولهم عن المتن ، وأنه رفض تقوية الفرع على حساب توهين الأصل .

والواقع أنه لايرد أوهام المستشرقين ، ولا يصد مفتريات المبشرين الا فكر على هذا الغرار ، فهل ذلك عيبه ؟ .

صحيح ان الجانب السياسى فى حياة الرجل موضع أخذ ورد ، وأعرف أنه كان فى وضع لايحسد عليه بين محتل غاشم وقصر خائن

وليست لى دراسة مفصلة لهذا الجانب ، وانما اعلم أن دواعى التزكية والترجيح ، والاهانة والتجريح طيعة لمن أراد المدح والقدح والمصير الى الله الخبير بالنيات ، وانما عنانى فقط الجانب العلمى الذى يعنى المسلمين كلهم ، وله بحاضر المسلمين ومستقبلهم علاقة وثيقة ٠

مع جمال الدين الأفغانى ٠٠

وأذكر فى سطور قلائل رأيى فى جمال الدين الأفغانى ، لوددت أن يكون علماء الدين على صفته فى عزة النفس وشموخ الأنف والتوكل على الله ، عندما ذهب الى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يدع مهاجمة شاه ايران ، وأنصت جمال الدين دون أن يرد ، فلما طال الحاح السلطان عليه قال منهيا الحديث : قد عفوت عنه ٠

وشده السلطان ، وذعرت الحاشية ! قد عفوت عنه ؟ العهد بعلماء الدين أن يكونوا مدفوعين بالباب ينتظرون الجدا ويشكرون الندى ٠ فما بال هذا الرجل يناصى الملوك ويحاكم أخطاءهم ؟ ٠

قال المؤرخون : ماكان جمال الدين يرى نفسه دون الخليفة ٠

وتذكرت وأنا أقرأ الحكاية بيتى الشريف الرضى ، وهو يعاتب الخليفة العباسى فى بغداد قائلا :

مهلا أمير المؤمنين فاننا ... فى دوحة العلياء لانتفرق !
الا الخلافة ميزتك فاننى ... أنا عاطل منها وأنت مطوق !

هل هذا السمو خلق عميل للمأمونية كما يقال ؟ انه خلق متوكل وثيق الصلة بربه ، راسخ القدم فى دينه ، وما سمعت قبله ولا فى عصره من كشف احقاد الصليبية العالمية وألب الجماهير ضدها وشن الغارات شعواء على المستبدين والظلمة ، ونفخ من انفته فى الشعوب الراكدة المستعبدة يحضها على العمل لدينها ودنياها ، ان الرجل وحده كان صاحب هذا الصوت ويظهر ان تلك كانت جريمته ٠

قالوا : كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية ، ولا أنفى هذا ، وانما أسأل : فى أى كتاب اسلامى شرحت آثام الماسونية وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغانى ؟ ٠

انه خدع بكلمات الاخاء والحرية والمساواة كما خدعت امتنا اليوم فى المؤسسات العالمية الكثيرة ، والمهم انه منذ ظهر الى أن مات عليلا أو قتيلا لم يؤثر عنه الا العمل على استنهاض المسلمين واحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم ٠٠ وذاك حسبه من الشرف ٠

أذكر أن « بابا روما » الأسبق مات عقب مرض ألم به فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدرى مافيها عن حياته الخاصة ، فصودرت الرسالة ، وفصل الطبيب من النقابة ، وانتهت حياته الاجتماعية ٠

وقد ألفت عشرات الكتب عن « نابليون » تنوه بامجاده ، وتتواصى بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته ٠

القوم ان رأوا من عظمائهم خيرا أذاعوه وأن رأوا شرا دفنوه ! أما نحن فمبدعون فى تضخيم الآفات ان وجدت ، واختلاقها ان لم يكن لها وجود ، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ ٠

وقد نظرت الى علماء الدين الذين تناولوا الأفغانى بالسوء فرأيتهم يحيون فى اطار نظم تتبع الاستعمار الشرقى أو الغربى ، وأنهم فى مواجهته ومواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن لا ونعم ٠٠

ان الهيابين لايجوز أن يشتموا الشجعان ٠

التعاون المثمر ٠٠

وأخيرا ٠٠ أريد أن أقترح تعاونا مثمرا بين مدرستى الأثر والرأى فى ثقافتنا الاسلامية ، فان استباحة أحد الفريقين للآخر وخيم العقبى على أمتنا المنهكة المحاصرة ٠

أذكر وأنا طالب فى المرحلة الابتدائية انى قرأت للزمخشرى هذين البيتين فى شتم معارضيه من أهل السنة ٠

لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة حمر لعمرى موكفة
قد شبهوه بخلقه من جهلهم وتستروا فى زعمهم «بالبلكفة»
أى بلا كيف

ويظهر أن الرجل أحب ان يهين من فسقوه ، فتناولهم بهذا الاقذاع وهو مخطىء بلا ريب ٠

ربما تحمل المسلمون ابان ملكهم العريض ، ودولتهم الكبرى نتائج هذا الشطط ، أما اليوم وهم كما قال الله فى اليهود قديما :

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ (الأعراف : ١٦٨)

أما اليوم وهم غنائم باردة لما هب ودب فليغيروا من سلوكهم وليحسنوا أدبهم مع الله ومع أنفسهم ٠٠ فجمع الشمل أولى والتلاقى على أركان رسالتنا أهم من التخاصم على سفساف الأمور ٠

مدرسة رائدة .. وإمام ضخم ..

قلت لرجل يكره جمال الدين الأفغانى : ماقيمة التشكيك فى انتماء جمال الدين لبلد ما ؟

ليكن أفغانيا أو ايرانيا أو سودانيا ! فهل يستمد الرجل شرفه من وطن ولد به ! انما يستمد عظمته من سيرته وتراثه والأصداء البعيدة التى تركها فى العالم الاسلامى فأيقظته من سبات ٠

قال : انه ايرانى يستخفى بنحلته الشيعية وراء نسب زائف ! ٠

ومبدأ التقية عند الشيعة يتيح له ذلك ! قلت : ان أصدقاء جمال الدين وأعداءه نقبوا فى أقواله وأفعاله وخطبه وكتبه فلم يروا

ـرة من تشيع الا للاسلام والسلف الصالح ، ولم يروا نبرة من حمـاس لا لاستعادة الحضارة الغاربة وانعاش أمتها المسكينة .

ان نفس الرجل تساقطت أنفسا وهو يكافح الذل والجهل والذهول والتفرق وسائر العلل التى أكلت كياننا .

وما عـرف عنـه تعصب لمذهب كـلامى أو فقهى أو جنسى ، كان الاسلام وحده شغله الشاغل حيث ولى وجهـه فى آسـيا أو افريقيـة أو اوروبـا .

قال : هذا من اتقانه لتمثيل دوره ، فقلت مقاطعا : هذا الكلام يشبه اتهام « كارل ماركس » بأنه رأسمالى تخفى وراء فلسفة صنعها أو صنعت له كى يخدم الاغنياء وأرباب العمل .

دع عنك هذا اللغو ، ولننظر فى عمل الرجل لافى نسبه .

عندما ظهر « الأفغانى » كانت الأمة الاسلامية تركة رجـل مريض يوشك أن يلفظ روحه ويقتسم ميراثه ، ولم تكن لها فى المحافل الدولية مهابة ولا رسالة .

استطاع أعداؤها مع امتداد عصر الاحياء أن يجتازوا البارود الى البخار وأن يتهيؤوا للكهرباء والـذرة على حين جثـم المسـلمون على مكانتهم يبذرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، ولا يدرون شيئا قل أو كثر عن الكون الذى يعيشون فيه .

أما ثقافتها الدينية فاجترار غريب للنزاع بين الأشـاعرة والمعتـزلة أو قصص عقيم عن فكر السلف والخلف ، ذاك فى ميدان العقيدة ، أما فى ميدان الفقه فتشريح للفروع ودوران حولها يجعل من الحبة قبة .

وقد قرأت رسالة من مخلفات ذلك العهد الأنكد عنوانها « صواعق من نار فى الرد على صاحب المنار » وسر هذه الغضبة المضرية أن الشيخ رشيد قال : ان صياح المؤذنين بالصلاة على رسول الله عقب الاذان أمر محدث ومن الخير الاقتصار على الوارد .

وقاد الهجوم وقدم للرسالة الشيخ « الدجوى » عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف ٠

لم تكن للثقافة الاسلامية موضوعات ذات بال ، أو قضايا نفسية واجتماعية وسياسية مهمة ٠

ماذا يصنع رجل حكيم حاد البصر والبصيرة بازاء هذا الاختلال العقلى أو هذا الموت المادى والأدبى لقد استجمع كل مايملك من مواهب واشتبك فى صراع وحشى مع الحكام الذين أذلوا الشعوب ومع الشعوب التى ذلت للحكام ٠ وشرع يعرض الاسلام حركة عقل ، وابـاء نفس ، ويبرز خصائص الحضارة الاسلامية الأولى بما حوت من فكر نضير وجراءة على الحياة ، وقدرة على التغيير ٠

كانت الشورى قد ماتت مبنى ومعنى ، كان الاجتهاد قد توقف وأمسى ذكريات بائدة ! كانت الطاقات الروحية والفكرية قد نفدت بين العامة والخاصة وسقط المسلمون من أعين البشر جميعا ٠

وكان على جمال الدين ومن التف حوله من الرجال أن يستأصلوا علل التخلف ، ويردوا الأمة الى الصراط المستقيم ٠

وبديه أن تكون الجامعة الاسلامية أساسهم فلا تعصب لجنس ، وأن يكون العقل الاسلامى رائدهم أو باعثهم فلا تعصب لمذهب أو رأى ٠٠

وقد أحس الأفغانى بما يشيع فى أجواء المسلمين المنهزمين من خرافات ، وبما يصحب اليقظة الاوروبية من باطل وهوى وظلم ، فأخذ يعرض الاسلام على نحو يقمع المغرورين ويستنهض المقهورين ٠

وقد ذكر الأستاذ الكبير عبد القادر محمود أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة القاهرة ستة عناصر لنهج جمال الدين فى الاصلاح ، نومىء اليها باختصار لدلالتها الصادقة على فكر الرجل العظيم ٠

١ ــ فالاسلام دين التوحيد الحق ، الرافض لكل صور التعدد ، الماحى لشتى الوثنيات وتبعية المرء لغير الله ٠

٢ ــ وهو دين الكمال العقلى ، دين أولى الألباب، والأفكار الناضجة والمزايا البشرية السوية ، فلا مكان فيه لدعاوى جنسية وتفرقات عنصرية على نحو ما زعم « رينان » الفيلسوف الفرنسى الذى ناقشه جمال الدين ووقفه عند حده ٠

٣ ــ ينهض الايمان على النظر فى الكون ، وعلى أداء العقل لوظيفته المنطقية ، والاسلام يأبى تقليد الأوائل دون وعى ، ويرى تعطيل العقل مرادفا للحيوانية ٠

٤ ــ ومنذ بدأ الاسلام والمسلم عزيز الجانب قوى بربه سيد لما حوله يفعل الخير ويدعو اليه ، ويحترم الحق ويحكم به ، ويستمده من الوحى الأعلى ، ويقيم سلطان الدولة على دعائمه ٠ ومن ثم فهو يزدرى الاهواء والتقنينات الأجنبية ، ويجعل شريعة الله أساس الحكم فى أرض الله ٠

٥ ــ والأطوار التى جدت على المجتمع الانسانى توجب على المسلمين ألا ينحصروا فى تقليد فقيه واحد من فقهاء الامصار ، بل يجب العود الى الينبوع الذى يستقى منه الكل ، أى الكتاب والسنة ، وأن ينفتح باب الاجتهاد للوفاء بالمصالح الدينية والمدنية التى جدت ٠

٦ ــ غالى جمال الدين الأفغانى بالخصائص الأدبية التى كرم الله بها الانسان ، ونوه بعظمة العقل وامكاناته على الكشف والحكم ، وأزاح العوائق التى تعترض نشاطه ، واحتقر الجمود الذى يلوذ به بعض المتدينين ، والفلسفات الانسحابية التى تشد المسلمين الى وراء ٠

ثم مضى الشيخ العبقرى يهدر فى كل بلد نزل به ! ويصرخ بعد قرون من الصمت لم تشهد هذا الصنف من الدعاة الرواد ، وفى كل قطر تيممه كان الرقود يصحون ! ولم يكن جمال الدين يخشى الا الله ، وما شغله قط مال أو جاه ، ولا عناه الا تكسير القيود التى أذلت جماهير المسلمين ٠

لا أدرى أكان المتنبى يصف نفسه أم يصف جمال الدين الأفغانى حين قال :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا الا لخالقه حكما !
ولا سالكا الا فؤاد عجاجة ·· ! ولا واجدا الا لمكرمة طعما
يقولون لى : ما أنت ؟ فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى

ومع التجهم الذى قوبل به من ذوى السلطان ، والمكايد التى دبرها له الحاقدون والحسدة فان الرجل بقى على وفائه لدينه وانتصافه لأمته وجراءته على العدى وتحمله للالام ·

كذا أنا يادنيا ! فان شئت فاذهبى ويانفس زيدى فى كرائهها قدما
فلا عبرت بى ساعة لاتعزنى ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

الفارق بين المتنبى والأفغانى أن الاول كان طالب امارة يرى نفسه أحق بها من ملوك عصره ، أما الثانى فكان غاضبا للاسلام ، ناقما على من حرفوه وأضعفوه ·

وكان يرفض بعنف شديد الفصل بين الاسلام والعقل ، وبين الشورى والحكم ، وبين الانسان والحرية ، وكان حاسما فى ربطه بين العبادات وزكاة الروح ، والتوكل على الله والزهد فى أعراض الدنيا وصحبة الكبراء ·

ونجح الأفغانى فى تأليب الكثيرين على الاستعمار العالمى ، ولا ريب أن مدرسة المنار فى مصر ومدرسة ابن باديس فى الجزائر ، ومدرسة القاسمى والكواكبى فى الشام ومدارس كثيرة فى العالم الاسلامى كانت أثرا مباشرا لهذه الثورة الفكرية والتربوية التى بدأها جمال الدين ·

وفى هذه الأيام المهزولة من تاريخنا العلمى والسياسى تتعرض سيرة جمال الدين الأفغانى لمطاعن شديدة من صنفين متباعدين جدا ·

فالدكتور « لويس عوض » يصب جام غضبه على الثائر الاسلامى الحر ويصفه بكل موبقة فهو « مغامر مجهول كافر مجنون مخاطر مغمور زنديق مخبول ملحد مأجور افاك دساس دجال متلون ·· الخ » ·

وقد كتب الأستاذان أحمد بهجت وسامح كريم فى أهرام ٢٩-٨-١٩٨٣ تعليقات على طريقة لويس عوض فى البحث والحكم ، وبينا ان الرجل كان يرجع الى تقارير المخابرات الدولية ، ويستقى من مصادر لاتعرف بالنزاهة والصدق ٠

وكتب الأستاذ الكبير الدكتور جابر قميحة مقالا تحت عنوان « التزوير وأمانة الكلمة » يكشف فيه أن الدكتور لويس فى حديثه عن جمال الدين كان قاصر البحث غائب المنهج ٠

والدكتور لويس رجل واسع الاطلاع على الثقافة الغربية ، شديد الولاء لأغراضها ، وأعتقد أن كرهه لجمال الدين نابع من حبه لدينه واحترامه لدور أوروبا فى احتلال الشرق الاسلامى ، وتغييرها الواجب لعقله وضميره ٠

وقد نفس عن كوامنه بالأسلوب الذى هاجم به جمال الدين ، ومع أنى لا أتوقع أن يقول الدكتور لويس كلمة طيبة فى جمال الدين أو فى محمود شاكر الا أنى فوجئت بهذا الضغن الشديد على زعيم من زعماء الاصلاح الاسلامى ٠

فلنترك التيار الصليبى ورجاله وطرائقه فى النيل منا ! ولننظر فى صنف آخر من الناس يحارب مجددى القرن الماضى ، ويستميت فى تجريحهم ٠

ولست أدافع عن شخص ما وانما أدافع عن المبادىء التى ظهر بها مادمت أراها حقا ، ولا بأس أن أنظر الى الشخص نفسه لأعرف : أكان صورة حسنة لما يقول أم لا ؟ ٠

وهنا أسأل : علام كان يعتمد جمال الدين فى تحشيد الأمة حول دعوته ؟ وماذا كان يقصد ؟ وهل للهاجمين عليه عذر فى نيلهم منه ؟

ان الاسلام وحده هو وجودنا المادى والأدبى ، وهو العنوان المشترك فى الموضوع المشترك بين ماضينا ومستقبلنا ، ولن نقبل أن يبتعد حاضرنا عن الاسلام قيد انملة :

ويوجد أقوام يتقدمون رباط الأخوة على رباط الدين ، أو يصغون الى نداء الدم أكثر مما يصغون الى نداء العقيدة . وقد كثر في عصرنا من يهتمون بالوطنية والقومية ولا يتحركون لقرابة الاسلام .

وأنا ممن يفهمون الشرك على معناه الواسع الوارد في القرآن الكريم ! .

فاذا رأيت امرءا يطوح الصلة بالله بعيدا جدا ويرجح عليها صلة أخرى من نسب أو مال ، أو منفعة لم أستطع فهم كيف يكون موحدا ، انه أشرك بالله « شيئا ما » .

ونحن منهيون عن اشراك أى شيء مع الله .. « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » .

ويكاد المسلمون يتفقون على هذا المعنى وان تباينت مصطلحاتهم في التعبير عنه .

انما يقع الاختلاف عند التطبيق ، وعندما تقع تجاوزات أو انحرافات ، واذا افترضنا حسن القصد قائما بين جمهور المؤمنين ، وأن حال المسلم تحمل على الصلاح أبدا فان سبب الاختلاف يرجع الى تفاوت العقول في تقدير زاوية الانحراف ، أو مدى التجاوز .

ان هذا التفاوت العقلى قد يثير الدهشة والغضب .

هذا رجل يكره المذهبية ! حسنا لكن ألا أبالى بكفاح الافغانيين ضد الشيوعية لأنهم أحناف ! هذا جنون .

وألا أبالى بكفاح المصريين ضد الاستعمار لانهم قبوريون ، وألا أبالى بكفاح المغاربة ضد الصليبية لانهم صوفيون ! هذا وذاك لون من السفه لايجوز أن يلبس ثوب التدين .

وثم أمر آخر أن ايقاد البغضاء بين العوام بسبب خلاف فرعى جرم كبير لاسيما بين أتباع دين يأجر المخطىء والمصيب .

استمعت الى حديث عن أديب انكليزى يكتب قصصا للاطفال كى يشبوا نافرين من الخلافات السخيفة .

قال الأديب لاطفاله : ان نزاعا نشب بين أهل مدينة كـذا : هـل تؤكل البيضة من أحد طرفيها المدببين ، أم من وسطها العريض ، وتألف حزبان أو مذهبان كل يدعو لرأيه ، واستفحل النزاع فصار حربا انهزم فيها أحد الفريقين ، فالتجأ الى مدينة أخرى واستعان بأهلها لينتصر على خصمه ، ونشبت حرب عامة بين المدينتين ·· الخ ·

قلت : ما أحوج الدهماء فى بلاد الاسلام الى سماع هذا الدرس ·

على أية حال ان المصلحين الكبار يترفعـون عمـا يشـغل العـامة وأشباههم من قضايا ·

وهم يتجهون الى الاصلاح من المنبع لا من المصب ·· وهذا ما فعـله جمال الدين ، ومن سار تحت رايته ·

انه نظر فى أحوال المسلمين على اختلاف العصور ، وعرف الـداء وبدأ العمل ·

وكان الرجل يتملكه احساس لاريب فى صدقه ، أن الفكر الاسلامى متخلف عن الفكر العالمى مسافة طويلة ! بل متخلف عن الاسـلام نفسـه وتاريخه البعيد ·

أترى جمال الدين كان واهمـا فى هذا الشـعور ؟ كـلا ، ان هذا الشعور لايزال يتملكنا بعد مائة عام من وفاة الرجل ، فان الضغط على أمتنا شديد كيما تبقى فى الرغام ، ولقد اجتمع عليها الخصوم من كـل ملة وبقيت متفرقة الهوى متناحرة على الهباء ·

وقد قيل : ان الفساد يهبـط من أعلى الى أسـفل وان الاصـلاح يصعد من أسفل الى أعلى ، وقد حاول جمال الدين أن يعمل بالمبدأين معا فحـاول اسداء النصح الى الحكـام ، وتعريضهم أنهم أجـراء للشـعوب وملزمون بالشورى ، كما حاول استحياء الأمة الهامدة وتبديد الخمـول العلمى والخلقى الذى ران عليها ، وألفى وجـودها الأدبى والمـادى فى السباق العالمى ·

وكان ايمانه عميقا بقدرة الاسلام على استئناف رسالته وتجديد حضارته ٠

وعندما أصدر هو وصاحبه محمد عبده مجلة العروة الوثقى لم يكن صحافيا مهموما بالطبع والنشر ! كلا ، لقد مهد لذلك بتأليف جماعات أو شعب تتواصى بنصرة الاسلام وتقسم الايمان المغلظة على جعل الولاء له فوق الولاء للأبوة والأمومة ، وتتجمع على مدارسة المجلة كى تضع أسس الجامعة الاسلامية الجديدة وتعيد العافية للكيان المريض ٠

وقد أصدرها فى باريس ! والغريب أن عواصم الغرب لاتزال الى يوم الناس هذا المكان الذى تصدر منه صحف اسلامية قوية ٠

أما يدرس أولو الألباب هذه الظاهرة قبل ان يتهموا بالالحاد الرجل الذى رد على الدهريين ؟ وبالفوضى الرجل الذى أراد الغاء القوميات الضيقة أو الواسعة ليقيم على أنقاضها الوحدة الاسلامية ؟ ٠

ان الجريمة الأولى والاخيرة لجمال الدين الأفغانى أنه اكتشف الروح الصليبية فى الاستعمار الغربى وحذر منها ، ونبه الى أن قلب بطرس الناسك لايزال يخفق فى صدور الساسة الأوربيين ٠

والجريمة التى تتبعها أنه قدم اسلاما بلا مذاهب مفرقة ، وداس بكبرياء ما أنشغل به جلة علماء الدين من فروع الفقه وبحوث اللاهوت٠

وطبيعى أن تنطلق الأبواق لتطعن فى شرف الرجل وعلمه ، وقد تكون هذه الابواق خادعة ، أو مخدوعة ! بيد أن الاستماع اليها هزيمة اسلامية شائنة ، ونصر مؤزر للصليبية الغازية وللسلطات العفنة التى عاشت وتعيش فى كنفها ٠

وأوجه النصح الى المسلمين المعاصرين بأن يستبينوا أمرين كانا من أهم مادعا اليه جمال الدين وتلميذه العظيم محمد عبده ٠

أولهما : أن دراسة العلوم الحديثة واجب اسلامى أول ، وأن أى عقل نظيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن الكريم

عن الكون ، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للايمان الصحيح ، ودمغ للالحاد ·

وعلماء الدين الذين يبتعدون عن هذه الدراسات عمدا هم أنصاف أميين ، وربما أساءوا الى الاسلام من حيث يبغون الاحسان اليه ·

وقد أشرنا فى كتبنا الأخرى الى أن جهاز الجهاد الاسلامى سوف يتوقف كل التوقف بالجهل فى هذه الميادين ، بل ان العقل الاسلامى نفسه سوف يضار من هذا القصور ·

والحق أن دراسة هذه العلوم أولى من التوفر على تفاصيل فقهية ماكان يعرفها الصحابة رضوان الله عليهم ! بل أولى من الخوض فى بحوث لاهوتية وجدل كلامى لو خاض فيه سلفنا الأول ماقامت لهم دولة ولا شمخت لهم حضارة ·

أما الأمر الثانى فهو حسن معرفتنا لأنفسنا ، أو بتعبير دقيق ، التفريق بين دين الله وبين عملنا به وله فى الماضى والحاضر ·

دين الله مضبوط فى الكتاب والسنة ، ومنهما تستمد الأحكام ·

أما التاريخ الاسلامى ، فى الماضى والحاضر ، فليس مصدرا للتشريع ، ولا مؤشرا على الحلال والحرام ! وأخطاء السلاطين أكثر من صوابهم ، وعوج التقاليد أكثر من استقامتها ·

وعندما ينهض مصلح ـ فيغضب على تخلفنا ، ويحاكمنا الى كتاب ربنا وسنة نبينا ، ويلفتنا الى سيرة القرون الخيرة الأولى ، ويذكرنا بأمجاد حققناها لأسباب وفقدناها لأسباب فلا يجوز أن ننهش عرضه وننال منه ·

لماذا بقيت برية سيناء وشطوط الخليج مراعى للأغنام حتى جاء غيرنا فاستخرج منها النفط وأفاض منها الخير ؟ ·

آباؤنا الأوائل علموا أوروبا النظافة وانشاء المدن المضاءة ، والشوارع الممهدة للمشاة والركبان ·

وكان ذلك باسم الاسلام ومن الاصطباغ بحقائقه ·

فهل الاسلام ـ أم تخلفنا العقلى ـ سبب هبوط الاستعمار علينا واستخراجه دفائننا ؟ ·

ان بيننا من لايزال يشتم الرجال الذين نشطونا للدراسات الحديثة وقالوا لنا : لابد من دراسة الفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء ولابد من الدراسات الانسانية والكونية والفلكية ·

ولماذا يشتمونهم ؟ لأنهم ينقلون الضوابط الحديثة للشورى (!) ويخاصمون الحكم الفردى ؟

لأنهم ينقلون الابداع الادارى المتفوق هنا وهناك كى يشدوا به أوصال أمة مفككة ؟ ·

لأنهم يرفضون أن تؤخذ صورة الاسلام من تطبيقات القرون المنحطة ويرجعون بنا الى المنبع الاول ؟ ·

مما يؤلمنى أن أرى بعض « المتدينين » يحب الهجاء أكثر مما يحب الثناء ويسارع الى خطأ ليفضحه أكثر مما يسارع الى جميل ليمدحه ·· وهذا البعض مستهتر بتجريح الكبار وغمط فضلهم ·

وقد تلاقى هذا البعض مع الدكتور لويس عوض فى التهجم على جمال الدين الأفغانى ·

والدكتور لويس يرى أن يعقوب حنا الذى خان مصر وانضم الى الحملة الفرنسية هو زعيم قومى عظيم القدر (!) وأن جمال الدين موقظ الشرق الاسلامى فى العصر الحديث جاسوس ملحد (!) ·

وكما قلت لاعجب فى موقف الدكتور ، وانما العجب فى موقف الذين تلاقوا معه فى ضرب رجل الاسلام ! والجنون فنون ·

أما تركت هذه الزوابع ؟

أتردد على تفسير المنار بين الحين والحين لأتعلم منه مالم أكن أعلم وهو فى نظرى موسوعة ثقافية موارة بالأبحاث التى تشمل الدين كله ·

والشيخ رشيد ، وأستاذه محمد عبده ، وزعيمه جمال الدين من أعمدة اليقظة الاسلامية فى العصر الحديث · ولكنهم ومن فوقهم ومن دونهم من المفكرين الاسلاميين مارزقوا العصمة ولا زعمت لهم يوما ·

ومن من أئمتنا القدامى والمحدثين أصاب فلم يخطىء ، ومضى فلم يعثر ؟ ·

وهل وظيفتنا أن نمضغ الأخطاء ، ونتتبع العثرات ونتعامى عن الحسنات ونشتم القمر لانه كثيرا مايقع فى المحاق ؟ ·

قال لى صديق يعمل مفتشا للوعظ والارشاد بالقاهرة : انه ذهب لالقاء محاضرة عن أحمد بن حنبل بناد لجماعة تنتسب الى السنة ، وبعد أن أتم كلامه قام متحدث آخر ليلقى محاضرة موضوعها « أبو حامد الغزالى الكافر (!) » ·

وفزعت لشناعة التهمة الموجهة الى امام ضخم من قادة الفكر الاسلامى ، لقد كان أبو حامدعالما أديبا ، وفقيها أصوليا ، ومربيا فيلسوفا ·

وهو أذكى من أرسطو وافلاطون وسقراط الذين تشمخ بهم اليونان وتعتز بهم أوروبا ·

لماذا يقوم امرؤ ما بتكفيره ؟ واذا كانت للرجل أخطاء فى الاحاديث النبوية فقد استدركت عليه من أصحاب هذا الفن ليتيسر بعد ذلك الانتفاع بعلمه الغزير ·

يوم طغت الفلسفة اليونانية على العقل الاسلامى اجتاحها أبو حامد بكتابه « تهافت الفلاسفة » ليعيد الى الأصول الاسلامية مكانتها ٠

ويوم استهلك الترف أمتنا ، حكومات وشعوبا ، وأذهلها عن رسالتها الكبرى عمل على « احياء علوم الدين » ٠

هذه العلوم كانت تحتضر ، وكان المسلمون قد فقدوا جدارتهم بالحياة فعندما هجم الصليبيون على الشام ، واستباحوا بيت المقدس لم يكن فى مواجهتهم أحد ٠

ان هؤلاء الصليبيين الزاحفين لو قاومهم جيش من الكلاب لهزمهم فقد كانوا يجرون أقدامهم جرا من الاعياء والمجاعة ولكنهم لم يجدوا أمامهم أحدا ! أين كنا ؟ ٠

وجهد الغزالى فى الاحياء مشوب ، وقد وقع فى أخطاء شتى بيد أن الكتاب من أخصب المؤلفات فى شرح آفات النفوس ، وتقويم الطباع البشرية ، واقتياد البشر الى ربهم تبارك اسمه ، فهل جزاء الرجل بعد ذلك أن يتهم بالكفر ؟ ٠

ان المسارعة فى التكفير دأب الرعاع والحمقى ! وهناك علماء مبرزون فى ميدان ومقصرون فى ميدان آخر يعطون أنفسهم حق اصدار أحكام علمية وتاريخية فى كلا الميدانين ، وهم يعينون الجهلة على تكوين أفكار منحرفة ضد رجال أبرياء ٠

ولو اتجهنا الى البناء بدل الهدم ، والى الانصاف بدل الحيف لكنا أهدى سبيلا ٠

أذكر أنه جمعتنى أيام طيبة بالمغفور له الدكتور محمد محمد حسين ، وهو رجل خبير بالتيارات الأدبية الحديثة ، وله غيرة مشكورة على الاسلام ، وأكن له فى نفسى احتراما كثيرا ، سمعت منه كلاما لم أتجاوب معه ٠

قال : ان شعار الحرية والاخاء والمساواة اختراع يهودى ! وان اليهود هم صانعوا الثورة الفرنسية عن طريق محافلهم الماسونية ، وان

النظام الجمهورى نفسه يكاد يكون من صنع اليهود ، وهؤلاء اليهود المكرة من وراء الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧ م .

قلت فى نفسى : ولعلهم كذلك صانعو هيئة الأمم المتحدة ، ما أحقهم بالحياة اذا كانوا ـ مع قلتهم ـ بهذا الحجم الضخم ، وبذلك الأثر العميق .

واستطرد الحديث ليتناول مبدأ « الأمة مصدر السلطة » وكيف أنه مبدأ غير اسلامى ، وتحدث الرجل عن جمال الدين ومحمد عبده حديثا مليئا بالسخط والزراية ، وقال ، انهما ماسونيان .

قلت : أحب أن أرجىء الحديث عن الأشخاص ، وأكترث بالحديث عن المبادىء ، ليكن فلان شيطانا رجيما أو ملاكا كريما فذاك يعنيه عند ربه ، وما تنفعه شهادتى له اذا كنت مخدوعا فيه .

اذا كان شعار الحرية والاخاء والمساواة من صنع عباد الشيطان فماذا صنع عباد الرحمن ؟

والى أين تتجه الطبقات التى تشعر بالعبودية والنبذ والظلم ؟ .

ياصديقى ان الشعار عظيم ، قل : ان اليهود يتاجرون به ، أما أن تعلن عليه حربا باسم الاسلام فلا ، ولا .. لاتظلم الاسلام ..

وقضية ان الأمة مصدر السلطات لاتعنى أكثر من وضع حد للحق الالهى فى الحكم الذى زعمه ملوك أوروبا لأنفسهم ، أى أنه لاحق لأبى بكر فى الخلافة لو لم تختره الأمة ، اختيارا عبر عن رغبتها الحرة وسلطانها فى التقريب والابعاد .

قال : المبدأ أوسع من ذلك فهو يعطى الأمة حق التشريع ، والتشريع لله وحده .

قلت : صيحة لاحكم الا لله معروفة فى تاريخنا .

ونحن المسلمين نوقن بأن نصوص الكتاب والسنة واجبة التطبيق ومعترضها ينسلخ عن الدين ، ودائرة النص محدودة الأبعاد ، ومن ثم قام القياس والاستصلاح والاستحسان ، وقام النظر الحر فى شئون

الدنيا ، واستطاع المسلمون بالارشاد الالهى أن يشرعوا لأنفسهم على امتداد الزمان والمكان ٠

ولا مجال للعب بالألفاظ كما فعل الخوارج ٠

ولا مساغ لدعم الاستبداد السياسى وتقويض بنيان الأمة بتلبيس المعانى وتحريف الكلم عن مواضعه ٠٠

وما أقوله هو ماكان يدعو اليه جمال الدين ومحمد عبده وهو علة مالاقيا من عنت ٠

وفهم بعض السامعين من هذا أنى أوثر نمط الحياة الغربية ، وهو ما اتهم به الرجلان ، فرأيت أن أشرح الموضوع بقليل من التفصيل ٠

ان هواى مع الاسلام وحده ، والميل الى الشرق كالميل الى الغرب انحراف عن الصراط المستقيم ، وتقاليد العرب فى أمر ما ليست صورة الوحى الأعلى ٠

قد تجلس الى مائدة عربية ، فيها جفنة الارز يجللها خروف غليظ اللية مديد القامة وقد تجلس الى مائدة غربية عليها عدة أطباق فيها قطع من اللحوم وبعض الحبوب والبقول ٠

لك أن تعجب بهذا النظام أو ذاك ، فما ينقص هذا ايمانا ولا يزيده ولك أن تبتدع فى نظام المائدة ماتراه أدنى الى طبعك ! المهم « سم الله ، وكل بيمنك ، وكل مما يليك » ٠

ان المائدة السياسية ، أو الاجتماعية التى نجلس اليها ، لايحكمها شكل ، وانما يحكمها مبدأ ، ومن حقى أن أرفض تقاليد كثيرة لانسب لها مادمت متقيدا بالاسلام وهديه ٠

وأصارح بما عندى ! ان أثقالا رهيبة من التقاليد العربية فى شتى الميادين تحكمنا باسم الاسلام ، والاسلام لايعرفها ٠

على حين تسود أقطار الغرب فى الميدان السياسى خاصة تقاليد أقرب الى ديننا وان كان القوم لاينمونها الى هذا الدين ! من يدرى ؟

لعلهم يستريحون الى الاسلام والى نبيه العظيم لو عرفوا هذه القرابة المعنوية .

اننى أرفض ، بل أزدرى ، صياحا أبله ضد مبادىء هى من صميم الفطرة ، ومن غايات الاسلام الاجتماعية ، لا لشىء الا لأنها غير ما نالف فى عاداتنا وتاريخنا ، أعنى عادات أمتنا ابان هزائمها الثقافية والسياسية ، وما حواه تاريخها الأخير من تخلف وضياع .

وقد كان الامامان العظيمان جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده يسعيان لتجلية حقائق الاسلام ، ونفض ماعلاها من غبار ! ويتنكران للتقاليد الدخيلة عليه أو التى تستمد حق البقاء من التصاقها به .

ولما كان لهذه التقاليد سدنة يفيدون منها ويبنون وجاهتهم على حياطتها ، فقد انطلقوا يصيحون فى كل فج مهددين بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ويعلم الله أن هؤلاء الصائحين اما صديق جاهل بالاسلام ، واما عدو مضل مبين .

وهنا سأل سائل : أمن خدمة الاسلام الانتساب الى الماسونية ؟ .

وقلت : اننى أكره هذا العمل ، وهو خطأ بولغ فى تضخيمه ! والماسونية نحلة ماكان أحد يدرى خباياها ، كانت تخادع بشعار الحرية والاخاء والمساواة ، فلما دخلها جمال الدين وأحس أن أعضاءها مزورون شن عليهم الحرب وفض محفلهم وأسس محفلا آخر يقول فيه مايريد .

ولو أنى دخلت حانة للخمر وجلست على احدى موائدها لأعكر صفو الشاربين وأدم اليهم السموم التى يتناولونها ، وأصف لهم مساخرهم فى غيبوبتهم ، ماكنت ملوما .

والدول الاسلامية الآن تنتمى الى هيئة الأمم المتحدة ، وتحرص على البقاء فيها ــ وهى ماسونية كبيرة ان صح التعبير ــ وليس ذلك عيبا ، انما العيب أنها نسيت حقوق الاسلام عليها ولم يكن حديثها فى هذه الهيئة ترجمانا لأهدافه الانسانية الرفيعة ، ودفاعا باسمه عن المظلومين وما أكثرهم فى ظلال هذه الحضارة .

ان عالمية الاسلام تفرض علينا أن ننساح بين الناس و نفشى مجامعهم الشعبية والرسمية ، ولكن « عالمية الاسلام » كلمة يلوكها المسلمون ولا يحسون تبعاتها ٠

ومن الذى يقدر على حمل هذه التبعات ؟ أعشى لايبصر من حقائق دينه شيئا طائلا ؟ كان ربعى بن عامر البدوى أبصر بغايات الاسلام من شيوخ كبار فى عصرنا عندما قال للفرس : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ٠

لقد أبصر علل القوم وصاح ملوحا لهم بالدواء ٠

الأوربى المستنير المتحضر فى أوروبا متبرم بما ورث من عقائد ، ويريد أن يعب من ينبوع التوحيد الخالص الذى يتفجر فى ديننا ، وهو يسأل عن تعاليم هذا الدين فماذا يسمع ؟ لايسمع الا مايصده ويرده ٠

هذا يقول له : الشورى لاتقيد الحكم الفردى ولمن شاء أن يستبد بالأمة وعليها الصبر ٠

وهذا يقول له : يتكوم المال عند من صادفه الحظ دون حرج فان الله يريد أن يجعله دولة بين الأغنياء منكم ٠

وهذا يقول له : العقل أعمى والتعويل على الشرع ، أو الدنيا ضرة الآخرة ولايمكن الجمع بينهما ! أو الحديث الضعيف مقدم على القياس ٠

وهذا يقول له : المرأة لاتخرج من البيت الا الى الزوج أو القبر ، ولا يصح أن تلى منصبا ما ٠

فلو كان فى انجلترا لقال للانكليز : اعزلوا ملكتكم وأطردوا رئيسة وزارتكم لكى يمكن قبولكم فى الاسلام ٠

وعنده ان سليمان عليه السلام كان مخطئا عندما أقر وضع ملكة سبأ ، وطلب منها أن تعتنق الاسلام ٠

ان الرجال الثلاثة جمال الدين ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا هم قادة الفكر الواعى الذكى فى القرن الأخير ٠

والنقيق العالى الذى يثور ضدهم هو من أشخاص علمهم بالاسلام سطحى ودفاعهم عنه دفاع الدبة التى قتلت صاحبها .

ان صاحب المنار استوعب مذاهب المفسرين ، من تفسير بالأثر الى تفسير فقهى ، الى تفسير بلاغى ، الى تفسير كلامى ، ومن المختصرات الى المبسوطات ، ثم ضم الى ذلك علما بآراء المذاهب الفقيهة الكثيرة ، الى تقعيدات الأصوليين الذين نبغوا فى شتى العصور ، الى ما جد فى العالم الاسلامى بعد احتكاكه بالمجتمعات الحديثة .

وقد روى أن أستاذه الشيخ محمد عبده طالع خمسة وعشرين تفسيرا ليستريح الى معنى آية من آيات الأحكام ، اضطربت فيها الأقوال .

وكان الرجل صاحب فكر متميز ومقولة مدعومة فى هذه المعامع العلمية ، فما غره بريق ، ولا هالته كثرة ، وكان بصيرا بعلل الضعف التى انتابتنا ، ومداخل الشيطان فى حياتنا ، وكان عميق الشوق الى احياء العقل الاسلامى والعودة به الى نقاء السلف الأول .

والذى أراه أن مدرسة المنار هى المهاد الأوحد للصحوة الاسلامية الحاضرة ، وعلى الذين يرفعون القواعد من هذا المهاد أن يتجنبوا بعض الهنات التى فات فيها الصواب امامنا الكبير ، فما نزعم عصمة له أو لغيره .

قال لى الأستاذ حسن البنا عليه الرضوان : انه تناقش مع الشيخ رشيد فى احدى القضايا الفقهية ، واتسعت مسافة الخلف بينهما ، ولم يصلا الى وفاق .

ثم رأيت الاستاذ البنا يصدر صحيفة الشهاب ، ويبدأ فيها باب التفسير ، فاذا هو يستفتتح بسورة الرعد ! قلت له : لم هذا البدء ؟ قال : من حيث انتهى الشيخ الكبير محمد رشيد رضا .

قلت فى نفسى لايعرف الرجال الا الرجال .

ثم جاء فى هذه الأيام غلمان فى ميدان المعـرفة يريدون الاستطالة فى أعراض الأئمة ٠

ويستحيل أن يهدى الى الحق من يحرم أخـلاق الايمان ، أعنى من همته البحث عن العيوب ورجم الناس بها ٠

ان رب العالمين تبارك وتعـالى جعـل فى حسـابه كفتين ، واحـدة للحسنات وأخرى للسيئات ! وهؤلاء لايعرفون الا كفة واحدة تجسم فيها الشرور ، صحيحة أو منحولة ٠

وهل قتل الخلفاء الراشدون الا بهذا المنطق الكفور ؟ وهـل جـأر الابرياء من قديم بالشكاة الا من أناس ٠٠

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا : عنى ٠ وما سمعوا من صالح دفنوا ! جهلا علينا ، وجبنا عن عدو همو : لبئست الخلتان الجهـل والجبـن !

والمتدينون المصابون بهذه الآفات لاتنجح لهم حـركة ، ولا تتنزل عليهم رحمة ، لأنه لا كرامة الا لمن أتى الله بقلب سليم ٠

وسمعت من هؤلاء أن الشيخ محمد عبده اتصل بالانكليز وتعـاون معهم ، فقلت : ان كانت علاقته بالقوم عن محبة لهم وولاء فقد ارتد عن دينه وحبط عمله ، فهل كان ماضى الرجل ومستقبله يرشحه لهذه التهمة؟

ان الشيخ محمد عبد سهر فى الرد على وزير الخارجية الفرنسية « مسيو هانوتو » عندما هاجم الاسلام ، فأتم كتابه « الاسلام والعلم » فى ليلة واحدة ، حرمه الحماس الرقاد ، فلم يسترح الا بعد ماجلا الحق ٠

أين كان الشيوخ الحاقدون على الشيخ يومئذ ؟ كانوا بين عاجـز وجبـان ٠

وعاد الرجل الى القاهرة بعد فشل الثورة العرابيةواحتلال الانجليز لمصر ٠

وكان الخديوى قد أصدر أحكاما باعدام وتشريد قادة الثورة ، بيد أن الانجليز خففوا هذه الأحكام ، واستبدلوا بها النفى لمدد متفاوتة ٠

فلما رجع محمد عبده وجد واقعا مـرا ، القصر الخـائن والمحتـل الكافـر .

ومن أيسر الأمور على رجل مهزوم أن يفر الى بيته وينسحب من الحياة العامة ، لكن البطولة ليست فى هذا الفرار السـهل ، لقـد آثـر الطريق الطويل طريق التربية ورفع المستويات النفسية والفكرية .

ويفرض عليه ذلك السعى لاصلاح الأزهر ، وترقية اللغة والأدب والتدريس المتصل لعرض حقائق الدين واثارة الطريق أمام التائهين ، لقد فشلت الثورة العسكرية فليتخذ أسلوبا آخر .

وهو أمام خيارين أحلاهما مر ، كيف يتقى الانكليز ؟ وكيف يتقى القصر ؟ .

وكان محمد عبده شديد الاحتقار للعائلة الملكية ، ويرى أنها أسرة وضيعة باعت دينها وعرضها فى سبيل الجـاه الـزائل .. وقـد وصف كبيرها محمد على باشا فقال من حديث طويل : أخذ يقرب الأسافل كأنما يحن الى عرق فيه .

ولما اتجه الى اصلاح الأزهر وجد مقاومة هائلة من شـيوخه الذين يرون ادخال العلوم الحديثة كفرا ! ويرون استبقاء الحصر القديمـة ، لأن أقدام الشيوخ المباركين وقفت عليها .

وقد ذكرت فى حديث سابق أن عدة جمـاعات كانت تقام للصـلاة لواحدة بأعداد المذاهب الفقهية ، وكان الفكـر الاسـلامى فى غيبوبة لاتشبهها الا غيبوبة الأدب العربى .

لقد استمات الشيخ المصلح فى عمل شىء للاسلام فتحايل على سطوة لانكليز ، وعلى جمود الشيوخ ، وعلى خصومة القصر ، وعندما مرض مرضه الأخير ترجم عن آلامه النفسية بقوله :

ولست أبالى أن يقال محمد أبل ، أم التفت عليه المـآتم !
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم !

ولم يكن غريبا أن يتهم محمد عبده بالكفر ، وانكار كرامات الأولياء ، والخروج على آراء الفقهاء ، بل لقد اتهم بترك الصلاة ، وأحسبه كان سيتهم بأمور أخرى لو كان فى ريعان الشباب ٠

ومع ذلك فقد مضى الرجل فى طريقه بقوة ، ونشأ عن حركته ازدهار علمى وأدبى وسياسى نقل الأمة الاسلامية الى طور آخر من أطوار الحياة والكفاح لم تشهده من ألف عام ٠

وما أحسب أن مدرسة المنار ، ثم مدرسة محمد فريد وجدى ، والعقاد ، والخضرى ، وأبى زهرة ، ومحمود شلتوت ، والمدنى ، وغيرهم من الاسلاميين والمد الأدبى العظيم فى الشعر والنثر الذى تدافع سيله فى الايام الماضية وارتقت به اللغة العربية أرتقاء باهرا ما أحسب أن ذلك كان سيتم لولا حركة محمد عبده وأستاذه جمال الدين ٠

أكان الاستعمار الصليبى أو الشيوعى يترك هذا السيل الى مداه ؟ ان شتم جمال الدين ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، لايعنينا لو كان تجريحا شخصيا ، انه محاولة للقضاء على نهضة أمة ورسالة دين ؟ ٠

ماذا قلت ؟ لماذا لايعنينى تجريح رجالنا والنيل من مكانتهم ؟ هذا خطأ كبير ٠

ان الجهود المجنونة التى تستبيح قادتنا وكبراءنا فى ميدان العلم والأدب والسياسة لها غاية يجب فضحها ، والتحذير من مغبتها، انها تريد القضاء على تاريخ أمة ، وعندما تكون أمتنا بلا تاريخ ، فلن تكون أمة ، ماقيمة أمة ليس لها رجال ؟ وما قيمة دين لم يصنع رجالا على تراخى العصور ؟ ٠

انه لابد من استنقاذ تراثنا من أيدى المسعورين والهدامين ، والواقفين على مبعدة ينبحون القوافل المارة ٠

شائعات في ميدان العلم

ذكر الأستاذ « حفنى ناصف » فى كتابه تاريخ الأدب أن قبائل العرب كانت تتفاوت فى جودة الخط ودقة الاملاء ـ على عهد النبوة ـ قال : « وكانت ثقيف أبرع أهل الحجاز فى الكتابة ! كما أن هذيلا كانت من أبرعهم فى الفصاحة » .

ولذلك لما عرضت المصاحف على (عثمان بن عفان) رضى الله عنه بعد كتابتها ، ووجد فى رسمها بعض شذوذ عما يقتضيه القياس كزيادة الألف فى قوله تعالى :

﴿ لا أَذْبَحَنَّهُ ﴾ (النمل : ٢١)

وقوله

﴿ ولا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ (التوبة : ٤٧)

وقواعد الاملاء تقضى بكتابة الكلمتين هكذا : « لأذبحنه » ولأوضعوا . (١)

لما رأى عثمان ذلك قال : لو كان الكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لم توجد هذه الحروف الزائدة ! .

فارتبك الكتبة فى تدارك ذلك ، فقال عثمان : اتركوها فان العرب ستقيمها بألسنتها .

والألفات الزائدة فيما نقلنا ، تشبهها واوات زائدة مثل « سأوريكم(٢) دار الفاسقين » القاعدة سأريكم ! ومثل الواو فى كلمة « الصلوٰة » ـ فيما نظن ـ فالقاعدة الصلاة .

---

(١) والكلمتان فى المصحف بالرسم العثمانى (لأ اذبحنه) (ولأوضعوا)

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٥

وهذه الرواية التى نقلناها باختصار عن أديب العربية فى عصره « حفنى ناصف » موضع أخذ ورد ، ومع التسليم بهـا فهى لاتعنى شيئا ذا بال ! ان عثمان رضى الله عنه لم يهله هذا التفـاوت الامـلائى ، فان المصدر الأول للقرآن الكريم هو التلقى الشفوى ، وهو الذى يسـتبقى القرآن متلوا على النحو الذى نزل به من عند الله تبارك وتعالى ٠

ولنضرب مثلا لما نقع نحن فيه من تجاوز لقواعد الاملاء ، أغلبنـا يكتب « يقرأون » بهمزة فوق الألف والصحيح انها بهمـزة فوق الواو « يقرؤون » وهذا الاختلاف لايؤثر فى النطق ٠

ولم ير عثمان اعادة كتابة المصاحف اطمئنانا الى أن ألسنة العـرب ستتخطى هذا التفاوت الاملائى ٠

الى هنا والخطب سهل ! وقد صدقت الأيـام ظن عثمـان رضى الله عنـه ٠

فالقرآن محفوظ بعنـاية الله ماسـقط منه حـرف ، والتالون له ضابطون لكلماته واحدة واحدة ، وان تمنى البعض لو كتبت كلها وفق قواعد الاملاء ٠

ولا نخوض الآن فى هذا البحث ، وانما ذكرناه لنسـد البـاب فى وجه بعض المفسرين الغافلين ، وبعض رواة الغـرائب السـخيفة دون وعى ، أولئك الذين أعطوا المستشرقين والمبشرين فرصا للنيل منـا ، والافتراء على كتابنا ، وجروا علينا متاعب ماكان أغنانا عنها ٠

والعجب أن أولئك المفسرين والرواة ردوا على مانقلوا وكشفوا بعض فساده ٠

ولكن بعدما أعطوه وجاهة ما ، وتدبر قول الخـازن ــ غفر الله له ولمن خبط مثله ــ فى تفسير قوله تعالى :

﴿لَكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلاةَ وَٱلْمُؤْتُونَ

ٱلزَّكَاةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء : ١٦٢)

قال : « اختلف العلماء فى وجه نصبه ! فحكى عن عائشة وأبان ابن عثمان أنه غلط من الكتاب (!) ينبغى أن يكتب والمقيمون الصلاة (!) وقال عثمان بن عفان : ان فى المصحف لحنا ستقيمه العرب بألسنتها ــ ياغوثاه ــ قيل له : أفلا تغيره ؟ قال : دعوه فانه لايحل حراما ولا يحرم حلالا (!) » ٠

وقبل أن ننقل كلام الخازن فى الرد على هذه الحكاية السخيفة نقول انه غفر الله له ولمن ضل مثل ضلاله ــ أخطأ من عدة وجوه ٠

أ ــ أعطى هذه الرواية قيمة لاتستحق عشر معشارها ، وكان يجب عليه أن يضرب عن ذكرها أو يؤخرها عن مكان الصدارة ٠

ب ــ لم يتثبت من معناها حين نقلها ، فهى على فرض صحتها تتعلق بقواعد الاملاء لا بقواعد الاعراب ، كما شرحنا والفرق بعيد بين اللحن فى اللغة ، وبين تجاوز قاعدة املائية فى الكتابة ٠

جـ ــ من الكذب نسبة حكاية الى عائشة أو غيرها تنال من قداسة القرآن وضبطه كما فعل البعض دون وعى ٠

والمهم أن الخازن بعد أن قال ماقال شرع يناقشه مناقشة علمية « ٠٠٠ أجيب عما روى عن عثمان بأن هذا بعيد جدا لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والفصاحة فكيف يتركون فى كتاب الله لحنا يصلحه غيرهم ؟ ماينبغى أن ينسب هذا اليهم ٠

قال ابن الانبارى ماروى عن عثمان رضى الله عنه لايصح لأنه غير متصل ! ومحال أن يؤخر عثمان رضى الله عنه شيئا فاسدا ليصلحه غيره ولأن القرآن منقول بالتواتر فكيف يقع اللحن فيه ؟ ٠

ان استصحاب هذه المعانى يجعل حكاية اللحن فى القـرآن من أبين الكذب ! بل ان القول باللحن جهل شائن بقواعد اللغـة العربـية ، فان الطلاب فى المدارس يعرفون فى بـاب المفعـول به حـكم « النصب على الاختصـاص » ويستشـهدون على وروده فى الآداب القديمـة بقـول الشـاعر :

لايبعدن قومى الذين هم ... سم العـداة وآفـة الجـزر !
النـازلين بكـل معترك ... والطيبـون معاقـد الأزر !

فهل اذا تحدث جهول باللغة عن وقوع خطأ فى قصيـدة أو مقـالة نصب فيها المفعول على الاختصاص استمعنا الى جهالته ؟ فكيف اذا اتصل الأمر بالقرآن الكريم ؟ ·

المؤسف أن عشقنا للمرويات يغلب أحيانا الحكمة والرشد ، كأن كل سواد فى بياض يجوز أن نكترث به ·

وقرأت لابن كثير رحمه الله تفسيره لقوله تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الأحزاب : ٥٩)

فرأيته ينقل كذلك شائعات علمية لاتثبت على التمحيص ·

وعيب التفسير الأثرى حفاوته أحيانا بالاخبار الواهيـة ، وتركه للتحقيق الفقهى ·

قال غفر الله له : وروى عن سفيان الثورى أنه قال : لا بأس بالنظر الى زينة نساء أهل الذمة (!) وانما نهى عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن واستدل بقوله تعالى :

﴿وَنِسَـآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

نقول : وهذه رواية ساقطة من جهتين ، فان أهل الذمة لهم مالنا وعليهم ماعلينا ، وحرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم ليست موضع ريبة .

ثم ان غض البصر عن زينة النساء يرجع الى تحصين المؤمن وتطهير قلبه كما جاء فى آية الغض : (ذلك أزكى لهم) فكيف بعد ذلك كله ينقل ابن كثير رواية تقول : لا بأس بالنظر ؟ .

وثم خطأ ثان فقد ذكر أن الأمة تنهى عن لبس الجلباب (!) لأن الاماء يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر .. أى أن الأمة التى تريد الاحتشام وستر محاسنها تمنع من ذلك .

فعورة الأمة كعورة الرجل ، وينبغى أن ترتاد الشوارع وتغشى الأسواق وهى متكشفة تقع الأعين على وجهها وصدرها وشعرها دون حرج .

وروى الخازن فى هذا عن أنس بن مالك قال مرت بعمر بن الخطاب جارية متنقبة ، فعلاها بالدرة ! وقال : يالكاع أتتشبهين بالحرائر ؟ ألقى القناع ! ـ النقاب ـ وكلمة لكاع تعنى الازدراء .

وعندى أن هذه الروايات كلها مردودة ، ولا يجوز الالتفات اليها .

وأكتفى فى تزييفها بما قال ابن حزم فى المحلى « .. أما الفرق بين الحرة والأمة ـ فى العورات ـ فدين الله تعالى واحد ! والخلقة والطبيعة واحدة ! كل ذلك فى الحرائر والاماء سواء ! حتى يأتى نص فى الفرق بينهما ، فى شىء ، فيوقف عنده .

قال : فان قيل ان قول الله تعالى :

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ ٱلتَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ

يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ ٱلنِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور : ٣١)

يدل على أن الله تعالى أراد الحرائر قلنا : هذا هو الكذب بلا شك ، لأن البعل فى لغة العرب يتناول السيد والزوج ، وأيضا فالامة قد تتزوج ! وما علمنا قط أن الاماء لايكون لهن آباء وأبناء وأخوال وأعمام كما للحرائر ٠

وقد ذهب بعض من وهل فى قول الله تعالى :

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (الأحزاب : ٥٩)

الى أنه انما أمر الله تعالى بذلك لأن الفساق كانوا يتعرضون للنساء فأمر الحرائر أن يلبسن الجلاليب ، ليعرف الفساق أنهن حرائر فلا يعترضوهن ٠

قال ابن حزم : ونحن نبرأ الى الله من هذا التفسير الفاسد ! فهو اما زلة عالم ووهلة فاضل عاقل ، أو افتراء كاذب فاسق ! لأن فيه أن الله تعالى أطلق الفساق على أعراض اماء المسلمين ! وهذه مصيبة الأبد ٠

وما اختلف اثنان من أهل الاسلام على أن تحريم الزنا بالحرة كتحريمه بالأمة ، وأن الحد على الزانى بالحرة كالحد على الزانى بالأمة لافرق ، وأن التعرض للحرة ـ فى التحريم ـ كالتعرض للأمة ، لافرق ٠

ثم قال ابن حزم ـ وكأنما يشير الى ماروى عن عمر فى نهيه الأمة عن التنقيب ـ قال : لهذا وشبهه وجب ألا يقبل قول أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بأن يسنده اليه عليه السلام » ٠

وأنا أعلم أن هناك من يمقتون ابن حزم ، ولكنى لا أعرف الحق بالرجال ، ولكنى أعرف الرجال بالحق ! وكلام الرجل هنا لاغبار عليه ، وانما الغبار على غيره ٠

ولست أعرف دينا يكره تطلع امرأة الى الاستعفاف والاحتشام ، فكيف ينسب ذلك الى الاسلام ؟ ٠

ومع أن قصة الرقيق قد انتهت بخيرها وشرها ! الا أن الأحداث التاريخية والأحكام الشرعية لها دلالات لاتنتهى ، ومن واجبنا أن ننصف ديننا من القصور الفقهى ، وأن نصحح الأخطاء وان شاعت ٠

وخطأ ثالث وقع فيه امامنا الكبير وهو يفسر آية :

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ (الأحزاب : ٥٩)

فقد نقل عن على بن آبى طلحة عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين اذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة ٠

وهذا كلام مردود من ناحيتى السند والمتن كليهما ! وابن عباس لايجهل ماوقع لأخيه الفضل فى حجة الوداع عندما ثبت بصره على وجه امرأة حسناء ، فأدار الرسول صلى الله عليه وسلم رأسه ولم يقل للمرأة غطى وجهك ، أو أخفى عينا وأظهرى أخرى ، والحديث فى الصحاح ! وهو واحد من نحو عشرة أحاديث صحيحة تفيد سفور الوجه دون اعتراض من أحد ٠٠ ذكرها الألبانى كلها تقريبا فى كتابه الحجاب ٠

وحديث ابن عباس الذى أثبته ابن كثير واهى السند مخالف لما صح ، فهو بتعبير علماء المصطلح منكر ٠

والقرآن الكريم لايفسر بحديث منكر ! ٠

وقد قرأت لأحد الناس كلاما جاء فيه : مايدرينا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر المرأة التى رآها الفضل بن العباس ٠ بالتنقب ، ولكن الرواة لم ينقلوا لنا هذا (!) ٠

وهذا تفكير عاجز ، فان احرام المرأة فى وجهها ـ اذا كانت محرمة ـ ويستحيل أن يقول لها الرسول ذلك كما يستحيل أن يقول لرجل محرم غط رأسك ٠

واذا كانت متحللة من احرامها ، فان تأخير البيان الشرعى عن وقته لايجوز ، وكتمانه من سامعيه خيانة ، ولو فرضنا جدلا أن أولئك السامعين تواصوا بالنسيان ، فهذا حديث من أحاديث كثيرة أقرت السفور ، ولم تطلب من المرأة لاتغطية عين ولا عينين ٠

فى حديث المرأة التى أفهمها النبى صلى الله عليه وسلم أن أكثر مايدخل النساء النار كفران العشير قال الراوى فى صفتها أنها « سفعاء الخدين » أى حمراء الوجه حمرة مشوبة بسمرة ٠

فهل عرف ذلك وهى تخفى عينا وتبدى أخرى ؟ أم كانت المرأة سافرة دون اعتراض ؟ ٠

وعندما يصف النبى صلى الله عليه وسلم امرأة بأنها سفعاء الخدين أتراه كان يصف عورة من العورات يجب تغطيتها ؟ روى أبو داود عن عوف بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة ـ وأومأ بالوسطى والسبابة ـ امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال ، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا » ٠

الواقع أن آية الأحزاب لم تلغ آية النور :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

أَوِ ٱلتَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ ٱلنِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(النور : ٣١)

بل هى مكملة لها ، وهى توجب على النساء اذا خرجن من بيوتهن لأمر ما أن يكن محتشمات سابغات الجلابيب ملتفات بها حتى لايتكشف من أبدانهن قليل ولا كثير ٠

والمرأة فى هذا السمت الكريم تعرف كل من يراها بأنها عفيفة متصونه فتنقطع وساوس الاثم عنها ٠٠ وقد تكون كذلك وهى سافرة أو متنقبة فلا نص فى آية الأحزاب ولا فى آية النور على ضرب النقاب ، والمعروف فى اللغة أن الجلباب هو الثوب الخارجى الذى يشمل ماتحته من ثياب داخلية ، ولا علاقة له بالخمار أو اللثام ٠

وآية النور تستثنى الزينة فى الوجه واليدين من عموم مايجب اخفاؤه من زينة المرأة ، وقد رأيت للشيخ الشنقيطى كلاما يشبه التلاعب بالألفاظ فى تفسير الآية ، يريد أن يقول أن الوجه ذات ، والذات لاتستثنى من العرض ــ الذى هو الزينة ــ أى أن الآية لاتفيد كشف الوجه واليدين ٠

وهذا هو اللعب بالألفاظ فان الزينة المستثناة لاتنفك عن مواضعها من الوجه واليدين ، واظهار هذه الزينات اظهار لمواضعها يقينا ، وعلى هذا جمهور الأئمة ٠

وندع هذه القضية التى يكثر فيها اللجاج ، منبهين الى أن تقاليد المسلمين التى تستحق الاحترام والحفاظ ما اعتمد على المعروف المستيقن من الكتاب والسنة أما الشائعات الرائجة بين الأغمار فلا وزن لها ٠

وهناك شائعة أخرى من اخبث ما انطلق فى آفاق المعرفة الدينية ، وأحقها بالاحتقار ! تلك هى رغبة النبى صلى الله عليه وسلم المفاجئة فى الزواج من زينب بنت جحش كما يرجف الخراصون ! والنبى عليه الصلاة والسلام أبعد العالمين عن هذا التطلع ، ويستحيل أن يمر بخاطره هذا الوهم ٠

والذى يظهر لى أن دسا يهوديا خفيا من وراء هذه الشائعة ، يريد القوم ــ بعدما افتروا على نبى الله داود ــ أن يجعلوا بينه وبين نبينا شبها ٠

وكان هذا الكيد قمينا أن يموت فى مكانه لولا حفاوة بعض الرواة بالغرائب دون وعى ! ولولا أن بعض الكتاب لايبالى بنسبة الأخطاء أو الخطايا الى الكبار كى يعطى العذر لنفسه ولغيره فى ارتكابها ٠

والخلاصة الصحيحة للقصة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب متبناه ــ سابقا ــ زيد بن حارثة ، وكان معجبا بخصائصه النفسية والعقلية ، ويراه سيدا قائدا ، وأهلا للامارة والادارة فى السلم والحرب وقد ولاه قيادة جيش مؤتة وولى ابنه من بعده قيادة الجيش المتوجه الى الرومان ، وذكر أن ذلك عن جدارة لا عن محاباة ٠

ومن اعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد أنه اختار له ابنة عمته زينب ليتزوجها ، وكان يعتقد أن زينب ستكتشف خلال زيد وتستريح اليه وتسعد ٠

ان فؤاد زيد من الملوك ، وان كان قد جيء به رقيقا الى مكة ، مخطوفا من أسرته وبيع كما بيع يوسف الصديق من قبل وذاك لايضيره ٠

لكن زينب قبلت هذا الزواج مرغمة ، كان أملها ، وهى من ذؤابة قريش ، أن تتزوج كفئا لها فى النسب وما عساها تصنع اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضغط عليها وعلى أخيها ؟ ٠

وشعر زيد بأن امرأته تراه دونها ، فثار اباؤه ، واكفهر الجو فى البيت الذى سعى الرسول صلى الله عليه وسلم فى بنائه .

ومع تدخل الرسول عليه الصلاة والسلام الكثير لاصلاح ذات البين ، وحرصه على بقاء الزوجية فان الفجوة لاتزيدها الأيام الا اتساعا .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعجب لنفور زينب من شاب ماجد عظيم ، ويقول : سبحان مقلب القلوب .

وفى ساعة شموخ وغضب طلق زيد امرأته ، واستعلن الفشل الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يداريه .. لقد حار : ماذا يصنع ؟ ثم فوجىء بأن الله يطلب منه أن يتزوج هو نفسه زينب ! وفزع لهذا الطلب وتمثل أمامه كلام الناس وهم يقولون : تزوج محمد امرأة ابنه ـ أى متبناه ـ .

وبدلا من أن ينفذ مراد الله منه تراخى ! بل ذهب الى أبعد من ذلك وقال لزيد : أمسك عليك زوجك واتق الله .. أى راجع زوجتك .

بيد أن الوحى نزل حاسما يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم قبول الأمر الواقع ، واقرار الطلاق الذى تم وتنفيذ الأمر الالهى الذى صدر اليه بالزواج من زينب بعد انقضاء عدتها فلا معنى لاخفائه ولا معنى للوجل من كلام الناس ، فشأن الأنبياء الارتباط بالخالق لا بالخلق نعم مايجوز هذا الاخفاء بعد أن علم مراد الله بوضوح .

ونحن نفهم سر الألم الذى خامر قلب النبى صلى الله عليه وسلم لفشل الزواج الذى أراد به اسعاد زيد ، ونفهم كذلك سر القلق الذى استولى عليه لما صدر اليه الأمر بالتزوج من مطلقة ابنه ـ أو بالتعبير الصحيح متبناه .

وشاء الله أن يتولى هو سبحانه هذا العقد كى يبطل قانون التبنى الذى شاع بين العرب .

وتفسير الايات الواردة فى سورة الأحزاب يتضح كل الاتضاح بعد هذا الشرح .

ولكن بعض المغفلين قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على زينب فجأة وهى عند زيد فأحبها من أول نظرة كما يقول مؤلفو الأغانى ! وقال سبحان مقلب القلوب ! وأن ماكان يخفيه هو التدله فى حبها .

وهذا كلام بادى الكذب والاسفاف ، فان زينب بنت عمة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وكان يعرفها جيدا عندما زوجها زيدا ، فما هذا الحب المفاجىء ؟ انه خيال سمج .

وكلمة سبحان مقلب القلوب قيلت فى التعليق على كره زينب لرجلها الجدير بالقبول ! كما أوضحنا آنفا .

وتسويف الرسول صلى الله عليه وسلم للزواج منها بعد ما طلقها زيد كان كرها لهذا الزواج وخشية من أقاويل الناس ، ولو كان الأمر اليه ماتزوجها قط .

غير أن القضاء الالهى أعلى وأحكم ، فعوتب النبى صلى الله عليه وسلم على تريثه أو تردده .

ونزل قرآن يلومه على ذلك ! قالت عائشة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتم شيئا من الوحى لكتم هذه الايات :

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾

(الأحزاب : ٣٧)

فأين مكان الغرام ، والعشق فى هذا السياق الصارم ؟ .

على أن الله تبارك وتعالى ــ وهو الخبير بالعباد ــ واسى نبيه صلى الله عليه وسلم بعد ما اجتاز هذه المحنة البشرية عظيما جليلا ، فمدحه مدحا لم يذكر مثله فى سورة أخرى فقال له :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى ٱللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ (الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦)

ثم قال فى أعقاب قصة زينب والزواج الذى نقلها بعد الى أمهات المؤمنين :

﴿إِنَّ ٱللهَ ومَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب : ٥٦)

ومع هذه الحقائق العلمية فان بعض الكتابات المعاصرة عن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تتحدث عن عشق أخذ بمجامع القلوب (!) لأن للشائعات ، أو للأساطير المروية سوقا بين أهل الغفلة .

وما أشد مصاب الاسلام من أولئك الرواة البله .

المعالم الأولى في عظمة محمد (صلى الله عليه وسلم)

ملكتنى الدهشة وأنا أقرأ كيف أسلم عكرمة بن أبى جهل وصفوان ابن أمية ، وكيف استقبل النبى الكريم بمشاعر الحفاوة والفرحة هذا الاسلام الذى تأخر كثيرا ، وسبقته عداوات رهيبة .

أما صفوان فأبوه أمية بن خلف الذى تولى تعذيب بلال وكاد يزهق روحه تحت وطأة الصخر واللهب ، والذى لم يدع بابا لايذاء الاسلام ونبيه الا ولجه ! ولذلك لما رآه بلال فى « بدر » أسيرا صاح : أمية رأس الكفر ! لانجوت ان نجا ! وأجهز عليه .

ولم يكن ابنه ـ حتى فتح مكة ـ خيرا منه .

وأما عكرمة فأبوه فرعون الوثنية ، وموقد العداوة والبغضاء ضد عقيدة التوحيد ومعتنقيها ، وقد سماه المسلمون أبا جهل بدل اسمه القديم أبى الحكم لشدة مايلقون من بطشه .

ولم يكن ابنه ـ حتى فتح مكة ـ خيرا منه ! بل ان عكرمة وصفوان وآخرين من ذوى الشراسة والتعصب رفضوا السلام الممنوح لأهل مكة ، وقرروا المقاومة لآخر رمق ٠

فلما يئسوا من النتيجة تركوا جزيرة العرب فارين بكفرهم الى أرض أخرى ٠

ولكن لله قدرا آخر ، وهو أعلم بخلقه ! ان النبى صلى الله عليه وسلم المنتصر لم يكن طالب ثأر ، ولا ناشد قصاص كانت الرغبة المستولية عليه أن يفتح أقفال القلوب ، وأن ينقذ التائهين الحيارى ، وأن يعالج الأخطاء القديمة بالرفق ، وأن يلقى الأحقاد بالعفو ، وأن يحبب الناس فى الاسلام ، وأن تقر عيناه برؤيتهم يدخلون فيه أفرادا أو أفواجا ٠

انه رحمة مهداة ، انه رسول يقود العباد الى ربهم وليس بشرا ينزع الى التسلط والجبروت ، ما انتقم لنفسه قط ، ولا طلب لها علوا فى الأرض ٠

ولنسرد الشواهد على ذلك من أحداث التاريخ ٠٠ جاء عمير بن وهب الى النبى صلى الله عليه وسلم يقول له : يارسول الله ، صفوان بن أمية سيد قومى خرج هاربا ليقذف بنفسه فى البحر وخاف ألا تؤمنه ! فآمنه فداك أبى وأمى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنته٠

لكن صفوان لم يطمئن ، وطلب من عمير علامة تشعره بالأمان ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمير : خذ عمامتى ـ التى كانت على رأسه يوم الفتح ـ فأره اياها ٠

ورجع صفوان ! وحضر معركة حنين مع المسلمين ، ورآه النبى عليه الصلاة والسلام عند توزيع الغنائم يرمق باعجاب واديا مليئا بالابل والغنم ! فقال له النبى الكريم : يعجبك ذلك ؟ قال : نعم ! قال : هو لك٠

فقال صفوان : ماتطيب نفس أحد بمثل هذا العطاء الا نفس نبى « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » ٠

كان الرجل فى ريبة من أمره ، لعله كان يحسب محمدا صلى الله عليه وسلم طالب ملك أو عاشق مال وجاه ! فلما رأى نفس النبى صلى الله عليه وسلم لاتطلع فيها ولا تعلق لها بشىء جل أوهان من هذا الحطام ، أدرك أنها النبوة فأعلن للنور تصديقه بها ٠

يقول بعض المستشرقين : لم لم يعامل زعماء اليهود بهذه السماحة ؟ ونجيب : بأن صفوان وأشباهه كانوا فى عماية من أمرهم ، وما انشرحت صدورهم للايمان الا بعد فترة طويلة أو قصيرة ، أما زعماء اليهود فكانوا يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، ومع ذلك فقد ظاهروا عليه الوثنيين مفضلين الشرك على التوحيد ،ومرجحين مصالحهم الجنسية على الأرض والسماء ، فكيف يترك هؤلاء ؟ ٠

أما قصة ايمان عكرمة فهى أجدر بالتأمل الطويل ، جاءت امرأته « أم حكيم » وكانت قد أسلمت يوم الفتح ــ فقالت : يارسول الله هرب عكرمة ، خائفا أن تقتله فأمنه ! فقال : هو آمن ٠

وأدركت المرأة زوجها عند الساحل ، وقد ركب سفينة يريد الابحار بها بعيدا فنادته قائلة : جئتك من عند أوصل الناس ، وأبر الناس ، وخير الناس ، لاتهلك نفسك ، وعد معى فقد استأمنت لك رسول الله ٠

قال ابن عساكر : فلما دنا من مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمنا ، فلا تسبوا أباه ! فان سب الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت ٠

ولما أقبل عكرمة وثب اليه النبى صلى الله عليه وسلم ، متعجلا ليس عليه رداء ، من فرحه بمقدمه ! وعرض عليه الاسلام ، فقال عكرمة ، والله مادعوت الا الى الحق ، والى كل أمر حسن جميل ، قد كنت والله فينا ــ قبل دعوتك هذه ــ أصدقنا حديثا وأبرنا برا ٠

وأعلن الرجل اسلامه فى مشهد نابض بالصدق ، كاشف عن مستقبل عامر بحب الله ورسوله ٠

وكان مطأطئا رأسه حياء من النبى صلى الله عليه وسلم ! ثم قال : يارسول الله استغفر لى كل عداوة عاديتكها ، أو مركب أوضعت فيه أريد اظهار الشرك والصد عن سبيلك ٠

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم له ٠٠ فقال عكرمة : أما والله لا أدع نفقة كنت أنفقتها فى الصد عن سبيل الله الا أنفقت ضعفها فى سبيل الله ، ولا قتالا قاتلت فى الصد عن سبيل الله الا أبليت ضعفه فى سبيل الله ٠

بهذا الخلق العظيم كان صاحب الرسالة الخاتمة يصنع السلف الأول انه لم يصنعهم على هذا الغرار ليؤمنوا به وحسب ! لا ، انه يريد أن يؤمنوا وأن يحملوا الى غيرهم الايمان وأن يزيحوا من أمامه العوائق ، انهم بناة تاريخ مديد ، ودعائم رسالة تستوعب الزمن كله ٠

ان صحابة محمد صلى الله عليه وسلم تشدهم اليه جاذبية معنوية كهذه الجاذبية المادية التى تربط الشمس بكواكبها وأقمارها ، وتنظم ما أودع الله فيها من طاقة وضوء ٠

فلننظر كيف وفى عكرمة بعهده لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال التاريخ : عندما التقى الروم والعرب فى معركة اليرموك وضع خالد خطته على أن يتحمل قلب الجيش الاسلامى عبء المعركة ، وأن يحتفظ هو بالجناحين ليلتف بهما حول الروم فى الوقت المناسب ٠

والروم أضعاف المسلمين أربع مرات فكيف اذا تصدى لهجمتهم القلب وحده ؟ كان الموقف صعبا جدا ، وتهشمت صفوف أمام وطأة الرومان ، وزلزلت أقدام البعض ٠

وهنا صاح عكرمة : قاتلت رسول الله فى مواطن كثيرة وأفر اليوم ؟ ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فانضم اليه أربعمائة من طلاب الشهادة ، من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعا جراحا ، وقتل منهم خلق كثير ٠

بيد أن قلب الجيش صد الهاجمين حتى مكن خالدا من الاطباق عليهم بجناحيه فهزموا هزيمة محت دولة الروم من الشام كله ٠

ألا ترى التربية النبوية فى موقف عكرمة والرجال الذين آزروه ؟

وانظر أثر هذه التربية فى موقف آخر ، روى الطبرانى أن أبا بكر رضى الله عنه استنفر المسلمين لقتال أهل الردة ، فساروا الى اليمامة وكذابها مسيلمة وكانوا فى منعة وعدد وأهبة ، فهزموا المسلمين ثلاث مرات ٠

فقال ثابت بن قيس ، وسالم مولى أبى حذيفة : ماهكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلا لأنفسهما حفرة فدخلا فيها وكان ثابت يحمل راية المهاجرين، ولم يترك الصاحبان العظيمان مكانهما حتى قتلا فيه ٠

أما عباد بن بشر من الانصار فقد نادى فى قومه : احطموا جفون السيوف ــ اكسروا أغمادها ــ وتميزوا عن الناس ، وأخذ يصيح أخلصونا أخلصونا ٠

فأحاط به أربعمائة من الأنصار مايخالطهم غيرهم ، وزحفوا الى الحديقة التى تحصن بها مسيلمة وأتباعه واقتحموا بابها ، وتتابع أهل الفداء حتى احتلوها ، وقتلوا الكذاب الذى أثار هذه الفتنة ، ثم غسلوا الجزيرة غسلا من كل هذه الاقذار ٠

ان أعدادا كبيرة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ذهبوا شهداء فى معارك الجهاد ضد الوثنيين والكتابيين ، ولكن فناء فى الحق هو عين البقاء ٠

والدارس المحايد يرى آثار النبوة فى شمائل أولئك الرجال الشجعان ، ان محمدا صلى الله عليه وسلم مات يقينا غير أن روحه بقيت يتحرك بها أصحابه فما غرسه فى دمائهم لم يذهب سدى ٠

لقد أشربوا منه حب الله ، وطلب رضاه ، والتمهيد للقائه ،

والشوق الى جنته ، فأقدرتهم هذه العواطف الجياشة على تهديم أسوار الباطل وكانت عالية ٠

وتلاشت امبراطوريات استعصت على الفناء قرونا متطاولة ٠

وتميز أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بأمرين لم يعرفا فى تاريخ النبوات الاولى ٠

لقد نقلوا الوحى السماوى كله فما سقط منه حرف ، ونقلوا السنة المحمدية كذلك ، وربوا من الأتباع من عمل عملهم ، فاذا الاسلام يبقى فى أصوله النظرية مصونا من كل شائبة ٠

وظل هذا التواتر للقرآن الكريم كلمة كلمة ، وللسنة فى الجملة ، فتوفرت للرسالة الخاتمة عناصر الخلود ، وظلت وسوف تظل كلمة الله الأخيرة للخلائق أجمعين حتى انتهاء الدنيا ٠

أما الأمر الآخر ، فان الصحابة رضى الله عنهم هم الذين جعلوا عالمية الرسالة حقيقة واقعة فان النبى عليه الصلاة والسلام لحق بالرفيق الأعلى ودينه لم يتجاوز حدود جزيرة العرب ، وقد علم الاصحاب الكرام أنه مبعوث للعالم كله ، فشرعوا ينساحون فى الأرض مبشرين ومنذرين ٠

ولم يكن الطريق سهلا ، فان رعاع العرب داخل الجزيرة حاولوا اعادة الليل المدبر واحياء الجاهلية المسحوقة ، كما أن مجوس فارس وصليبى الرومان اعترضوا بالعنف مسار الدعوة ٠

غير أن الجيل الذى رباه محمد صلى الله عليه وسلم كان صلب المعدن ، شديد البأس ، جمع بين الصرامة والكرامة ، فلم تلن قناته ، ولم يضرع أمام قوى الباطل ! انه نازلها كلها حتى كسر شوكتها وأسقط دولتها ٠

ان تربية محمد صلى الله عليه وسلم لهذا الجيل معجزته الكبرى بعد القرآن الكريم ، وانى أحس فى أولئك الأصحاب ذوب نفسه عليه الصلاة والسلام ، ونبل شمائله ، وعمق عبادته وحبه الجارف لذات الله واستعلائه الفذ على مآرب الدنيا ٠

وصحبة العظماء نعمة جليلة ، ان ساعة مع جليس صالح تنفحك من خلائقه ماينفحك حامل المسك ، كما ذكر ذلك النبى الكريم ، نعم قد تستفيد فكرة نيرة أو خلة طيبة ، أو قدوة حسنة ذاك فى لقاء عابر ، فكيف اذا طال اللقاء ودامت العشره ؟

ذكر مطعم بن جبير أن قلبه كاد يطير من الرغبة والرهبة والخشوع وهو يسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بسورة الطور فى صلاة المغرب ٠

فكيف بمن صلى وراءه بالقرآن كله آلاف الركعات ؟ وخالطه فى شئون حياته وتقلبه بين الناس ؟ ٠

انه جيل لانظير له فى تاريخ الرسالات ، وتعرف ذلك بالموازنة العادلة ٠

فـ (بطرس) أحد الحواريين الكبار ، وقد صحب عيسى بن مريم طويلا ومع ذلك فعندما تعرض هذا النبى الكريم للاضطهاد ، وشرع خصومه من اليهود والرومان يقاومون تعاليمه بغضب ، وصدرت الأوامر للشرطة بمصادرة النصرانية واعتقال أتباعها وتعرض عيسى لحرج شديد ! ٠٠ فى هذه الآونة ألقى القبض على بطرس وسئل : أتعرف عيسى بن مريم قال : لا ! وأنكر عدة مرات أن ليس له به صلة ٠٠ لقد آثر النجاة بنفسه ٠

اذكر هذا الموقف الغريب واقرأ هذه القصة ، أسر المشركون زيد ابن الدثنة ، وساقوه الى ساحة القتل ، وأحاطوا به فى لحظاته الأخيرة ليشمتوا ويشتفوا ! قال له أبو سفيان ـ والرمح موجه الى بطن زيد ليغرس فى أحشائه ـ أنشدك بالله يازيد أتحب أن محمدا الان عندنا مكانك ، نضرب عنقه ، وأنك سالم فى أهلك ؟ ٠

قال زيد : والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن فى مكانه الذى هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وانى جالس فى أهلى ٠

قال أبو سفيان : مارأيت من الناس أحدا يحب أحدا كما يحب أصحاب محمد محمدا .

وقتل الصحابى الوفى المحب لله ورسوله ، وهو الان يمرح فى بحبوحة الجنة ! جمعنا الله به ، منة وكرما .

الفرق بين بطرس وزيد ، هو الفرق بين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الناس ، انهم طراز آخر من البشرية الزاكية ، ومن ثم قلنا : انهم جزء من حياة محمد صلى الله عليه وسلم وجهاده وزكاته ومجلى لأمجاد انسان ضخم شاء الله أن يخرج العالم على يديه من الظلمات الى النور .

والرجولة الجادة التى تميز بها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حصنت دينه من التحريف ، ان حاخاما مثل شاول تظاهر بالنصرانية ، واستطاع أن يجعل التوحيد تثليثا ، وأعجز الاتباع الذاهلين عن الاحتفاظ بما لديهم فضاع ولم يعثر له على أثر .

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد يئس الشيطان أن يعبد فى أرضهم ، أو يغير كلمة من وحيهم ، كانوا أشداء فى صون الحق ودمغ الباطل ! كانوا تلامذة أذكياء لنبى المرحمة ونبى الملحمة صلى الله عليه وسلم ، بث فيهم روحه فأضحوا وكأنهم صور مصغرة له .

من أجل ذلك غار عليهم ودفع عنهم وحمى أعراضهم ، روى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« **الله الله فى أصحابى ، لاتتخذوهم غرضا بعدى ! فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ! ومن آذاهم فقد آذنى ، ومن آذانى فقد آذى الله ! ومن اذى الله فيوشك أن يأخذه** » .

والتعبير بالايذاء ناضح بفظاعة الجريمة قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ (الأحزاب : ٥٧)

ولست أزعم ولا زعم غيرى أن الصحابة معصومون ولا أنهم فى الفضل سواء ، وانما أقرر أنهم صناعة سماوية عالية ، وقد نجحوا فى تبليغ رسالة غيرت تاريخ العالم ، وأن نظامهم الاخلاقى يضارع فى دقته القوانين العلمية ٠

وأن محمدا صلى الله عليه وسلم لاغير هو الذى قدر ـ بفضل الله ـ على احكام هذا الجيل ، وابداعه على هذا النحو ٠

والآيات الأخيرة من سورة الفتح أوضحت هذه المعانى بايجاز :

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة : ٣٣)

والاظهار المذكور يقوم على البرهان ، وتجلية الحقائق وكشف الشبهات قبل أى شىء آخر ٠

فاذا استنسر الضلال ، واحتقر البرهان قامت الحرب ٠٠

والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا

فالحرب أجدى على الدنيا من السلم !

ثم يقول تبارك اسمه :

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح : ٢٩)

لابد من الشدة فى وجه محاولات التحريف والكيد واذلال الدعاة ! لاعزة للفرعنة والافساد ! من الخير ألا تبقى جراثيم الحميات القاتلة حرة فى الفتك والاغتيال ٠

والى جانب هذا المسلك يجب أن يكون المرء حلو الشمائل دميث الأخلاق مع البرآء ، والاخيار ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها فاذا انتهكت لله حرمة لم يقم لغضبه شىء ٠٠ وكذلك ربى آمته ٠

ويطرد وصف المؤمنين فيقول تعالى :

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الفتح : ٢٩)

الانسان الصادق الشريف تبدو فى أساريره سيماء الصدق والشرف وتنطبع فى وجهه فسحة من أدب وخشوع ، وتدبر قول الشاعر ..

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى ، عصمة للارامل !

وبياض الوجوه وسوادها ليس انتماء الى جنس أبيض أو أسود ، وانما هو نضج الطوايا الطيبة أو الخبيثة ، وما يكسوها من تهلل أو خزى .

والأمة الاسلامية أمة عبادة لله ، ودعوة الى هذه العبادة ، وانشغال بتكاليفها بالغدو والآصال ، وتوكل على الله ، ورجاء فى بره وارتقاب دائم لفضله ورضاه . قال تعالى :

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلإِنْجِيلِ﴾ (الفتح : ٢٩)

لامكان هنا لذكر ماورد من ارهاصات عن النبوة الخاتمة فى الكتب السابقة ، بل نحن لانعول عليها فى شىء ! وانما نتأمل فى ختام الآية ، وكيف بدأت الأمة الاسلامية ضعيفة العود كالنبتة الخضراء الطرية لو داسها حيوان بظلفه لأماتها ، ثم كيف نما هذا الزرع ، وتحولت الساق الغض الى شجرة باسقة وانضم اليها غيرها فاذا الحقل المتموج يتحول الى غابة من الأشجار الباسقة ، لو صعد الرجال على أغصانها لحملتهم .

هكذا كنا وهكذا صرنا « كزرع أخرج شطئه ـ فسائله وسلالاته ـ فآزره ـ انضم الى جواره مثيله ـ فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع » .

فى صحراء الجزيرة المنقطعة عن الحضارات كلها صنع محمد عليه

الصلاة والسلام أمة عجبا ، قال العدو فى وصف مقاتليها : انهم رهبان بالليل فرسان بالنهار ٠

هذه الكلمة تشير الى طبيعة البناء الذى قامت عليه أمتنا ٠

انه من الداخل تعاون على البر والتقوى ، وتآخ فى السراء والضراء ، ومن الخارج رباط مستديم لمؤازرة الخير ومدافعة الشر ٠

وميزة الرسالة التى اضطلعت بها أمتنا أنها لاتسكت عن معروف ولا تسكت على منكر ، وأنها تشتبك باسم الله مع شياطين الانس والجن لتكف بأسهم وتكسر عدوانهم ٠

ولولا ظهور الاسلام لبادت حقائق وفضائل ، ولصارت الانسانية قطيعا آخر من الوحوش الضارية لاتتحرك الا بغرائز السوء ٠

ان الأمة التى رفعت علم التوحيد هى وحدها التى قلمت أظافر القياصرة والأكاسرة والفراعنة ، واحتضنت سواد الجماهير وقال نبيها لمن يريد طلبه :

« **ابغونى فى ضعفائكم فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم** » ٠

ـ رواه الترمذى وغيره ـ

أين هذه الأمة الآن ؟ وأين صوتها فى المجامع العالمية ؟ وأين النماذج التى تقدمها لدينها العظيم ؟ ٠

لا أقدر على الجواب ! اننا نحاول بشق الأنفس جمع الشتات واحياء الموات ٠٠ وما ندرك سهما من نجاح الا اذا أرينا الله من أنفسنا الصدق ٠

الشروق المحمّدي

لا يحجبه دُخان وإن كثرت المداخن

في أقل من ربع قرن كانت الخطة قد وضعت لتغيير مسار العالم ، ورسم أهداف جديدة لحركاته وسكناته ، وكانت نماذج من التنفيذ الدقيق قد تمت على صحراء الجزيرة بين يدى الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ، وتحت اشرافه وتوجيهه ٠

وكما يصنع العلماء مركبة لغزو الفضاء ، ويحكمون آلاتها وصماماتها ومفاتيحها ومغالقها ووقودها وأغذية من بها وتراتيب الذهاب والاياب ثم يطلقونها لتأخذ مدارها المرسوم ، كذلك أعدت الأقدار الأمة العربية لتجديد عقل العالم وضميره ، والعصف بفلسفات وطرائق طائشة فى سياسة النفس والحكم والمال ، وامداد الناس كلهم بدين يحترم الحق وحده ، وينشىء مناهج أخرى تمحض العبادة لله ، وتقيم الحكم على العدل ، وتجعل الأمراء حملة أمانات يسألون عنها فى الدنيا والآخرة ، وتقسم حقوقا معلومة للفقراء فى أموال الأغنياء ، وتقرر الأخوة العامة بين أجناس البشر ٠

أبعاد التغيير ٠٠

ماذا كانت عليه الدنيا بعد بعثة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم ماذا شرعت تستقبله بعد لحاقه بالرفيق الأعلى وانطلاق تلامذته فى العالم يمدون رواق الرحمة المهداة ! ويكسرون القيود التى طالما رسفت فيها الشعوب ؟ ٠

ان النقاد المنصفين والمؤرخين العدول يقررون أنه لم يتح لبشر قبل محمد صلى الله عليه وسلم أو بعده أن أحدث مثل هذا التغيير الشامل فى أحوال العالم أجمع وليس المهم التغيير ! المهم طبيعته ووجهته ! انه بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أخذت الحضارة طريقها صعدا الى

أعلى وكانت من قبل قد أسفت ولصقت بالحضيض ·· لما قرأت كتاب « القمم المائة الأولى » رأيت المؤلف يذكر كأنه مضطر الى جعل محمد صلى الله عليه وسلم أول هذه القمم ، وان لم يكن على دينه ! لأن الدلائل كلها الى جانبه ·· قلت : ان هذا الرجل الذكى لمح أحد جوانب العظمة فى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، انه لمح التغيير الجذرى الذى أحدثه الرسول فى العرب فانطلقوا به ليحدثوا تغييرا جذريا فى آفاق الأرض ، تغييرا ذاهبا الى الطول والعرض والعمق ، تغييرا ان فترت بواعثه حينا أدركها من ذاتها ما تستمر به سائرة ، كما تنطلق المولدات التى تستمد طاقتها من الشمس ·

لكننا نحن المسلمين نرى هذا التغيير أثرا لشىء آخر فى شخصية محمد العظيم صلى الله عليه وسلم انه الاصطفاء الذى هيأ روحه لاستقبال القرآن ، والاصطباغ بتعاليمه ، ثم تحويل هذه التعاليم الى سيرة نابضة وسنة هادية · ان الكمال البشرى الذى صب فى قالبه خاتم الأنبياء يجعل المرء يهتف باعجاب : سبحان من أبدع محمدا صلى الله عليه وسلم ·

حصنته العصمة الالهية :

ما من عظيم الا رأيت فى مسلكه كبوة ، أو فى شمائله جفوة ، أو فى حسامه نبوة الا محمدا صلى الله عليه وسلم فان العصمة الالهية حصنته فما يخبو له سنى أو يلحق خطوه عثار ·· ! وقد يكون الرجل عبقرى الذكاء شفاف الروحانية ، وحسبه أن يحتفظ بوهجه ونقائه فى الجو البارد المعتكر ·· بيد أن الامر بالنسبة الى محمد صلى الله عليه وسلم له صورة أخرى ، انه نفث من روحه النقى وفكره الثاقب فى مردة الصحراء ، وظل يصقل معادنهم بجلد غريب ، وهم يقاومون بعناد رهيب حتى نجح آخر الأمر فى انشاء جيل كان أصلب عودا وأضوأ بصيرة من حواريى عيسى عليه السلام · ان اولئك الحواريين الصالحين عجزوا عن

حماية التوحيد بعد وفاة نبيهم فتحول على مر الأيام الى ثالوث ، أما رجال محمد صلى الله عليه وسلم فقد تحولوا الى حصون سامقة تكسرت أمواج الردة عند أقدامهم ، ثم مضوا قدما الى الأمام يمنعون شعار التوحيد أن تطويه الخرافة .

أترى نفاسة المعدن فى هذا الايمان الصلب ؟ انه مقتبس من عزم محمد صلى الله عليه وسلم ومضائه ! ولايزال هذا الاقتباس متاحا لكل من آمن بالنبى الخاتم واتبع النور الذى أنزل معه ، وذاك بعض أسرار ختم محمد صلى الله عليه وسلم للنبوات ففى سيرته والاقتباس منها مايكفى ويغنى الى آخر الدهر .

فى سورة الفرقان معان تريثت عندها وأدعوا القارئين أن يتريثوا معى ليتدبروها فى الآية الأولى من السورة اعلان من الله تبارك اسمه عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الى العالمين جميعا .

وخلال السياق الطويل نرى الوحى قد ردد الشبهات التى أثارها خصوم الرسالة الخاتمة ، ودحضها دون عناء ! ويخيل الى أن المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم فى الماضى والآتى لن يقولوا أكثر مما قال هؤلاء الذين كشفت السورة صفحتهم وردت تهمتهم .

وهناك سبعة مواضع من السورة تحكى أقاويل الكافرين ، وتعقب عليها بما ينسفها .

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾
(الفرقان : ٤)

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾
(الفرقان : ٥)

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾
(الفرقان ٧)

﴿وقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ (الفرقان ٢١)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ علَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان : ٣٢)

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان : ٤١)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ (الفرقان ٦٠)

مقـــارنة باطلة ..

والاجابة على هذه التساؤلات ميسـورة ، وقد أومـأ اليها الوحى الأعلى فى هذه السورة وفى غيرها من المواطـن التى دحضت شـبهات المعترضين ، لكنى أحب أن أقف أمام الاسئلة الثلاثة الأولى وقفة تفسير وتنديد ! هل صحيح أن محمدا صلى الله عليه وسلم استمد عقيدته فى الله الواحد من العهد القديم ؟ ان العهد القديم نسب الى الله أنه نـدم على خلق آدم ثم ندم على اغراق الأرض بالطوفان ! وماذا يصنع بعد أن تم خلق آدم ؟ فليرض بالواقع المؤسف ! أما اغراق الأرض بطوفان آخر فلا يجوز! وحتى لاينسى ويغرق الأرض مرة أخرى صنع قوس قزح يظهر بألوانه البهيجة بعد المطر فيتذكر الرب ، ويمنع تكرار الطوفان ! هذا هو الاله كما تصفه التوراة ! أما الاله كما يصفه الكتاب الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فهو :

﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً﴾ (الجن : ٢٦)

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود : ١٢٣)

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (الملك : ١٩)

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج : ١٧)

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾
(المؤمنون : ٨٨ ـ ٨٩)

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾
(النمل : ٦٥)

اله محمد صلى الله عليه وسلم القائم على كل نفس بما كسبت ! العالم بما كان ويكون من بدء الخليقة الى يوم يبعثون ! هذا الاله مسروق أو منقول من اله العهد القديم ، الذى لايعى مايفعل ! والذى يندم على ماصنع والذى يحتاج الى مايذكره لأنه ذاهل ؟ .

ان التوراة التى أثبتت هذا اللغو لايعرفها موسى عليه السلام ، لأن موسى كان يعرف الله معرفة حسنة وقد أسند اليه القرآن الكريم هذا الوصف النقى لله سبحانه عندما سأله فرعون :

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾
(طه : ٤٩ ـ ٥٢)

ان الله نزه محمدا صلى الله عليه وسلم عن افتراءات الكذبة ونزه أنبياءه عن ظنون الجهلة والقول بأنه نقل علمه عن العهد القديم كالقول بأن أرسطو نقل فلسفته عن « جارسون » صبى فى احدى الخمارات

بلندن والغريب ان بعض المستشرقين يروجـون لهذه الخـرافة ! لأنهم ليسوا طلاب علم فى واقع الأمر ، وانما هم كهنة يرتدون ثياب البحث العلمى لينفسوا عن ضغائنهم ضد الاسلام ٠

صعاليك الأعـراب ٠٠

ان مايقولون من أن القرآن املاه رجل من أهل الكتاب هو ترديد صغير لما قاله صعاليك الأعراب من قرون وقرون ٠ ما اسـم هذا المملى العبقرى ؟ ومن أين كان يجيء بمعانيه وقضاياه وفصائحه ؟ ولمـاذا لم ينفرد دون محمد صلى الله عليه وسلم بدعوى النبوة ؟ وما سر ملازمته ليلا ونهارا ؟ وهل عجز العرب عن القبض عليه وحرمـان عـدوهم من مصـدر وحيه ؟ ٠

ان القرآن الكريم يذكر هذه التهمـة بغير اكتراث ثم يجيب عليها اجابة جديرة بالتأمل :

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الفرقان : ٥ ، ٦)

ان القرآن الكريم هو الأساس الخلقى والفكرى لصاحب الرسـالة العظمى ٠٠ والجواب المذكور يفيد أن منزله عـالم الأسرار فى العالمين فما العلاقة بين علم أسرار الكون ، والهام آيات الكتاب ؟ ان الكتاب ــ الذى هو معجزة محمد صلى الله عليه وسلم ــ نزل وصافا لآيات الله فى الأنفس والافاق من أزل الدنيا الى أبدها ، فاتحا البصائر عليها لتعرف عظمة الله من دراستها ومطالعتها ، وهو فيما وصف من آيـات كونية ، وفيما سجل من أحداث انسانية يتسم بالصدق المطلق ويستحيل أن يكون فى هذا الكلام السماوى ظل لريبة أو وهم ، ونحن نتحدى ٠

لقد سقطت فى مجال البحث العلمى كتب كان لها قديما قداسة ! وظل القرآن وحده فيما يصف ويروى ينبوعا جياشا بالحق

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾
(فصلت : ٤٢)

وثم جواب آخر ــ ينضم الى هذه الحقيقة ــ ان الاجمال هنا ، ذكر لشىء من التفصيل آخر السورة عند قوله سبحانه :

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً * وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ (الفرقان ٦١ ــ ٦٢)

يعنى أن الذكر والشكر مرتبطان بمر الليل والنهار ، وهما مرتبطان بحركة الشمس والقمر ، والمؤمن لايحيا داخل قوقعة فالعالم أجمع محرابه الذى يعبد الله بالكدح والتأمل فيه ٠

وعندما ألهم الله محمدا صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب كان يعلمه رسالة الانسانية جمعاء بين الأرض والسماء ٠

الشبهة الثالثة ٠٠

وننتقل الى الشبهة الثالثة ! ان الناس يضايقهم أن يكون رسولهم بشرا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ! فما الذى يضايقهم ؟ هل هم يضنون بالرمل على متاعب القضم والهضم وهموم العيش وطلب الرزق ؟ لو كان الأمر كذلك لقلنا رأفة فى نفوسهم يشكرون عليها ، ثم نعرفهم حكمة ماجهلوا ٠

الحقيقة أن هؤلاء المكذبين ، كجميع أصحاب المواهب المتخلفة ، يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ٠

والطعن فى بشرية الرسل شنشنة قديمة كشف عنها قوم نوح عندما قال لهم :

﴿يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون : ٢٣ ـ ٢٥)

فى هذا الرد لجاجة محقورة يغطى بها أصحابها مشاعر النقص والضعة التى تعمل داخل أنفسهم ومن الناس من اذا رأى ميزة رفيعة أعلن الحرب عليها واشتهى دمار صاحبها ! والساقط يسره أن يرى الكل ساقطين .

والواقع أن الناس لايصلح لتربيتهم الا واحد منهم ، يجوع فى أزمات الحصار فيعلمهم التسامى من أجل المعتقد . أو يستعف عن الكسب الحرام وهو يتقلب فى الأسواق فيتعلم الاتباع منه كيف يتجملون فى طلب الرزق ، ماذا يفعله ملك فى هذه الأحوال . ان محمدا صلى الله عليه وسلم صعد بالناس فى درج الكمال مرتبة تلو مرتبة حتى بوأهم الأوج بهذه الانسانية الرفيعة ، هذه حقيقة سيرته .

ان المعترضين القدامى والجدد على صاحب الرسالة الخاتمة يحاولون بأكفهم تغطية الشمس ، ولكن الشروق المحمدى لن يدركه أفول ، ولن تحجبه مداخن تنفث سوادها ، هنا وهناك ، فسوف يغلب الشعاع كل دخان .

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ..

فى يوم عرفة من السنة العاشرة للهجرة كان أكثر من مائة ألف مسلم يحجون مع النبى صلى الله عليه وسلم الحجة التى عرفت فى التاريخ بحجة الوداع ! وأنصت الأصحاب الى خواتيم الوحى الذى وصل جزيرة العرب بالملأ الأعلى وهى تنهى اليهم هذا النبأ المثير :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة : ٣)

لقد تمت الرسالة التى بدأت آياتها تتنزل من ثلاث وعشرين سنة ! نعم ، فعلى بعد عشرين ميلا من عرفة ، كان الوحى يرف على غار حراء بواكيره الندية ، يقول للرسول الخاتم :

﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق : ١)

لقد قرأ وقرأ وظل يقرأ ويقرأ ، وها هو ذا اليوم يسمع أن الختام أوشك وأن الدين اكتمل .

بعد ثلاث وعشرين سنة ليس لها نظائر فى أعمار البشر ، ولا أشباه فى تواريخ الأمم تم نزول الوحى ، وتمت تربية الامة التى ستحمله للعالمين أشرف على صنعها الانسان الذى أفرده القدر بهذه الميزة فلم يشركه فيها واحد من المرسلين .

ألم يلبث نوح عليه السلام تسعة قرون ونصف ليصلح قومه دون جدوى ؟ ألم يخلف موسى عليه السلام فى قومه نحو ثلاثمائة نبى ظلوا كذلك ألف عام ليصلحوا بنى اسرائيل فلما تعذر صلاحهم تحولت رسالات السماء عنهم الى الأبد ؟ .

لكن « محمدا » صلى الله عليه وسلم بعناية الله استطاع أن يغير

الجزيرة العربية تغييرا حاسما ، وخلال ربع قرن أو أقل تبدلت الأرض غير الأرض فاذا البقاع التى غبرت دهرا عطشى الى أثارة من علم تفيض بحضارة موارة بالحياة والعطاء والعدالة والمرحمة ، واذا أبناء البوادى يعلمون أبناء روما وأثينا والمدائن حقوق الانسان ، ومعالم الحضارة ، وضوابط المعـــرفة ٠

ان ما أحدثه نبى القرآن فى دنيا الناس معجزة فوق مايعرف الناس من خوارق العادات ، والمائة الف التى استمعت اليه فى حجة الوداع وهو يهدر بآيات الحق كأنما انسكب فى روعها قبس من هذا الانسان الهادى فاذا هى تتحول الى شهب فى الليل المخيم على الانســانية ، فلا ترى فيهم الا مجاهدا يهوى التضحية ، أو فقيها يهوى المعرفة ، أو ناســكا تزينــه التقوى أو شهيدا يعلم الناس الكبرياء على الدنيا وأهوائها ٠

سبحان الله ، من صب هذه النفوس فى قوالبها الجديدة ؟ ثم نشرها نشرا فى آفاق الدنيا لتسمع الناس الاذان من انفلاق الصبح الى مابعــد الغــروب ٠

انه الانسان المصطفى الذى اكتنفته الأحزان والمتاعب منذ قيل له :

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق : ١)

الى أن تنزل عليه بعد ثلاث وعشرين سنة

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة : ٣)

كان كل يوم من هذه السنين الطوال عمرا كاملا من أعمار الاخرين لما حفل به من شئون وشجون ٠

فى قراءاتى لسير الانبياء قررت أن محمدا أعبد الأولين والاخرين وشرحت ــ فى كتبى ــ كيف أن أديم الارض لم يشهد مثله تاليا للوحى ، قواما به آناء الليل يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه ! ولم يشــهد مثــله

سجادا يستشعر أمجاد الألوهية ويحيى ربه بفنون ناضرة من التسبيح والتحميد ، ولم يشهد مثله منتصبا فى ميادين الجهاد كادحا لاعلاء كلمة الله ، مخليا الطرق من الجبابرة والفتانين ٠

من حب الله والتحاب فيه بدأت قافلة الاسلام مسيرتها ، بدأت أفرادا يعدون على أصابع اليد الواحدة ، ثم أخذت تنمو ببطء شديد ولكنه مطرد موصول الاواصر التى تشدها وتنبع من فؤاد صاحب الرسالة المفعم بالشوق والصدق والتسامى ، ولقد عرف خصوم محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ، واعترفوا بأنه ليس فى الدنيا أحد يحبه صحبه كما يحب أصحاب محمد محمدا ٠

أين ذلك مما رواه الانجيليون أن بطرس فى احدى المحن التى مرت بعيسى بن مريم قبض عليه رجال الشرطة ، وسألوه عن صلته بعيسى فغلبه الخوف على حياته وأنكر أنه يعرفه ، بل أن يؤمن به ٠

فى هذه البيئة الصخرية البالغة الجفاف كانت مشاعر الود والايثار وافتداء الغير ــ لله وحده ــ ومن أجل دينه تتفجر من نبى الاسلام وتضع الأسس لبناء الامة الأمينة على وحى الله ، المسئولة عن حفظه وتبليغه الى آخر الدهر ٠

ولعل ذلك كان السر فى تماسك المسلمين أمام العداوات المرة التى ووجهوا بها فى كل مكان ، كأن شياطين الانس والجن تقاسمت ألا يرتفع للاسلام علم ، وألا ينتظم له صف ٠

أهل الكتاب من يهود ونصارى لايكتمون سخطهم على الدين الجديد وتبرمهم بعقائده وسعيهم فى تخريب مساجده ٠ ! ولقد رأيتهم الى يوم الناس هذا تربد وجوههم عند سماع الأذان ، وتضيق بهم الأرض ٠

ماذا يريدون ؟ اننا لن ندع تكبير الله وتوحيده والاقرار بالجميل للنبى الذى عرفنا هذه الحقائق ٠

وقد سجل القرآن الكريم مشاعر القوم ، ونبهنا الى مايجب بازائها عندما قال :

﴿وَلَن تَرْضَى عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
(البقرة : ١٢٠)

وأما الكافرون وراء دائرة الكتابيين ففى ضلال وسعر ، لايهادنون الاسلام ولا تبرد لهم خصومة ، هم كما قال الله :

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة : ٢١٧)

فى وجه هذه المقاومات العنيدة نشأ الاسلام ، نشأ يقيم الصلوات ويختمها بافشاء السلام يمنة ويسرة ، نشأ يعود أتباعه على القاء السلام فى المجالس والطرق ، لأن السلام تحية المسلمين على امتداد الزمان والمكان .

ومشت قافلة الاسلام بخصائصها النفسية والاجتماعية ،متغلبة على أنواع الحصار التي فرضت عليها ، ومجتذبة بعظمة قائدها كل من فى قلبه بقية من خير أو شرف ، ومتخطية أحقاد الأعداء فما وضعت السيف الا حيث لايجدى الندى ولا ينجع وئام .

وها هى ذى بعد ثلاث وعشرين سنة تحج البيت العتيق بعدما طهرت جوانبه من الأصنام ، وتنصت الى قائدها الجليل وهو يخطبها فى حجة الوداع يزودها بنصائحه ويعلن انتهاء الجاهلية وتقاليدها البالية .. ويطرق آذانها هذا الخبر الالهى الذى له مابعده :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة : ٣)

كيف تم فى هذه الفترة الوجيزة نقل أمة من التعصب الشديد

للباطل الى التعصب الشديد للحق ؟ ان مسافة الخلف بين العرب فى جاهليتهم والعرب بعد اسلامهم بعيدة بعيدة كيف طويت هذه المسافة ؟ مع انعدام وسائل الاعلام الحديثة وطول الشقة بين القلوب والأفكار ؟

ان الشيوعية فى عصرنا مع استعانتها بأحدث ماوصل اليه العلم لم تستطع بعد خمس وستين سنة أن تستقر فى أرضها الا بالأحكام العرفية والقوانين الاستثنائية لان جو الحرية قاتلها يقينا .. أما العرب فان الاسلام غيرهم فى فترة قصيرة ، ثم غيروا العالم بعد ذلك تغييرا جذريا ولم تكن لهذا التحول الشامل أداة الا الأسوة الحسنة. قال مالك بن أنس : بلغنى أن النصارى كانوا اذا رأوا الصحابة رضى الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الحواريين .

والواقع أن الاجهاز على الاستعمار الرومانى ومحو مظالمه وظلماته ماكان يقدر عليه أبدا الا هذا الجيل الذى رباه محمد عليه الصلاة والسلام ، ان القدرة النفسية والعقلية على المحو والاثبات انتقلت من صاحب الرسالة العظمى الى الرجال الذين تبعوه ، فاذا هم يغسلون الأرض من أدرانها لتنشأ عليها أمم من طراز جديد . وقد روى الشيخان حديثا يضرب المثل لهذه القدرة الفائقة فعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يأتى على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس ـ فيقال لهم ـ فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ! فيفتح لهم . ثم يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال : هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله فيقولون نعم : فيفتح لهم . ثم يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال : هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ؟ صلى الله عليه وسلم فيقولون : نعم فيفتح لهم .

والحوار كما قلنا من باب التمثيل ، لابراز القدرات العارمة على التغيير الاجتماعى والسياسى الذى انتقل الى الصحابة والتابعين من حامل الرسالة الخاتمة ، هذا النبى الذى دفع القرون أمامه بعد مانفخ

فيها من روحه ، فاذا اليابس يخضر ، والكدر يصفو ، واذا تراثه في أوائل القرن الخامس عشر لايزال ـ من الناحية النظرية ـ سيد الموقف وان جار عليه الأقربون والابعدون ، وتنكر له كثيرون .

وقد كانت الحكمة القرآنية هي التي تولت صياغة المسلمين على النحو الذي بلغوه ، وأعني بالحكمة الموازين النفسية والفكرية التي ضبطت الفرد والجماعة .

واليك هذا المثال ، بعد صفحتين من الاداب التي انتظمت العقائد والاخلاق تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً * ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الاسراء : ٣٦ ـ ٣٩)

هذه الحكمة التي ألهمها صاحب الرسالة هي التي جعلت أتباعه ربانيين يدخلون البلاد لحساب السماء لا جريا وراء الحطام ، ويحيون لله لا لطبائع الاثرة والاستعلاء .

وقد جاءت الحكمة في سورة الاسراء بعد تفصيل لبعض مفرداتها ولكنها في سورة لقمان جاءت سابقة ثم لحقها التفصيل والايضاح :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾
(لقمان : ١٢)

ثم شرع لقمان يعرض حكمته ويؤدب ابنه ويرفع مستواه .

ومن فقهائنا من يرى الحكمة هي السنة الشريفة ، وربما استأنس

لذلك باقترانها بالكتاب عادة ، ونحن نعرف أن السنة نصف الدين ومجلى العظمة المحمدية بيد اننا لانفسر الحكمة بها ونرى الأليق بالكلمة ماذكرنا ٠

والحكمة فى المصحف الشريف سطور منثورة وعظات حية ، لكنها تتحول من شخص النبى العظيم الى سيرة مرموقة وبطولة معجبة ومنهج دقيق ، ان الفضائل المتجسدة فى سيرة محمد عليه الصلاة والسلام جعلته شمسا لايلحقها أفول ، ومكنت الألوف من الاخذ عنه والاقتباس منه دون زحام ٠

وغريب أن تلتقى فى سيرة هذا الانسان العالى أطراف متباعدة من شئون الناس فيؤديها كلها بدقة لاترى فيها تفاوتا ، انه يعلم امرأة كيف تنقى بدنها ، ويعلم رجلا كيف يرجل شعره ، وفى الوقت نفسه يرسى العلاقات الدولية ، ويخطط للحرب والسلام ٠

والسر فى ذلك أنه ترجمة عملية للقرآن الكريم ، فهو مدد شعوره ولب تفكيره ، وأساس سلوكه ونظام أخلاقه فى البيت والطريق والخلوة والجلوة والصداقة والخصام والقرب والبعد ٠

كان العرب أفرادا مبعثرين لايجمعهم شىء ، وكان تركيبهم النفسى يستعصى على كل رباط ، وقد قال الله فيهم :

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾
(الأنفال : ٦٣)

فما الذى حول الجزيرة الفوضوية الى مستودع رتيب تخرج منه الجيوش موحدة الهوى والهدف ؟ وتنساق الى غاياتها مرصوصة الصفوف تحنى أصلابها فى الصلاة على تكبير واحد ! وتتسابق الى لقاء الله بيقين واحد ؟

ان صاحب الرسالة العظمى بكتابه الكريم هو الذى أتم هذا الاعجاز ٠

بدأت المسيرة بنفر يعدون على الأصابع ، وها هم أولاء فى يـوم عرفة يبلغون عشرين ومائة ألف ·· يسـتعدون لاصـلاح العالم بعدما أصلحوا بلادهم ، ويحسون ان رحلة جديدة توشك أن تبدو فى تاريخهم وهم ينصتون فى خشوع وأدب للوحى الالهى :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة : ٣)

اكتمل الدين ، وتمت النعمة ، وارتضى الله لنا الاسلام دينا ·

أى شرف باذخ عمم القدر به هاماتنا ؟ ·

لقد أصبح الاسلام صبغتنا الثابتة ووظيفتنا العالمية فمن جحد هذا القدر ، وارتخص هذه النعمة فكأنما خر من السـماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ·

لا أزدرى أحدا من الناس كمـا أزدرى امـرأ شرفه الله بالاسـلام فخلع عنه ثوبه ، وترك لواءه ، وقرر السير فى الدنيا عريانا تحت لواء الجاهلية الأولى ·

ماتقول فى عربى يهجر دينه وينسى ربه العظيم ويستقبل فىأرضه هندوكيا يقدس بقرته أو سيخيا يقدم خرافته ، أو يهوديا يعظم أرومته أو صليبيا يوقر ثالوثه ، كل أولئك يغالون بعقائدهم وألسنتهم ·· وهو وحده بارد الأنفاس بازاء مواريثه من دين ولغة ·

ماذا ينتظر هذا الشقى الا البوار والعار ؟ ·

ان المسلمين اذا فقدوا مودة الرحمن لم يبق لهم على ظهـر الأرض صديق ، واذا أضاعوا شرائع الاسلام فلن يكون لهـم من دون الله ولى ولا نصير ·

أقول ذلك والانباء الموجعة تكتنفنا فى الصباح والمساء تحكى كيف يعربد اليهود حولنـا ، وكيف استنسر البغاث بأرضنا ، وكيف تجـرأت

علينا الحالية والعاطلة ، وكيف باءت قضايانا بالخذلان فى محافل العالم الكبرى ؟ ٠

هل توقظنا التجارب اللاذعة فنعود الى الاسلام عودة تزكى السرائر وتبنى الأخلاق وتصلنا بالحكمة القرآنيـة الهـادية ، وتشـعرنا بشرف الانتماء الى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وضرورة العمـل الجـاد برسالته ؟ ان الله بعث من العرب خاتم رسله ، وجعل فى أرضهم قبـلة الصلاة ، وجعل من لغتهم لسان الوحى ، وأودع فى تراثهم السنة المطهرة واستبحارا فقهيا لم يعرف مثيله فى حضارة بشرية ٠

وبعد هذا الانعام الغامر قال للعرب :

﴿فَاذْكُرُونِـي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾
(البقرة : ١٥٢)

فهل نذكر ونشكر ، ونعيد البعث الاسلامى مرة أخرى ليحيى الموات وينشر الأموات ؟ ذاك مايجب علينا فى عيد اكتمال الدين وتمام النعمة ٠

حقـائق عن الهجـرة ..

سألنى طالب علم عن قوله تعالى :

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
(التوبه : ٤٠)

قال : هل نزلت تلك الآية وصفـا لرحـلة الهجـرة وتعقيبـا على

أحداثها : قلت : لا ، انها نزلت بعد الهجرة بتسع سنين استرجاعا لعبر لاتمحوها الأيام ولا الأعوام ·

أما سيل المهاجرين فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بوقفه فى السنة الثامنة بعد أن تم فتح مكة ! وقال :

(لاهجرة بعد الفتح ! ولكن جهاد ونية ! واذا استنفرتم فانفروا) ·
ـ رواه مسلم ـ

يعنى اذا طلبتم لحماية الدعوة ، ونصرة الدولة الاسلامية ، فلبوا ولا تكسلوا ·

قال : فلم التذكير بالهجرة بعد هذا الأمد الطويل ؟ قلت : هذه الآية بعض مانزل فى مقاتلة الرومان الذين اغتالوا الدعاة المسلمين واعترضوا طريقهم وهم يبلغون رسالة التوحيد ·

كان الروم يومئذ يمثلون الدولة الأولى فى العالم ، صحيح أن الفرس ضارعوهم فى القوة ، ونازعوهم السيادة ! غير أن حربا نشبت بين القوتين العظميين انتهت بانهزام الفرس انهزاما ساحقا ، فانفرد الرومان بالسطوة فى أرجاء العالم كله ، وأغراهم ذلك بمطاردة الدعاة الاسلاميين ومنعهم من البلاغ ·

فلما قرر النبى صلى الله عليه وسلم محاربة الروم والتصدى لعدوانهم فزع الكثيرون ! وتثاقلوا عن الخروج ! وقال بعضهم لبعض : أنى لنا مقاومة هذه الدولة العظمى ؟ مالنا قبل بهؤلاء ·

ونزل الوحى الأعلى يقطع دابر الضعف ، ويستأصل روح الهزيمة ويطلب الى المؤمنين أن يسارعوا الى النفير ، وأن يسيروا الى الروم حيث كانوا دون أى تهيب ·

وذكر المتثاقلين عن الجهاد بأن النصر من عند الله وحده ، لاتمنعه قلة عدد أو عدة ·

وساق اليهم درسا من الهجرة النبوية ، وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فرد مستوحش مستضعف فى عرصات مكة خرج مع

صاحبه أبى بكر وآويا الى غار يخفيهما عن أعين المطاردين ، وكان العزاء الوحيد بازاء هؤلاء الاعداء المتربصين « لاتحزن ان الله معنا » ٠

فماذا كانت النتيجة ؟ ان الله لم يخذل من تعلق به واستند اليه ، وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ المدينة ، ويبقى بها سنين معدودة ثم يعود الى مكة فاتحا ، كاسرا دولة الأصنام ورافعا راية الحق ٠

ان الذى دبر هذا الفوز قادر على أن يصنع مثله لدولة فتية ناشئة تشتبك مع أعتى دول الأرض وأوسعها سلطانا ، قادر على أن ينصر المسلمين وهم قلة تعتز بالايمان على الروم وهم كثرة تريد الطغيان بباطلها ٠

المهم أن يتم المسلمون استعدادهم ، ويأخذوا أهبتهم كلها تاركين مايبقى فوق طاقتهم لعون الله ٠

ان الله لاينصر المفرطين ! واذا تكاسلت عن أداء ماعليك وأنت قادر فكيف ترجو من الله أن يساعدك وأنت لم تساعد نفسك ؟

هذا درس من الهجرة يساق الى المتواكلين الذين ينتظرون من الله أن يقدم لهم كل شىء ، وهم لم يقدموا له شيئا ٠

بل لم يقدموا لأنفسهم الا ماتيسر ! فليس لهم طموح أصحاب الهمم وجهاد الحراص على السبق ، وغضب الثائرين على الضيم ، وشوق الراغبين فى الجنة ٠

ومر بخاطرى تساؤل لطيف ؟ لقد نزلت سورة الأنفال فى أعقاب بدر ، ونزل النصف الثانى من سورة آل عمران فى أعقاب أحد ، ونزلت سورة الأحزاب بعد غزوة الخندق ! فلم لم تنزل سورة للهجرة بعد نجاح رحلتها ؟ ٠

والهجرة هى بدء التاريخ الاسلامى والحد الفاصل بين مرحلتين متميزتين فى السيرة النبوية ؟ ٠

وجاء الجواب سهلا ! ان هذه المعارك استغرقت أياما قليلة ، أما

الهجرة فشأن آخر لقد ظلت أفواج المهاجرين متصلة سنين عددا ، وتطلب التعليق عليها مواضع عديدة ٠

ومن ثم ذكرت الهجرة فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة والنحل والحج والممتحنة والتغابن والحشر ٠٠ وكان التعليق فى كل سورة ابرازا لمعنى مقصود ٠

ولاحظت أن سورة النحل مكية ، وقد جاء فيها قوله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل : ٤١ ، ٤٢)

ترى من أولئك المهاجرون ؟ أهم الذين فروا بدينهم الى الحبشة بعدما تعرضوا لارهاب الوثنية الطاغية فى مكة ؟ ربما ٠٠

أم هى ارهاص لانتقال المسلمين الى المدينة كى يقيموا دولة الاسلام بها ؟ ربما ٠

على أن هناك فرقا كبيرا بين الهجرتين ! فالذين ذهبوا الى الحبشة كانت لهم أوبة ، طالت الغربة أم قصرت ، قد يعودون الى مكة أو الى المدينة وفق الظروف التى تواجههم ٠

أما المهاجرون الى المدينة فقد قطعوا صلتهم بالماضى كله ، ونزلوا الى الأبد عن بيوتهم وأموالهم وذكرياتهم فلا عودة أبدا الى شىء منها ٠

لقد تركوها لله ، وربطوا أنفسهم بالوطن الجديد للدين الذى آمنوا به ! وكأن على لسان كل مهاجر قول الشاعر ٠٠

اذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد
اليه بوجه آخر الدهر تقبل !

وكان صاحب الرسالة مثلا أعلى فى الوفاء للبلد الذى أحسن استقباله ، فقد مات فى ترابه ٠

وقبل أن نشرح آيات الهجرة فى بعض السور المدنية نقدم بين يديها جملة من الحقائق التى تغرب عن بال المسلمين المعاصرين ! فالظن السائد بينهم أن المرأة لم تشتغل بالدعوة ولا ذادت عنها ، ولا ضحت فى سبيلها ، وهذا خطأ بعيد ٠

روى أحمد بن حنبل عن أنس رضى الله عنه أن أبا طلحة خطب أم سليم ــ وذاك قبل أن يسلم ــ فقالت له : يا أبا طلحة ! ألست تعلم أن الهك الذى تعبد نبت من الأرض ؟ قال : بلى ! قالت : أفلا تستحى تعبد شجرة ؟ ان أسلمت فانى لا أريد منك صداقا غير الاسلام ٠

قال : حتى أنظر فى أمرى ! فذهب ثم جاء فقال : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ! فقالت لابنها أنس بن مالك : يا أنس زوج أبا طلحة ٠

فزوجها ابنها منه ، وحسن اسلامه ، وقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

ومن الطرائف مارواه مسلم عن هذه السيدة المؤمنة الداعية ٠٠

قال أنس : اتخذت أم سليم يوم حنين خنجرا ، فكان معها ، فرآها أبو طلحة ، فقال : يارسول الله هذه أم سليم معها خنجر ! فقال لها رسول الله : ما هذا الخنجر ؟ فقالت : اتخذته ، ان دنا منى أحد من المشركين بقرت به بطنه ! فجعل رسول الله يضحك ٠

لعمرى ان هذه المرأة أشجع من رجال ! وقد تفقد المسلمة السلاح الذى يسعفها فى أثناء المعركة ، فهل تستسلم ؟ كلا ٠

روى الطبرانى عن مهاجر أن أسماء بنت يزيد بن السكن ــ بنت عم معاذ بن جبل ــ قتلت يوم اليرموك تسعة جنود من الرومان بعمود خيمتها ٠

وأسماء هذه حضرت بيعة العقبة الكبرى مع سيدة أخرى هى نسيبة بنت كعب رضى الله عنهما ٠

هل يفكر المسلمون المعاصرون فى اعـادة التعاليم والتقاليـد التى صنعت هذا الجيل ؟ ٠

والسياق يفرض علينا أن نذكر بيت أبى سلمة حين قرر الهجرة ٠

قالت أم سلمة : لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة رحل لى بعيره ـ وضع الرحل على ظهره ـ ثم حملنى عليه وأخذت ابنى فى حضنى ثم خرج يقود بنا البعير ٠

فلما رآه رجال بنى المغيرة ـ قبيلتها ـ قامـوا اليه فقالـوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ! أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بهـا فى البـلاد ؟ ٠

قالت : ونزعوا خطام البعير من يده وأخذونى منه ! ٠

وعلم بنو عبد الأسد ـ قبيلة أبى سلمة ـ بما كان فقالـوا : والله لانترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا ٠

قالت : فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، ثم انطلق بـه بنو عبد الأسد وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق أبو سلمة وحده الى المدينة ، تاركا زوجته وابنه ٠٠ لايدرى مصير كليهما ٠

وكانت السيدة أم سلمة تخرج كل غداة الى الصحـراء ترمق الأفق وتبكى حتى غبرت عليها سنة وهى تعانى ماتعانى ٠

ورق أهلها آخر الأمر لها بعد أن تشفع لها رجل من بنى عمومتها ، فقالوا لها : الحقى بزوجك ان شئت ، فاستعادت ولدها ، وولت وجههـا شطر المدينة ، وانضمت الى زوجها فى الدفاع عن الاسلام ، بعد رحلة لا مكان لسردها هنا ٠

ماسقناه آنفا من قصص أولئك النسـوة الفضليـات ، المجاهـدات المهاجرات كان تمهيدا لابد منـه قبل شرح آيـات الهجـرة فى سـورتى آل عمران والنساء ٠

ففى السورة الأولى دعا أولو الالباب ربهم هاتفين :

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران : ١٩٣ ـ ١٩٤)

وبعد هذه الضراعة استمع أولو الالباب الى الاجابة !

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (آل عمران : ١٩٥)

تفصيل للنوعين معا ، ان الذكورة والأنوثة هما الاقدام التى تمشى بها الانسانية ، أو الاجنحة التى تعلو بها ، مايستغنى أحدهما عن الاخر

﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
(آل عمران : ١٩٥)

هل ذلك الوعد للرجال وحدهم ؟ كلا ! فان اسلام أبى طلحة بعض حسنات أم سليم التى أوتيت العلم والايمان من قبله ٠

واسلام عكرمة بن أبى جهل ، وجهاده واعتراضه الرومان يوم اليرموك اعتراضا كسر حدتهم ٠٠ ثم استشهاده آخر الأمر كل ذلك يوضع فى كفة حسنات زوجته « أم حكيم » التى أغرته بالاسلام اغراء واجتذبته اليه اجتذابا ٠٠ ولا ينقص ذلك من أجر الشهيد العظيم شيئا ٠

وهل يقل أجر أم سلمة عن أجر زوجها ؟ ان هذه الحقائق التاريخية

ى التى جعلت الوحى الأعلى يفصل عند تقسيم الجزاء ، فيذكر الجنسين معا :

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (آل عمران : ١٩٥)

وما دعانى الى هذا الشرح الا أن بعض الناس يزدرى الأنوثة ، ولا يوارب فى تحقيره لها ، ثم يزعم كاذبا أنه ينفذ تعاليم الاسلام .

ان المرأة العظيمة تعين الرجل على الجهاد وعلى الاستشهاد ، وقد فعلت ذلك أسماء بنت أبى بكر كما فعلت ذلك الخنساء فى معركة القادسية .

والاسلام الذى صنع هذه المواقف قديما قادر على صنعها الان .

وبديه أنه لا كل الرجال ولا كل النساء قادر على تسلق هذه الذرى .

وذلك يعود الى ضعف الأخلاق وقوتها لا الى ذكورة أو أنوثة .

وقد حكى القرآن الكريم قصة رجال تقاعسوا عن الهجرة ، ومالوا الى البقاء مع أهليهم وأولادهم فى مكة ، فلما استعان الاسلام ، والتقوا بالسابقين الأولين عرفوا أنه فاتهم خير كثير ، وفضل عظيم، فندموا على تفريطهم ! وما يجدى ندم .

وفى هذا نزل قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن : ١٤)

روى الترمذى عن ابن عباس أنها نزلت فى رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا الهجرة ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتون النبى صلى الله عليه وسلم .

فلما أتوا رسول الله متأخرين رأوا الناس قد فقهوا فى الدين ! فهموا أن يعاقبوا زوجاتهم على هذا التثبيط .

وهذا ضرب من التنصل مساغ له ، فاللوم مشترك بين الفريقين ·

وقد ذكر القرآن الكريم أن هناك نساء عافت الشرك ، ورفضت البقاء في داره ، وقررت اللحاق بدار الاسلام ، فتركن مكة ، وأزواجهن وهاجرن الى المدينة المنورة ! وفيهن نزل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ (الممتحنة : ١٠)

ان التفاوت بين البشر عظيم ! وصدق شوقي :

« ومن النفوس حرائر واماء »

فاذا انتقلنا الى حديث سورة النساء عن الهجرة وجدنا ملحظا آخر وجدنا الاسلام يحرم الاستخذاء على أمته ، ويحظر عليهم قبول الدنية والاقامة على الضيم ·

فمن سهل عليه الهوان ولان ظهره للاوزار فهو بذلك يرشح نفسه للنار ، وبئس القرار :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (النساء : ٩٧)

والابتلاء قد يكون شديدا على رب الأسرة الذى يسام الخسف لانه أسلم ، ويعجزه عن الانتقال عدد من البنين والبنات يقيدون خطاه ! ويحضر في ذهنه قول الشاعر :

لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض الى بعض !

لكان لي مضطرب واسع ! ... في الأرض ذات الطول والعرض

وانمـا أولادنـا بيننا ٠٠ ! أكبـــادنا تمشى على الأرض !
لو هبت الـريح على بعضهم لامتنعت عينى عـن الغمض !

بيد أن الاسلام ـ مع تقديره لكل المتاعب الانسـانية ـ يأبى على أتباعه كل الاباء أن يرسموا سياستهم القريبة والبعيدة على قبول الواقع السيء ٠

لا ، ان عز عليهم التحول اليوم بيتوا النية لغد ولا يستكينون أبدا ٠

ومن ثم عذر الاسلام أصنافا بأعيانهم ! :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾
(النساء : ٩٨ ـ ٩٩)

فمن وجد حيلة أو سبيلا فلا عذر له ، وعليه أن يشد الرحـال الى المدينة ليدعم دولة الاسلام فيها ، رجلا كان أو امرأة ٠

ان المجتمع لايعدو أن يكون رجلا أو امرأة أو ذريـة ، والـدولة الجديدة تتطلب أولئك جميعا ، فأمـا الذرية فهم الجيـل الناشيء ! هم مستقبل الاسلام ! فليهاجروا مع ذويهم ، وأما الرجال والنسـاء ، فقد صنعوا بعد الهجرة سياجا للايمان احتمى به الدين المطارد من الحاقدين والمتعصبين ، حتى انتصر عليهم آخر الأمر ٠

فى السنة الرابعة من القرن الخامس عشر أرى العواصف العاتيـة تهب بعنف تريد اجتياح الاسلام ، والاتيـان عليه من القواعـد ! فهل نستحضر من معانى الهجـرة مايخـزى أعـداء الله ، ويرد كيـدهم فى نحورهم ! وما يساعدنا على استئناف رسالتنا ، ودعم حضارتنا ؟ ٠

ان الضمير الفردى والـدولى يترنح فى هذه الآونـة الكالحـة من التاريخ ! والدواء عندنا وحدنا ! فهل ننصف أنفسنا وننقذ العالمين ؟ ٠

تأملات وخواطر في مناسك الحج ..

في معركة الخبز التي تسود الأرجاء ، وترهق الأعصاب ! وفي زحام الحياة والناس يلهثون وراء مآربهم القريبة والبعيدة ! كان هناك أشخاص آخرون يخلصون بأنفسهم بعيدا ، ويصغون الى نداء آخر يجيء من وراء القرون ، ويتردد صداه على اختلاف الليل والنهار ! انه نداء قديم جديد ! قديم لأن أبا الانبياء ابراهيم أول من أعلنه ، وصدع بأمر الله حين قال له :

﴿وَأَذِّنْ فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج ٢٧)

وجديد لأن خاتم الانبياء محمد بن عبد الله ندب اليه وقاد قوافله ووضع مناسكه وبين مارصد الله له من جوائز ، وربط به من منافع .. وكان آخر عهده بالجماهير الحاشدة وهي تصيح اليه في حجة الوداع يزودهم بأحر وصاياه ، وأحفلها بالخير والبر .

ان وفود الحجيج وهي تنطلق صوب البيت العتيق مخلفة وراءها مشاغل الدنيا ، وهاتفة بأصوات خاشعة : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك ، ان هذه الوفود تؤكد مايجب على الناس جميعا لله سبحانه وتعالى ، من طاعة مطلقة ، وانقياد تام ، وذكر وشكر ، وتوحيد وتمجيد .

هل العالم يتذوق هذه المعاني ؟ ويستشعر حلاوتها ؟ كلا ، فما أكثر التائهين عن الله ، والمتمردين على حقوقه ! ما أكثر العابدين بغير ماشرع ، والحاكمين بغير ما أنزل ! ان هؤلاء العاصين نغمة شاذة في كون يسبح بحمد ربه :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران : ٨٣)

دع هؤلاء التائهين ، وأرمق الوفود المنطلقة صوب مكة تجأر بالتلبية ، ويسيل بها البر والبحر والجو ! ان جؤارها بالتلبية يصدقه كل شيء فى البر والبحر والجو ! فالملبى حين يرفع عقيرته مناجيا ربه ، ومصدقا أخاه ، ومقررا أشرف حقيقة فى الوجود ، يتجاوب مع الملكوت الساجد طوعا وكرها ! أو يتجاوب معه الملكوت الذى يبارك رحلته ويحترم حجته ٠

وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« **مامن ملب يلبى الا لبى ماعن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا عن يمينه وشماله** »(١) ٠

ماهذا التأويب الذى يصحب سفر الحاج ومتقلبه بالليل والنهار ؟ لقد ذكرت غناء داود بأمجاد الله ، وكيف كانت ترانيمه تملأ الوهاد والنجاد ، وتردد الجبال صداها تكاد ترق لخشوعها ! وتصغى اليها الطير الغاديات الرائحات تكاد تهبط لعذوبتها ٠

يقول الله سبحانه فى ابتهالات داود :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص ١٨ ـ ١٩)

كذلك ترجع الأرض عن يمين وشمال هتاف الحجيج وهم يهتفون من أعماق قلوبهم ٠٠ « **لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك** »

انه هتاف ينفرد به أتباع محمد ، وحملة راية التوحيد ! أما غيرهم فهم بين معطل ومشرك وجاحد منحرف ٠٠ ان لهم هتافا آخر يمثل عبوديتهم للتراب ولما فوق التراب من دنايا وخزعبلات ٠

(١) رواه ابن ماجه والترمذى والبيهقى والحاكم

وبعد أسفار تطول وتقصر يبلغ الحجيج مكة المكرمة ليطوفو بالبيت العتيق ، انه المسجد الذى يستقبلونه فى كل صلاة ، فيرونه ببصائرهم وان لم يروه بأبصارهم ! ولماذا يستقبلونه ؟ لأنه أول بقعة وضعت فى الأرض ليعبد فيها الركع السجود ربهم وحده ، مهده الخليل ابراهيم بعد عراك طويل مع الوثنية المستكبرة العنيدة ! كان ابراهيم رجلا أعظم من ألوف الرجال أعلن الحرب على هذه الحجارة المقدسة ، واشتبك فى خصام مر مع المتعصبين لها وهم كثير ! فى طليعتهم أبوه وقومه ! وأشرف على الموت فى هذا الصراع لولا أن الله أبقاه ليكمل رسالته ·· فلما جاء الى مكة بنى هذا البيت الشامخ ، ودعا أن يحفه الله بالأمان ، حتى لايساور العباد قلق وهم بين يدى الله ! ودعا أن يطهر الله القلوب من ظلال الوثنية ، ودعا أن يكون من ذريته نبى يحرس الوحدانية وينشر العلم والتقوى ، وأن يقود أمة تسلم لله وجهها وتخلص قلبها ·· كيف لايجىء المسلمون هنا وتاريخهم المادى والروحى يرتبط بهذا المكان ، وذكريات الوحى الأول والخاتم ترف فى ربوعه كلها ؟ ·

انهم يجيئون ليترجموا عن وفائهم ويقينهم ، ولتبقى دورات التاريخ متصلة المبنى والمعنى ، لايمر عام الا أقبلت الوفود من كل فج كأنها الحمائم تنطلق الى أوكارها ، يحثها الشوق الى مهاد التوحيد وحصنه ··

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾
(الحج : ٣٢)

وليس للطائفين بالبيت نجوى الا مع الله وحده ، شغلهم الشاغل ترديد الباقيات الصالحات ، والتقدم بضعف العبيد الى القوى الكبير أن يجيب سؤالهم ويحقق رجاءهم ! ماذا يقولون ؟ سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ·· ثم يدعون ··

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة : ٢٠١)

اننـا نهدى هذه الكلمـات الجليـلة ، وهذا الدعـاء الرقيـق الى المستشرقين والمبشرين الذين يشيعون أن المسلمين يعبـدون الكعبـة ! شاهت الوجوه ! وبئسما افتريتم ، ان المسلمين مايعبدون الا الله وحده ويرون مافى الكون من ناطق وصامت عبدا لله وحده • وفى أداء مناسك الحج يقول الله سبحانه :

﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (الحج : ٣٤ ـ ٣٥)

ان الوفود القادمة من القارات الخمس على اختلاف لغاتها وألوانها وأحوالها يجمعها شعور واحد ، وتنتظمها عاطفة دينية مشبوبة ، وهى تترجم عن ذات نفسها بتلبية تهز الأودية ! ويتحـول مـا أضمـرته من اخلاص الى هتاف باسم الله وحده ، لاذكـر هنـا الا لله ! ولا جؤار الا باسمه ! ولا تعظيم الا له ! ولا أمل الا فيه ! ولا تعويل الا عليه •

ان المسافات تقاربت ، بل انعدمت ، بين ذكر لله يمر بالفؤاد كأنه خاطرة عابرة ، وبين ذكر لله يدوى كالرعد القاصف من أفواج تتدافع الى غايتها لاتلوى على شىء ، ولا يعنيها الا اعلان ولائها لله الذى جـاءت لتزور بيته •

لقد رأيت فى العواصم الكبرى مظاهرات تطلب كذا ، وتهتف لكذا أين هذه من تلك ؟ أين الثـرى من الثريا ؟ ان أولئـك الحجيج المكرمين يحيون رب الأرض والسماء ، ويوثقون علاقة العالم بسيده ، ويؤكدون الوظيفة الحقيقية للأنسانية ، وهل خلق الناس الا لعبـادة الله وطلب رضـاه •• ؟

وفى يوم معين من السنة ، ومكـان مخصـوص من الأرض ، تلتقى الوفود المقبلة من المشارق والمغارب ، تلتقى وفود الرحمن فى صحـراء

عرفة ، فى ملابس لاتصلح لخيلاء ولا موضع فيها لزينة أو امتياز، الناس شعث غبر ! تكسوهم سيماء العبودية والتجرد والافتقار الى الله ٠

لقد حطوا الرحال هنا ليتفرغوا لتمجيد الله وتوحيده ، وطلب مغفرته ورحمته ! فى مكان وزمان معينين فرض الله على المسلمين من شاطىء الأطلسى الى شاطىء الهادى أن يتلاقوا هنا ليعلنوا أساس حضارتهم وسياستهم ، انه التوحيد الذى جاهد المرسلون كلهم من أجله ! فلا عجب اذا كان الشعار المرفوع سحابة النهار وزلفا من الليل « لا اله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » العرب والعجم والترك والهنود والزنوج وغيرهم وغيرهم من خلق الله يصرخون بهذا الشعار ! ان الأصنام القديمة سقطت ، بيد أن أصناما أخرى ظهرت وسرقت أفكار الناس ومشاعرهم ، وربما رأيت أفرادا وشعوبا يزحمون أرجاء الدنيا ، ويحيون ويموتون مايرفع أحدهم بصرا الى السماء ، ولا يرفع كف ضراعة الى خالقه ، لأنه لايعرفه ٠٠ ! ان الأمة الاسلامية وحدها هى التى ورثت الحقيقة ، وعرفت العقيدة الصحيحة ، وها هى ذى ترسل وفودها الى الأرض المقدسة معلنة فى المكان والزمان اللذين فرضهما الله ، أنه لا اله الا الله ٠٠ عليها نحيا ، وعليها نموت ، وفى سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله ٠

ويوم عرفة فريد فى معناه ومظهره ، لاتسمع فيه الا تأوهات التائبين ، وأنين الخاشعين ، وضراعة المفتقرين ، انها الانسانية المستجيرة بربها ، النازلة بساحته مؤملة فى خزائن لاتنفد ، وعطف لايغيض ٠

ولقد جاء فى السنة الشريفة ٠٠

« ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى الى السماء الدنيا فيباهى بأهل الأرض أهل السماء ، يقول : انظروا الى عبادى جاءونى شعثا غبرا ضاحين ـ بارزين للشمس ـ جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتى ولم يروا عذابى ٠٠ فلم ير يوم أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة »(١) ٠

(١) رواه أبو يعلى والبزار وابن خزيمة وابن حبان عن جابر رضى الله عنه

وفى حديث آخر :

« مارؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ! لما يرى فيه من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام »(١) .

ان اثراء الجانب الروحى هدف ظاهر من أعمال الحج وأقواله حتى تعود وفود الرحمن جياشة العواطف بحب الله وخشيته ، متآخية على تنفيذ وصاياه واعظام حقوقه .. لكن الجانب السياسى لايمكن اهماله أبدا ، اذ مايصنع الحجيج عندما يعودون الى بلاد اعتدى عليها المجرمون واستباحوا حرماتها ؟ أو عندما يعودون الى بلاد كثرت فيها الفتن وماج خلالها المستضعفون ؟ .

ان الله سبحانه منح الأقوياء المعتدين فرصة التوبة اليه والافراج عن عباده المأسورين ! فاذا أبى أولئك انتهاز الفرصة فما العمل ؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (البروج : ١٠)

من أجل ذلك نزلت سورة براءة ، وشاء الله أن تقرع مسامع الحجاج فى السنة التاسعة للهجرة كى يحددوا موقفهم ممن حاربوا الاسلام وظلموا أمته ودنسوا شعائره ، ولم يحترموا يوما كتابه وسنته لقد قيل لأولئك الحجيج :

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللهِ وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِي ٱلْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة ١ ـ ٢ ـ ٣)

(١) رواه مالك عن أبى الدرداء

نعم لايجوز أن تترك هذه الحشود الهائلة يـوم الحج الأكبـر دون توجيه جامع تلقى به خصومها ٠

صحيح أنهم فى محاريب ذكر ، وساحات تسبيح وتحميد ! وأوقات تبتل الى الله ونشدان لرضاه ! لكن من قال : ان كسر العدو ليس عبادة ؟ والسهر على هزيمتهم ليس تهجدا؟ ان صيحة الله أكبر تفتتح بها الصلاة لينأى بها المؤمن عن مشاغل الدنيا ، ويفتتح بها الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا ، ولتجف بها دموع البائسين وآلام المستضعفين ! ومن هنا نفهم قول الله سبحانه للمحتشدين فى عرفات ، ولمن وراءهم من جماهير المؤمنين فى كل مكان :

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾
(التوبة ١٤ ـ ١٥)

الواقع أن آلام المسلمين قديما وحديثا متشابهة ، والأحداث التى تنزل بهم شرقا وغربا تدل على أفئدة خربة ونفوس مظلمة ! ويجب أن تتوحد جبهة الدفاع بعد أن اتفق المهاجمون على الكيد والتحدى ٠

الحج عبادة تقيمها قلوب ساجدة وأيد مجاهدة ، فهل نحسن الحج ؟ أم نذهب ونعود ونحن لاندرى ؟ ٠

رحلة من العلم إلى الإيمان

العقل المستقيم لابد أن يصل الى الله ، وتفكيره الجيد لن يبعده عن الله أبدا مهما طال المدى ٠

لقد بدأت الدراسات العلمية فى الغرب بعيدة عن الدين ، بل كافرة به ، لأن الدين الذى ورثته يجافى المنطق ، وينأى عن العقل ، فلا غرو اذا بدأ العلم ملحدا ٠

وأخذ العلماء طريقهم فى بحث المادة وخصائصها وقواها ، ينقبون فى فجاج الأرض وآفاق السماء فبوغتوا بما يقودهم قودا الى الله ، ويدلهم على عظمته ومجده ٠

ان الفكر الصائب يستحيل أن يباعد عن الله ! انه يسوق اليه سوقا لطيفا ! لماذا ؟

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود : ٥٦)

اذا كان هدفما على بعد ميل ، فانك بالغه حتما اذا سرت متجها اليه ، المهم أن تسير فى اتجاه صحيح ! ان العوج والشرود لايقرران حقيقة ، ولا يوصلان الى غاية ٠

وقد اختلفت مع بعض أصدقائى فى جملة قضايا جادة ، ولم أغضب منهم مع خطورة الموضوع ، فقال لى أحد الناس : لماذا لم تقاطع أولئك الأصدقاء الشاردين ؟ فقلت انهم أخطأوا مخلصين ، ولهم فكر حسن ، وسوف يقودهم فكرهم السليم الى الحقيقة يوما ما ٠

العقل الجيد مادام يلتزم منهجه فسيعرف ربه ان قريبا وان بعيدا

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود : ٥٦)

وقد قرأت لنفر من أساطين العلم المادى كلمات صادقة فى هذا المجال أنقلها هنا مع تصرف يسير يضبط معناها ٠

يقول الفلكى الانجليزى « سير جيمس جينز » :

(أما الان فالاراء متفقة الى حد كبير ـ فى الجانب الطبيعى من العلم ـ اتفاقا يقارب الاجماع ، على أن نهر المعرفة أخذ يتجه نحو حقيقة غير مادية ، وغير آلية ! وبدأ الكون يلوح أشبه بفكرة عظيمة منه بآلة عظيمة ! ونحن واجدون فى الكون دلائل تنبىء عن وجود قوة مدبرة مسيطرة ، بينها وبين عقولنا الفردية شىء مشترك) ٠

هذا آخر مايمكن أن يقوله عن الله ـ الحى القيوم المحيط المهيمن ـ باحث فى الكون لايعرف الاسلام ٠

كانت بيئة هذا العالم الفلكى تتوارث أن الكون ركمت مادته جزافا بل انها نشأت كذلك ٠٠ فاذا التأمل الطويل يكشف عن قوانين بالغة الدقة ، يشرف عليها عقل فردى واسع الذكاء ٠

ولو عرف هذا الرجل الاسم لقال كلاما آخر يستند الى وحى أعلى وتصور أحكم ! وأنى له أن يعرفه ؟

وهذا باحث مشغول عن اليوم الاخر ، لايفكر فى حياة بعد الموت ، انه « آرثر كومبتون »الحائز على جائزة نوبل فى « فيزياء الذرة » ، وتخصصه لا علاقة له بالروح فان العلم يرى أن المادة وحدها موضوعه ، وأن ما وراءها لايسمى علما ٠٠

يقول ذلك الباحث :

« اننى فى معملى لا أعنى باثبات حقيقة الحياة بعد الموت ٠٠ ولكننى أصادف كل يوم قوى عاقلة تجعلنى أحس ازاءها بأنه يجب على أن أركع احتراما لها » ٠

ان الرجل تروعه حكم شتى تتراءى له وهو يعمل ، متحدثة كلها عن بديع السموات والأرض ، الذى خلق كل شىء بقدر ، وهدى أجزاء الذرة الى الانتظام فى فلكها دون اعوجاج أو استرخاء ٠

انه يرى لزاما عليه أن يركع أمام ذلكم المليك المقتدر ! ولطافة الصنعة تبعث على الدهشة والاعظام ٠

والقرآن الكريم يلفتنا الى ذلك عندما يحدثنا عن اخضرار الأرض السوداء تحت مواقع المطر :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج : ٦٣)

اللطافة والخبرة صفات الخالق العظيم ، وانها لصفات غريبة الآثار عندما تنشىء الحياة وتحيى الموات وتفتق الثرى الهامد عن حبوب وفواكه وخيرات لاحصر لها .. ألا يستحق صاحب هذه الصفات أن نركع له ؟

واللطف فى ذلك الايجاد يعادله اللطف فى تصريف الأقدار بين الناس ، وقد استولى هذا الشعور على فؤاد يوسف الصديق عندما وازن بين ماضيه وهو صبى مختطف رقيق وبين حاضره وهو ملك مهيب عزيز وكيف رتب القدر الأحداث التى تمخضت عن تلك النتائج ؟ فما ملك نفسه أن يقول :

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾
(يوسف : ١٠٠)

الله هو الحقيقة كلها

ان عملنا ــ نحن البشر ــ قليل فى الكون ، أما العمل الأعظم فهو لله الكبير ٠

ماذا صنع الفلاح فى مادة القطن الذى جناه ؟ أو فى جسم التفاحة التى قطفها ؟

ان مالنا فى هذا الحصاد تافه ، أما ما لله فهو الحقيقة كلها ٠

ونحن قد نحسن أو نسىء فى استخدام المفاتيح التى يسرت لنا ، أما الخزائن وما فيها ، بل المفاتيح نفسها فليست من صنعنا ٠

ولست أنا الذى أردد هذه المعانى ، انه « انشتين » أكبر عالم كونى فى الأعصار الحديثة ، فلنسمع اليه وهو يقول : « ان الشعور الدينى الذى يتملك الباحث فى الكون هو أقوى حافز على متابعة البحث العلمى ودينى هو اعجابى ــ فى تواضع ــ بتلك الروح السامية التى لاحد لها ، تلك التى تتراءى فى التفاصيل القليلة الضعيفة العاجزة ٠٠ هو ايمانى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للافهام ٠٠ (ذلك هو فهمى لمعنى الألوهية) » ٠

وهذا العالم الكونى صادق الحس فيما يعبر عنه ، وان جاءت عبارته دون ضوابط النقل التى حفظناها ٠

وحسبه فى أفقه البعيد عن الوحى أن يتذوق هذه المعانى ويجليها ٠

انها المعانى الناضحة من قوله سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الزمر : ٦٢ ــ ٦٣)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

(الأنعام : ٩٥)

وهى المعانى التى لخصها الفلاسفة فى طبيعة العلاقة بين الممكنات كلها وبين واجب الوجود ، فان العوالم كلها ليس لها من ذاتها وجود ، وانما يفاض عليها كيانها الذى تظهر فيه من موجد أعلى ، فلا وجود فى الحقيقة الا منه ٠

وقد يبالغ بعضهم ، أو تغلبه نشوة ايمان رفيع فيقول : لا وجود فى الحقيقة الا له ٠٠ وليس المراد انكار العالم المحسوس ، وانما المراد انكار أى دور ايجابى له فى قصة الحياة ، فهو منفعل لا فاعل ٠

والحقائق الدينية والعلمية والفلسفية تتساوق كلها الى هذا القرار ٠

ومن الخير على أية حال أن نضبط عباراتنا حتى لاتوقع فى لبس ، ومن الخير كذلك أن نحسن ظنوننا حتى لانتهم أولى الألباب ٠

ويمتاز الاسلام بأنه بنى الايمان الوثيق على ملاحظة آيات الله فى الكون وتتبع العلامات التى بثها الله هنا وهناك لتدل عليه وتسوق اليه ٠

وفى تعريف الناس بربهم من خلال هذا المنهج قد ترى تساؤلات مثيرة ، وتقريرات معجبة ٠

وكم أشعر بالرقة والاعظام وأنا أسمع المولى الجليل يحدث عباده عن نفسه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ (الفرقان : ٤٥)

انه استعمل ضمير الغيبة حتى اذا فتح الأجفان المغلقة لتعرفه استعمل ضمير الحضور :

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ (الفرقان : ٤٥ ـ ٤٦)

ويتكرر الأسلوب نفسه بعد قليل :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف : ٥٧)

وملاحظة قيام الله على خلقه وتدبيره لامرهم وهيمنته على أحوالهم هو الطريق الى ولايته واجتبائه ، ولعل ذلك هو الذى جمع بين الآيتين المتعاقبتين فى قوله سبحانه :

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس : ٦١ ـ ٦٢)

نعم وما يكون وليا لله الا الحاضر بقلبه معه تبارك اسمه ، المشاهد لآثار أسمائه وصفاته فى ملكوته .

وعندما ترجع الى شهادات العلماء الكونيين الأجانب التى ذكرناها بين يدى هذا البحث تشعر بأن هؤلاء العلماء لم يسكروا بخمر الهية كما يعبر الصوفيون عندنا ، بل كانوا فى درجة عالية من الصحو العقلى أمكنتهم من رؤية المكون وهم يبحثون فى الكون .

على أن العلم النظرى لايكفى ، ذلك أن الكون مسخر للانسان ولن يكون طوع بنانه الا اذا اكتشف قواه وسننه ، وطوعه لخدمته ، او ـ بالتعبير الأدق ـ لخدمة رسالته التى من أجلها خلق ٠

مفهوم المادة الواسع ٠٠

انه لاتنافى بتة بين استعمار الانسان فى الأرض ، وارتفاقه لخيرها وبين أنه خلق لعبادة الله ٠٠ فليست العبادة انعزالا فى صومعة ، وترك الحياة بعد ذلك تسير كيفما اتفق لها ٠

العبادة أن تعرف ربك من خلال دراستك لكونه الكبير ، ثم تجعل نفسك والكون المسخر لك فى خدمة دين ربك وتثبيت تعاليمه فيما تحت يدك ٠

لاتنافى أبدا بين قوله تعالى :

﴿هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود : ٦١)

وقوله سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(الذاريات : ٥٦)

ومن هنا جاءت السنن تعلم أن الكدح فى الأرض جهاد وأنه يجب المضى فى الزراعة ولو قامت الساعة ٠

ويوجد الان تدين وضيع الرتبة محقور الثمرة ، لأنه مبتوت الصلة بالكون ، بادى العجز فى عرصات الارض ، وهذا الصنف من المتدينين مسخر فى الأرض ، وليس شىء من الارض مسخرا له ٠

وعباد المادة يستطيعون دعم الالحاد بالاقمار المصنوعة ، أما هو فأعجز من أن يدعم ايمانه المزعوم بشىء طائل ، الا العصا التى تساق بها الدواب ، لأنه لايعلو كثيرا عن هذا المنطق ٠

وندع الحديث فى هذا الموضوع لانه ذو شجون وشجونه تنقض الظهر ! بيد أنه لابد من لفت النظر الى أن الهواء النقى لاتفيد منه الا رئة سليمة ، وأن الشعاع المضىء لاتفيد منه الا عين بصيرة، وأن السيادة فى الكون وظيفة لايطيقها المعلولون والمشلولون .

وجمهور كبير من المنتمين الى الدين يحملون جراثيم أمراض مادية وأدبية لاحصر لها ، تجعل انتماءهم الى الدين قليل الجدوى .

وقد قسم علماؤنا النعم الى حسية ومعنوية ، وجعلوا الأخيرة أشرف فالعلم خير من المال والخلق خير من الانحلال وهكذا .

والحق أن الانتفاع من الماديات لايستطيعه الا من له حظ من المعنويات ، وأنه اذا كان لابد من فقد شىء فخسارة بعض الملذات الحسية واجب فى سبيل استكمال المعنويات والحفاظ عليها .

وقد آثر الرجال الصالحون التضحية برغائب كثيرة كى يسلم لهم دينهم وشرفهم .

وقد أنعم الله على العرب حديثا بالنفط ، وأنعم عليهم قديما بالوحى ، فكانت المنة عليهم برسالة السماء أرجح فى موازينهم وأضوأ فى تاريخهم .

أما النفط الذى فجر المال أنهارا تحت أقدامهم فما تتم نعمه الا اذا أحسنوا استغلاله ، ودعموا به القيم وسدوا به الثغر .

العمل لله يسبقه العلم به ..

والناس فى هذه الحياة لاتصح انسانيتهم ولا يحققون الحكمة من ايجادهم الا اذا جعلوا نشاطهم مقسوما بين معاشهم ومعادهم ، وعملوا لله كما يعملون لأنفسهم أو أكثر .

والعمل لله يسبقه العلم به ، والعلم به لايتم تحصيله بترديد أسمائه ألوف المرات كما يوصى البعض ، أو كما يفعلون .

العلم بالله يجيء من تتبع آياته فى الأنفس والآفاق ، ومن الصلاة له فى المراصد ، والمعامل الحافلة بالتجارب والملاحظات ٠

ويسرنى أن بعض المتصوفين قد شرع يدرك هذه الحقائق ! ترى هل وصل بعد قيام القطار ؟ يقول الشيخ بهى الخولى رحمه الله : « **معرفة الله تبدأ من شهود العقل لمعنى (الخالقية) التى تسند وجود الكائنات الى الحق وحده ـ تبارك اسمه ـ فلا يكون فى الكون الا ماهو سلب مطلق ، ليس له من أمر نفسه أو غيره شيء ، وخالق له الايجاب المطلق فى كل شى ٠٠** » ثم تعلو مرتبة المعرفة رويدا رويدا بأن يلحظ الفكر فى الكائنات معنى النفع أو معنى أنها نعمة من المنعم جل شأنه ٠ وفى هذه المرتبة من حسن الصلة بالله يذهب الفكر الى شعاب من النظر تجلو الكثير من الصفات العليا ، والأسماء الحسنى ، ويعظم حظ المرء من الحكمة والمعرفة والعبر ويزدحم ضميره بوجدانات الجلال والجمال ثم يقول رحمه الله : « **ولعلنا ندرك الفرق بين مفهوم النعم الحسية والنعم المعنوية حين نقلب النظر بين هذين النوعين فى قوله تعالى :**

﴿ وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾
(النحل : ٥)

وقوله سبحانه :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران : ١٦٤)

ولسنا نجيز المقارنة بين النظم البلاغى لكلا النصين ، فكلام الله فى درجة سواء من الاعجاز ٠

ولا ندعى أن هناك فرقا بين النوعين فى معنى الانعام ٠ فكلاهما فضل الله ومظهر امتنانه ٠٠ وحسب النعمة شرفا أن يكون المنعم بها هو

الله .. انما نريد الفرق بين الأثر الذى يحدثه كل منهما فى حياة الانسان وضميره » .

ولا ريب أن النبوات أنمى أثرا وأبرك عقبى من الآلاء الأخرى .

والى هذا الملحظ جاء الامر الالهى :

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

(طـه : ١٣١)

ومع ذلك كله فلا نزال نؤكد أن المقارنة هى بين دنيا مقطوعة عن ربها الذى أسداها وبين عبادة تصل المؤمن بربه وتبصره برسالته فى هذى الحياة .

لكن الدنيا التى تكون عونا على الدين ، وسياجا يحميه ليست قسيما يقابل التقوى والاحسان ، بل ان تحصيلها والذود عنها من صميم التقوى والاحسان .

التعليم الأصلى وهل وفى أهله ؟

معاهد التعليم الأصلى ـ كما تسمى فى عصرنا ـ أو الجوامع والمدارس التى احتضنت ثقافتنا الذاتية كلها ، جزء مشرق من تاريخنا وجانب مشمر جليل من حضارتنا ، ورسالتنا الكبرى ٠

بل هى الأساس لوحدة أمتنا على اتساع رقعتها المكانية والزمانية ، فان ماقدمته هذه الجوامع من زاد روحى وفكرى ربط الخلف بالسلف وربط شرق الأمة بغربها وأمحت الفروق بين الاعصار والامصار فاذا المسلمون جميعا يلتفون حول كتاب ربهم وسنة نبيهم ، ويحكمون الارتباط بأخلاقهم وتقاليدهم وأهدافهم ، ويحسنون التفاهم والتعبير العالى بلغتهم وآدابهم ، ويثبتون الملامح الوسيمة لأمتهم ، فهى واضحة الشخصية معروفة الغاية ، مأنوسة الصورة للصديق والعدو على سواء ٠

ولنعد الى الوراء قليلا ، لقد نجح الأتراك منذ خمسة قرون تقريبا فى الاستيلاء على « القسطنطينية » واشتبكوا فى حروب عوان مع الصليبية الغربية ، ومع أنهم عجزوا عن حماية الأندلس فقد استطاعوا وقف الزحوف الصليبية على العالم الاسلامى بضعة قرون ٠٠ لكن الأتراك الذين أصابوا سهما من التوفيق فى سياستهم الخارجية وقدرتهم العسكرية فشلوا فشلا بينا فى سياستهم داخل العالم الاسلامى الذى حكموه دهرا ٠٠ فاذا الحضارة الاسلامية المتفوقة تتراجع ، واذا الثقافة العربية ـ وهى شريان الحياة الاسلامية ـ تذبل ، وتلفت المسلمون من المشارق والمغارب ، فاذا الأزهر ، وبعض المعاهد المشابهة هى التى بقيت وحدها تمد الاسلام والمسلمين برشفات المعرفة التى تحتاج اليها الأمة الكبيرة كى تحيا ٠

والواقع أن الجامع الأزهر هو المستقر الذى أوت اليه علوم الدين

واللغة ، وأضحت القاهرة به العاصمة الثقافية للعالم الاسلامى أجمع . وهرع الطلاب اليه من شواطىء المحيطات الهادى والهندى والاطلسى ·

والى آن طلبت العلم فى الأزهر كان لى زمـلاء من الصين واليابان وأندونسيا شرقا ، ومن المغرب والسنغال والجزائر غربا ·· !

وفى الغارة الصليبية المعاصرة على العالم الاسلامى كان لابـد من وضع خطط خبيثة لانزال الأزهـر عن هذه المكـانة ، ومنـعه من تأدية وظيفته الخطيرة ، وتجفيف الينبوع الذى يستقى منه المشارقةوالمغاربة أصول دينهم ومعالم وحدتهم وعناصر وجودهم المادى والأدبى ، وبذلك يمكن الاجهاز على أمة أحاطت بها الذئاب ·

ونحن نعتقد أن القرآن باق مابقيت الحياة على هذا الكوكب ! وأن المسلمين باقون مابقى القرآن ! وأن الأزهر باق ماظل ولاؤه للاسلام حيا وجهاده له قويا ·· !

ولنقل فى صراحة : ان الاستعمار العـالمى لايسـوءه أن ينبغ فى القاهرة طبيب يسبق زملاءه فى مستشفيات لندن أو موسكو مادام هذا الطبيب ملحدا أو مقطوع الصلة بالاسلام ، فالعبقرى الملحـد يمكن أن يعمل تحت أى راية ، وأن يستأجر فى أى ميدان ، انه كالجندى المرتزق يشترى بالثمن الغالى أو بالبخس ·

ومن ثم فالجامعات المدنية البحتة لاتخيف الاستعمار ، بل قد يعينها ويشجعها ! ان الاستعمار يخاصم بعنف كل عمـل له صبغة اسـلامية ، ويشتد غضبه اذا رأى الثقافة الاسلامية تملك زمام التوجيـه ، أو رأى الأزهر يخرج علماء أوفياء لدينـهم ، مشربين روحـه ، متابعين فتوحه العقلية والأدبية ·

وهذا الموقف الحقود يفرض علينـا مزيدا من الحـذر فى حمـاية أنفسنا وتحصين قلاعنا واكتشاف مايبيت لحاضرنا ومستقبلنا، ويفرض علينا قبل ذلك كله أن نصحح أخطاءنا ونسد الثغور التى اقتحمنا منها ، وتسلل العدو منها الى حمانا ·

ان التعليم الأصلى فى صدر الاسلام ـ ولم يكن ثم غيره ـ لبى حاجات الامة التربوية والتشريعية والأدبية ، وقدر قدرة تامة على تكوين أجيال ناضجة ، وجعل المسلمين ـ عالميا ـ أمة تعطى أكثر مما تأخذ ، بل جعلها تدفع ولا تندفع ، وتغزو ولا تغزى نعم كان المسلمون يزدهارهم العلمى الأمة الأولى فى العالم ٠٠ !

ثم حدثت بعد ذلك أمور ليس هنا مكان متابعتها ، فلنقفز قفزة واسعة لنرى هذا التعليم من نصف قرن فقط ٠

وسأجعل نفسى ومراحل دراستى منطلق التعليق الذى لابد منه ! فى الصف الثانى من المرحلة الابتدائية درسنا تاريخ الدولة العثمانية حسنا ، ان دراسة أى شعب اسلامى أمر واجب ، فالمسلمون أمة واحدة غير أنى أتممت دراستى الأزهرية التى استغرقت خمسة عشر عاما ، دون أن أدرس حرفا عن المسلمين جنوب شرق آسيا وجنوب آسيا نفسها ، وشمال افريقيا وغربها فى العصر الحديث ! ٠

لم نعرف حرفا عن الاستعمار الهولندى لجزر أندونسيا ولا الاسبانى لجزر سولو ومندناو وسائر الجزر التى سميت بعد « الفلبين » لم نعرف كيف استعمر الفرنسيون الهند الصينية ولا ماحدث للمسلمين فى فطانى والملايو وسنغافورة ٠٠ الخ ٠

وما يقال عن هؤلاء يقال مثله عن جهلنا المطبق بمسلمى التركستان الصينية والروسية وبقية الشعوب الاسلامية التى ابتلعها التنين الروسى ٠

أما القارة السوداء ، والاسلام هو الدين الأول فى أقطارها فالوضع أدهى وأمر ، وقد انشئت فيها الآن خمسون دولة وزع المسلمون عليها بخطة بالغة الخبث كى يذوبوا على عجل أو على مكث ! المهم أن يذوبوا على مر الايام ٠

لقد تبين لى أن دراستنا للتاريخ الاسلامى ضحلة ، وأن دراستنا للتاريخ الانسانى فوق الصفر بقليل ٠

كيف هذا ؟ ان رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للقارات كلها . فكيف نجهل هذه القارات ولا نعرف مايعمرها من أجناس ومذاهب وفلسفات ؟ ولماذا نلوك بألسنتنا أن رسالتنا عالمية ، دون أى سعى للاتصال بهذا العالم الرحب ؟ ولماذا انتظرنا حتى اكتشف غيرنا الأمريكتين واستراليا ووضع عليها طابعه المادى والأدبى ، ثم جاء يطرق أبوابنا وهو يجرر أذياله خيلاء واستعلاء ليعلمنا مالم نكن نعلم ؟

ان القرآن الكريم يجعل السياحة من خلال الفضل ، ويجعل دراسة التاريخ كله من مكونات العقل ! ·

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾
(السجدة : ٢٦)

الحق أن المشرفين على التعليم الأصلى من أمد طويل فرطوا فى حقوق الأخوة الاسلامية حين فرطوا فى دراسة الأجناس التى اعتنقت الاسلام ، وعموا عن قضاياها المصيرية ، ونسوها على هذا النحو الشائن ·

وأساءوا الى عالمية الرسالة المحمدية حين انطووا على أنفسهم وانشغلوا بمشكلاتهم تافهة كانت أو جليلة ، فكانت عقباهم هذا البلاء الذى نزل بهم من كلاب الأرض وذئابها ·

وقفت ــ وأنا أزور البحرين ــ أمام بقايا قلعة برتغالية لاتزال جاثمة على أرضنا ، وغصت فى أعماقى أنبش معلوماتى التاريخية ، متى وصل القراصنة هنا ؟ ولم أستطع الاجابة ! وسكت وأنا محزون ·

ولأترك تقصيرنا فى دراسة التاريخ الاسلامى ، وتقصيرنا فى الالمام بمعالم تاريخ الانسانية قديما وحديثا ، ولأنتقل الى موضوع آخر ان التشريع الاسلامى أنفس مواريثنا الحضارية ·

والقانون الرومانى اذا قيس بفقهنا الرحب كان كالكوم التافه الى جوار جبل أشم ٠

وعلم أصول الفقه هو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق آية العبقرية العربية وهو أدل على فكرنا وأصالة بحثنا من الفلسفة الاسلامية لأنه نتاج اسلامى خالص رائع ٠

غير أن علم الأصول فى دراساتنا الأخيرة أمسى علما أثريا هامدا يحفل بالأقوال والمناقشات الحرفية ، ولا صلة له بتشريع خاص أو عام ، وقد جدد الشاطبى منهجه فى الموافقات ، كما أن لبعض المذاهب الفقهية قواعد أصولية جديرة بالحفاوة ! ولكن ذلك كله مهجور فى دراستنا ٠

والمادة العلمية لاتعدو التلخيص أو التمطيط ، والاطلاع النظرى على مخلفات الماضين ٠

أما الفقه الاسلامى الذى استبحر قديما وحكم العلاقات الدولية كما حكم الروابط العائلية فهو يحيا الان على هامش المجتمع الاسلامى ريثما يتم رميه بعد حين فى سلال المهملات ٠

فقه لايستفتى فى الشئون العمالية أو الدستورية أو الدولية ، وقد يسمع قوله أحيانا فى بعض الشئون ، أو لايسمع ٠

ورجال التعليم الأصلى مسئولون عن هذا المصير الكابى ، فنحن ندرس الفقه على نحو عقيم أو قليل الجدوى ، وأذكر أنى فى الحادية عشرة من عمرى بدأت أدرس فقه العبادات على المذهب الحنفى وكان زملائى الآخرون يدرسونه على مذاهب أخرى ٠

وفى ظنى أن الفقه المذهبى نوع من التخصص العلمى ، التخصص المبكر الذى لا معنى له ٠

ووددت لو تعلمنا العبادات من خلاصات سهلة من الكتاب والسنة ثم بعد فترة نتوزع على الفقه المذهبى ، ولا بأس أن يدرس الطالب أكثر من مذهب فقهى اذا كان سيتجه الى هذا الميدان ٠

ويجب أن تدرس المذاهب على أنها وجهات نظر متساوية القيمة وأن تناقش الأدلة وتوزن الاتجاهات بحياد علمى وصدر مفتوح لا مكان فيه للخصومة والجفاء وتفريق الأمة ٠

وأرى أن يوضع حد للتقطع القائم بين آراء الفقهاء الكبار ، وأن يدرس الأزهر ابن تيمية ، وابن حزم وغيرهما الى جانب الأئمة الاربعة اننا نواجه طوفانا من الأفكار والموازين الشائعة للحقوق والمصالح ولا مساغ لمقابلة هذا الطوفان بفكر اسلامى واحد ، بل يجب أن يقابل بجميع المدارس الفقهية عندنا ٠

ثم ان الخلود لكتاب الله وسنة رسوله لا لاجتهاد بشر ، ويعنى هذا الا نتحرج من وزن الاجتهادات القديمة وأن ننفض يدنا من بعضها اذا بدا ألا مجال لبقائه ٠

ألا ترى ابن تيمية عد الطلاق الثلاث واحدا ، لما رأى أن اجتهاد عمر فى امضائه ثلاثا أدى الى نتائج سيئة ؟ لقد عاد به الى الأصل على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر ٠٠

وهناك اجتهادات كثيرة ينبغى أن يتوفر الراسخون فى العلم على وزنها واعادة تقويمها حتى لايجىء امرؤ يخدم الاستبداد السياسى بدعوى أن الشورى لاتلزم حاكما ٠ ٠ مثلا ٠ ٠ والقضايا الاجتهادية كثيرة ، وقد نستبدل اجتهادا باجتهاد ، أو نأتى بجديد تحتاج اليه الأمة وتقره النصوص والقواعد ٠

وأحسب أن فقه العبادات سوف يبقى على حاله أما الفقه الادارى والدستورى والدولى فان تياراته الراكدة يجب أن تتحرك ، وأرى لفيفا من المسئولين عن التعليم الأصلى كانوا باسترخائهم وتقاعسهم سببا فى انهزام الشريعة وهجوم قوانين دخيلة على دار الاسلام ، أى أننا أزرينا بأفضل مواريثنا ، ومكنا لتشريعات وضعية معيبة أن تتسلل وتحتل أرجاء المجتمع ، مع الغنى التام عنها ٠

وأعود الى ذكريات تعليمنا الثانوى ، كانت الشهادة الثانوية قسمين أولا وثانيا ، وكان مفروضا فى القسم الأول أن ننال من علوم الكون والحياة والرياضة ماينالـه زملاؤنا من طلاب التعليم المدنى ، لانقل عنهم الا معرفة اللغات ٠

ثم شكا بعض قصار الباع من هذا الوضع فاذا لجنة تتكون لتحذف كثيرا من علوم الأحياء والرياضة والطبيعة والكيمياء بحجة ضعف الطلاب فى العلوم الأصلية ! والحجة مفتعلة ! وقد نشأ عن هذا الحذف تخرج علماء لايدرون من العلوم المهمة الا فتاتا خفيف الوزن ٠

وأحب أن أنبه الى أن كل قصور فى العلوم المدنية لايزيد دارسى الدين الا خبالا ، ان الاسلام دين لاترسخ قواعده ولا تنضج معارفه الا فى جو علمى واسع الآفاق ، ولا أدرى كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما ٠٠

اننى شعرت بخجل حين استبعد عالم دينى الوصول الى القمر ، وقال فى التعليق على ما أذيع : انه خبر آحاد ! وشعرت بخجل أشد عندما ألف بعض المنسوبين الى العلم الدينى ، بل البارزين فيه كتابا ينكر فيه دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وساق آيات من الكتاب لم يفهمها ليدعم رأيه ٠

ان عقيدة التوحيد تضار حين يعرضها أولئك القاصرون ! وهم معذورون لأنهم لم يعرفوا من العلوم الكونية شيئا ، وجل مايحفظون مرويات تتضمن الغث والثمين ، وتعرقل سير الدعوة بل تلقى ظلمات على الفكر الدينى كله ٠

والواقع أن تكوين العقل الدينى لايتم اذا كان فى عزلة عن الاستبحار العلمى الحديث ، وأهل الذكر لاتستقيم لهم فتوى اذا كانت معرفتهم بالحياة لاتعدو الابجديات القديمة ٠

وأرى ضرورة تنظيم محاضرات فلكية وطبية وجغرافيةوجيولوجية

وفيزيائية وكيمائية ·· الخ على المشتغلين بالعلم الدينى حتى بعد تخرجهم ، فان التخلف فى هذا المضمار مصيبة ·

ونلاحظ أن هناك وحشة بازاء عدد من العلوم الانسانية مثل علم النفس والتربية والأخلاق والاجتماع ·· الخ ·

والواجب أن تدرس هذه العلوم وان توضع فى اطار اسلامى صلب ·

وعندى أننا لو غربلنا التراث الصوفى وقدرنا جهود ابن القيم وابن الجوزى والغزالى وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر فى مجال الخلق والتربية والسلوك ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الانسانية فى قالب اسلامى جميل ونافع ·

لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوف علما ، وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار شيوخ لايحسنون التربية والقيادة ، بيد أن هؤلاء القاصرين كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهين فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها ·

فالى متى يبقى هذا الموقف الرافض ؟ وماذا كسبنا منه ؟ ·

كسبنا أن الدين عند العوام وأشباههم جملة من الاحكام الجزئية ، والمعارف المبتورة ، من ورائها طباع لم تهذب ، واهواء قد تعلن عن نفسها بمكر فى صور الطاعات وقشور العبادات ، أما الضمير فميت !

ان الدين يفقد جوهره حين تهى علاقته بالقلب ، وعلم القلوب أو علم السلوك وجد فى التصوف الاسلامى خواطره ومراحله ، والمهم هو ضبطها بتعاليم الشريعة ، ومنع العواطف السائلة الرجراجة من الانطلاق دون حدود ·

وانه لمما يعين على ادراك هذا الهدف الاستعانة بالعلوم الانسانية خصوصا بعدما هجرت منهجها الفلسفى وخطت لها مجرى علميا يحترم الحقيقة ويلتزم بها ·

والعلماء فى هذا المجال ليسوا سواء ، ففيهم المخطىء والمصيب ، بل فيهم المؤمن والكافر ، فلنغص معهم فى أغوار النفس ولنتقلب معهم فى أرجاء المجتمع ، ولنكتشف معهم اسرار البشرية ثم لدينا بعد ذلك كله مهاد من حقائق ديننا نستطيع معه أن نبنى ونعلى البناء ٠

من حسن حظنا أننا نشأنا فى غمار يقظة للغة العربية وقواعدها وآدابها ، وفى أيام كان الخطأ فى اللغة يعد نقيصة ، والبيان الردىء يحسب عجزا ، ورزقت اللغة بشعراء فحول وكتاب عباقرة ، حتى ليمكن القول ان هذه اليقظة عوضت ما أصابنا من جمود طوال العصر التركى ، وردت للفتنا شبابا لم تعرفه الا فى أيام الأمويين والعباسيين ٠

ولا ريب أن الاستعمار العالمى انتابه قلق بالغ لهذا الازدهار فهو يبغى القضاء على اللغة العربية تمهيدا لردم ينابيع الاسلام الثقافية ، وجعله رفاتا لاحياة فيه ٠

وقد بلغ الاستعمار كثيرا من أهدافه فى ضرب الشعر والنثر وقواعد النطق ولون الأداء ، وذهب سعد زغلول الذى لايقع فى خطابته السياسية لحن ولا اسفاف ! وذهبت المدرسة التى ألفها وجاء أغيلمة يخطبون بالعامية فتسمع لهم بغاما مؤذيا ، ورطانات قبيحة ٠

وكان المفروض أن يتحرك رجال التعليم الأصلى لحماية اللغة والدين والدفاع عن العلم والأدب ، واستنقاذ التراث الروحى والعقلى من هذا الطنين السخيف ! بيد أن الألسنة خرست لغير سبب ٠

ومن ثم تتابعت الهزائم على لغتنا فى كل ميدان ٠

والذى أنبه اليه أن الأزهر يجب أن يستيقظ ويوقظ التعصب للغة العربية ، ويستعجل كل مايوفر لها الحماية ، ويتعاون مع المؤسسات الفنية لمواجهة التخلف الرهيب فى مصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة ، ويبنى حصونا جديدة تحرس لغة التخاطب من لهجات الرعاع ، ومواريثنا الأدبية من فوضى التغريب والتقليد الأعمى ٠

ان الجرأة على اللغة العربية وصلت الى حد الفحش ، والسكوت على هذا الوضع طريق الى الارتداد عن دين الله ٠

لقد وقعت ــ فى ميدان التعليم الأصلى ــ هنات وهنات ، ثم ظلت تنميها وتزيدها سنون كالحات فماذا كان ؟

كان أن فقد هذا التعليم تلبيته لمطالب الاسلام ، وحاجات الأمم ولم تعد له هيمنة على الحياة العامة ، بل عجز عن التماسك أمام زحف التعليم المدنى القادم فى موكب الاستعمار ٠

ونحن نأبى أن نفرط فى هذا التعليم لأن التفريط معناه الانتحار ونريد أن نوفر له أسباب العافية والاكتمال حتى يؤدى رسالته العتيدة ، ويستحيل أن ينقه هذا التعليم مما عراه الا أن يعود كما كان صورة سليمة وسيمة لتعاليم الاسلام فى كل مجال ٠

كنت أقرأ مذكرات تقدم آيات الأحكام لاحدى كليات الشريعة فى العالم الاسلامى ، فوجدت الكاتب الفاضل يفسر آية قوامة الرجل على المرأة فيقول : « دلت الآية على أمور (١) تفضيل الرجل على المرأة فى المنزلة والشرف (٢) أن للزوج تأديب زوجته ومنعها من الخروج (٣) أن له حق الحجر على زوجته فى مالها فلا تتصرف فيه الا باذنه ٠٠ والمالكية يقولون بهذا المبدأ ٠٠ الخ » ٠

قلت : فى هذه الكلمات عوج يتصل بالموضوع والعبارة وما يسوغ عرضه على هذا النحو فان الأخطاء كثيرة ٠٠ !

ومنذ أيام سمعت فتوى بأن المرأة يحرم عليها أن تقود سيارة فقلت : ماعلاقة ذلك بأحكام الحلال والحرام ! ان عرض الاسلام فى قضايا المرأة من خلال هذه الأفهام المستغربة يهز أركان التعليم الأصلى من الأسس ٠

ان سلفنا عرضوا الاسلام من مصادر نقية ذكية ، وجعلوا ثقافته ترجح غيرها بالفقه الواعى فى شتى الميادين ٠

فهل يستيقظ رعاة التعليم الدينى قبل أن يفوت الأوان ؟ ٠

أسرار وراء تخلفنا ..

بدأت صناعة الطيران فى مصر والهند فى سنة واحدة ، كما بدأت بحوث الذرة تقريبا فى السنة نفسها وأكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم ، والاستفادة من التقدم الأوروبى فى هذا المجال ٠

وبعد ربع قرن نجح الهنود فى انتاج طائرة هندية ، كما نجحوا فى صنع قنبلة ذرية ! ٠

أما عندنا فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات معدودة ، وتجمد العمل فى وكالة الطاقة الذرية ، والى الان لم نخط الى الأمام خطوة مقدورة ! ٠

ماسبب هذا الفشل ؟ هل العقل الهندى أذكى من العقل المصرى ؟ لم يقل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين ! ٠

السبب أن استقرار الحريات فى الهند أتاح لكل ذى كفاية أن يعمل وأن ينجح ٠٠ وأن النظام الديمقراطى السائد أقام سباقا لاحواجز فيه بين أصحاب المواهب ، فانطلقوا بين عوامل التقدير والتشجيع يخدمون أمتهم ويتبارون فى اعلاء شأنها ٠

والنظام الديمقراطى فى الهند « المتخلفة » جعل الحكومة المستولية على السلطة تجرى الانتخابات ، فتسقط فيها ، وتأتى بالسيدة المعارضة « أنديرا غاندى » لتحكم ، وكذلك يتكرر الأمر مع السيدة نفسها فتضع مقاليد الحكم فى أيد أخرى لأن الأمة رأت ذلك ٠

ان امرأة تحكم ومعها جهاز شورى دقيق أقرب الى الله ، وأحنى على الناس من مستبد يقف الغراب على شواربه ، ويزعم أنه أحاط بكل شىء علما ، وهو لايدرى شيئا ٠

لقد وصف القرآن الكريم المرأة التى حكمت فى نطاق الشورى ، وسجل كلمتها لقومها :

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (النمل : ٣٢)

انها تستفيد من كل خبرة ، وتناقش القضايا على رءوس الأشهاد لا بالهمس الجانبى والتآمر المريب ٠

وبهذا المسلك لاتقبر فكرة ، ولا يتوارى رأى ، بل تستفيد الشعوب من كل قدرة نفسية أو عقلية ٠

أما فى ليل الحكم الفردى فان الكلمة للقادرين على الزلفى ، والساعين وراء مآربهم الخاصة ٠

وقد استغربت كيف نشأ عالم من الأكاذيب فى دخان هذا الحكم المشئوم ٠٠

عندما كانت الصناعة لدينا تتعثر ، وأهل الدربة والتجربة يطاردون ،وأصحاب الحناجر والمباخر يتصدرون ، فى هذا الوقت وقف الرجل المسئول يخطب فى استعلاء وزهو يقول : اننا أصبحنا قادرين على صنع الابرة والصاروخ !

وظهرت فى الصفحات الأولى لجرائدنا ومجلاتنا صور لصواريخ الظافر والقاهر ٠٠

فلما جد الجد تبين أن الحكاية كلها هوس ، نسج خيالها الطيش والكذب ، ودفعنا الثمن من دمائنا وأشلائنا ، وسمعتنا وكرامتنا ٠

كان الذى يعترض يطوى ذكره ويمحى أثره ! ٠

ولقد حدثت مذبحة فى ميدان القضاء عصفت بعشرات من الرجال العدول ذوى الصلابة والنزاهة ، فكيف عرض الخبر على الناس ؟ عرض على أنه أكبر حركة اصلاح بين رجال القضاء !

ان الحكم الفردى يملك دائما أكبر جهاز للأكاذيب ٠

وانتقلت الأوهام من ميدان الصناعة الى ميدان الزراعة ، ومنذ ربع قرن سمعت دق الطبول لكشف لم يسبق له مثيل ، ان هناك واديا آخر للنيل تم العثور عليه فى الصحراء ، واتخذت الاجراءات لبدء استغلاله ·· وانتظرت مع المنتظرين « دون جدوى » ! ·

ثم قرأت كلمة لنقيب الزراعيين السابق « شكرى أيوب » كشف فيها عن حقيقة ما يقال فى هذا المجال · قال : ان الرقعة الزراعية فى مصر حسب آخر الاحصاءات هى خمسة ملايين وتسعمائة ألف فدان · ولكن فى السنوات الأخيرة حدثت مزايدات حول المساحة التى يمكن أن تضاف الى هذه الرقعة بدأت على هذا النحو ·

ثلاثة ملايين فدان فى الوادى الجديد ذكرت أيام الرئيس الراحل عبد الناصر ! ثم ستة ملايين فدان فى الجنوب الغربى لمصر تزرع من مياه جوفية لا نهاية لها ! ثم خمسة عشر مليون فدان تتم زراعتها فى سيناء بجرة قلم ·· ! ثم ثلاثة ملايين فدان فى الساحل الشمالى « مطروح وما جاورها » ·· ! ثم خمسة وعشرون مليون فدان تتم زراعتها فى الصحراء الغربية « بالتكنولوجيا » الأمريكية ·· الخ ·

والحقيقة أن الرقعة الزراعية التقليدية تنكمش ، وأنها تنقص نحو سبعين ألف فدان كل عام ، واذا لم نستصلح مايعوض العجز فستكون المساحة المزروعة أقل من خمسة ملايين فدان ·· !

الغريب أن حبل الكذب قصير ، ولكنه فى مصر يطول ويطول حتى يباغت الناس بأنهم على الحضيض ! ·

أكان ذلك يحدث لو سمح لكل لسان أن يقول ، ولكل تعقيب أن يظهر ؟ ان كبت الرأى الآخر جريمة ، واستغناء الحاكم بنفسه وحواشيه فتنة كبرى وفساد عريض ··

والاستبداد السياسى قديم قدم التاريخ البشرى ، بيد أنه اتخذ أشكالا جديدة فى هذا العصر ، كان « جنكيزخان » أو « هولاكوخان »

معروفين بالجبروت ، وكما يعرف الذئب بأنه ذئب ، والنمر بأنه نمر يعرف الحاكم المستبد بأنه صاحب سطوة لايعترضها شيء ، وأن فى مقدوره اجتياح الأموال ، وازهاق الأرواح دون مساءلة ٠

واللون الدينى للاستبداد لايغير من طبيعته ، هناك فرد مصاب بجنون العظمة ، وعبادة نفسه ، واتته أسباب القوة بطريقة ما فانطلق يهلك الحرث والنسل ، وهو قادر على تطويع الدين لهواه اذا كان ينتمى الى دين ما ، والا فدينه الأثير الاستعلاء والاستعباد ٠٠ !

ومع جهود الانسانية فى مقاومة طغيان الحكم الفردى تغيرت أساليب المستبدين فى اشباع نهمتهم وفرض سلطتهم ٠

وقد رأينا الشخص يستولى على الحكم بانقلاب عسكرى مثلا ، وخلال أمد محدود يتحول حكمه العسكرى الى حكم مدنى مهدت له انتخابات مزيفة ٠

ثم تسمع هذا الشخص يقول : ان الشعب منحنى ثقته ! ان شعبى حملنى مسئولية قيادته ! ان هتاف الجماهير لى يزيدنى حرصا على اجابة رغبتها فى تولى الحكم ٠

ثم يمضى هذا الحاكم فى طريقه يبغى تحويل كل شيء اليه فيتدخل فى الاعلام وفى القضاء وفى الجامعات والمجامع ، وفى الأمن والتموين وفى ميادين التجارة والتعمير وفى كل ما أمكن من شئون الحياة الخاصة والعامة ، حتى يضمن بقاء الأمور فى يده ، واستخفاء المعارضين من طريقه ، واستقرار اليوم والغد له ولأذنابه ٠٠ !

ثم تنشأ عندئذ عواصف عاتية تقتلع الأخلاق الشريفة والتقاليد النبيلة ، فيعلو السفلة والامعات ، ويتضعضع أهل الفكر وتركد ريحهم وترفض عملات ذهبية ، وتروج عملات لا رصيد لها ، لأن امضاء الحاكم عليها ٠٠ !

وهذا الحاكم عالم بكل شيء ، وقدير على أى شيء ، وربما يكون عاجزا عن حل معادلة جبرية عادية ، ثم يعرض عليه ملف « آنشتين »

فينظر فيه بازدراء ، ثم يقـول : هذا الشـخص معارض لنـا ، أو هذا الشخص لم يسمع منه ثناء علينا ! كان يجب طرده من وظيفته ، ولكن ـ عطفا منا عليه ـ ينقل الى العمل بادارة المخازن ! ثم تنشر الصحف نبأ ترقية أنشتين ، وعطف الرئيس عليه ·· !!

والاستبداد بأساليبه الجديدة سـبق الاستبداد القـديم بمراحل ، فعندما أراد الملك فاروق قتل حسن البنـا دس عليه من اغتاله فى جنح الليل بعيدا عن دائرة القانون ·

أما الرئيس الحر قائد الأحرار فعندما أراد قتل زعمـاء الاخوان المسلمين شكل محكمة علنية قتلت ستة منهم بجرة قلم ·

وباركت الصحافة « الحرة » هذا العمل ، وحيت القضاء العادل ·

ومعـروف أن الاستبحار العلمى سـمة هـذا العصر ، وأن الأمـم تتنافس فى استكشاف أسرار الأرض والفضاء ، وتستغل حصائل هذا السباق فى دعم كيانها المادى والأدبى ·

غير أن انعـدام التقـدير واختلال الموازين يرمى الهمم بالقعـود ويحمل الرجال على اليأس فكثير من العلماء لايعمل فى مجال تخصصه ، وكثير من العاملين لايلقى الحفاوة الواجبة ·

وفى حديث للدكتور ابراهيم بدران نشر أخيرا قرأت أنه فى كل سنة يحصل ٤٠٠ مصرى على الدكتوراه من مصر والخارج وفى كل سنة يهاجر من مصر ٤٠٠ مصرىمن حاملى شهادة الدكتوراه (!)وأن هناك ٨٠ حاملا للدكتوراه فى صناعات الغزل والنسيج لا عمـل لهم فى ميـادين الغزل والنسيج ! فى أى ميدان يعملون ؟ ·

ثم هناك شكوى تشبه الأنين من تجاوز الكفايات واهمالها وتفضيل غيرها عليها ·· ! لقد فوجئت بترشيح طبيب مصرى لجائزة نوبل ، لم أسمع باسمه من قبل ، كنت أسمع بأسماء الأطبـاء المشـتغلين بتحـديد النسل ، أو المسبحين بحمد الرؤساء ! ·

غير أن الذين يقدرون العلم المجرد ـ من وراء حدودنا ـ وضعوا أيديهم على اسم الطبيب النابه وقرروا تكريمه ٠

ان الأوضاع السياسية فى عالمنا العربى تتأخر عن الأوضاع السياسية فى العالم الحر عدة قرون ٠

وأثر الاستبداد السياسى فى تعويق العمران وتخدير النشاط الانسانى معروف ، ومن خمسين عاما أو يزيد والدمار الحضارى يجتاح العالم العربى والاسلامى ، ويبعثر العلل فى نواحيه المختلفة الا أن هناك أثرا آخر لذلكم الاستبداد يجب فضحه ، فان الاستعمار لما اشتبك مع المسلمين فى أقطار كثيرة ، وشرع تحت ضغط المقاومة الدائمة ينسحب من هنا وهناك رأى أن يغطى انسحابه بحكومات تحقق مآربه ، وان كان عنوانها قوميا بحتا ٠

وتأكدت هذه الخطة بعد ماظهر أن النظام « الديمقراطى » منح الاسلام فرص الحياة ، وأتاح للشعوب أن تتمسك به وأن تعود اليه ٠

عندئذ بدا أن « الانقلابات العسكرية » أفضل أداة لسحق التعلق بالاسلام وتدويخ المطالبين به ٠

ولن تعدم القوى المعادية للاسلام بعض الشباب العابد لنفسه ، المحتبس فى مطامعه ، المفتون بنزعات مستوردة من الشرق أو الغرب ، ليقوم بهذا الدور الخئون ٠٠

وانتشرت بدع الحكم العسكرى فى أغلب الأرجاء ، وأمكن تغطية أظافره وحوافره بقفازات من المظاهر الديمقراطية الكاذبة ، ودخلت الجماهير المؤمنة فى صراع رهيب مع حكام يرنون بعيونهم الى الشيوعية أو الصليبية ، ويطوون صدورهم على كره شديد للاسلام وأهله ٠

وبهذا الاستبداد الجديد زاد التأخر الحضارى للمسلمين كما ازداد التفلت من قيود العقائد والأخلاق ، وتضاعفت العلل التى تعمل فى كياننا ٠

وجاءت من الخارج نجدات لدعم اقتصاد منهار ، أو تخلف مخـز ! ولكن شرط استمرار هذه النجدات هـو الاستمرار فى سحق الاسـلام والبعد عن مناهجه ولو أن احصاءا دقيقا نشر عن الخسائر الاسلامية بدءا من مصطفى كامل الى أنور السادات لكانت الحقائق مفزعة ، والغريب أن الاسلام لايزال حيا برغم ما كايد ويكايد من اهانات وجراحات ، وبرغم ماقدم ويقدم من ضحايا وشهداء ٠

لما كنت أحد الذين يعملون فى الميدان الاسلامى فقد لفتت نظـرى أمور أجـد من الاثم كتمانها ، لقد ظهـر لكـل ذى عينين أن الاستبداد السياسى هو قاتل الاسلام ، ومغتال رجاله ، والماكـر الأخبث بقضـاياه وآماله ، ومع ذلك فان عصابات كبيرة من المنتمين للدين باردة المشاعر بازائه ، كسول أو جبانة فى التصدى له ٠

وربمـا استرسلت فى حـديث عن حمـل المسـبحة أو سنة حمـل العصا (!) وربما التهبت مشاعرها فى حديث عن شعر المرأة أهو عورة مغلظة أم مخففة ؟ وربمـا اشتبكت فى صراع قاس حول تلاوة القـرآن قبل صلاة الجمعة ٠٠ الى غير ذلك من القضايا الثانوية أو الثالثية ! ٠

أما حقوق الانسان ، وضمانات القضاء العـادل ، وتوفير الحريات الأساسية وكسر كبرياء الجبابرة ، وتحريم الحبس أو الاعتقال الادارى ومراقبة المال العام تحصيلا وانفاقا ٠٠ الى آخـر مايضبط العلاقات بين الحاكم والمحكوم فهذا شىء كأنه خارج عن نطاق الفقه الاسلامى ٠

وقد لاحظت بحزن أن الأقليات السياسية التى تولت الحكم بطريق التزوير هى التى قتلت حسن البنا ، وطوحت بنـا فى المنافى البعيدة ، ومع ذلك فان لفيـفا كبيرا من المتدينين لم يخاصم مزيفى الانتخابات ، ولم يبال بغياب الحريات السياسية ٠

الحقيقة أن هذه العصابات البليدة لاتعرف الدين ولا تؤمن عليه ، بل اننى أطلق القول دون حذر ، انه حيث يخف الفكـر ويرجح الهـوى

فارتقاب الاسلام عبث ! نعم لا دين مع ضعف العقل ، وغش القصد ، وان طال الصيام والقيام ·

هؤلاء الناس امتداد فى تدينهم للجيل السابق ، الجيل الذى سقطت فيه الخلافة ، وخان العرب الترك ، وظلم الترك العرب ، وانقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ووجد الاستعمار فيه المجال ليعبث بنا كيف شاء ·

وهذا الجيل الذى ورثناه أثر لجيل سبقه احتوى من أسباب الانحراف ماشرد به بعيدا عن الصراط المستقيم ·

ان بغاة الاصلاح لايرتبطون بمفاهيم أو تقاليد قريبة وانما يرتبطون بالمنبع الأول ، والتطبيق الراشد المأثور عن سلفنا العظيم ، ولم يكن فيهم من تفرعن فى الحكم أو افتات على الامة ، أو أراد الحياة الدنيا وزينتها ·

وقد وقعت أزمة الحكم فى أيدى أشخاص ليس لهم تقوى أو شرف ، فأسفوا واعوجوا كما أن أمتنا برحت بها على طول التاريخ علل مقعدة ، فسقطت دون المكانة المأمولة لها ·

ومن المتدينين من يعجز عن ادراك شىء من هذا كله ، فهو يتعلق بالاسلام على ضرب من السذاجة والقصور ، ولو قيل له : حدثنا عن تصورك للاصلاح السياسى لرجع الى « الأحكام السلطانية » للماوردى يستفتيها فيما كان ويكون ·

وقد راعنى ما وقع من بعض علماء الدين فى هذه الأيام ! اننا فى أوائل القرن الخامس عشر وأعقاب القرن الرابع عشر للهجرة نرزح تحت سلطات مبيرة ، أهلكت الحرث والنسل ·

وقد كادت تزول مدن اسلامية من ضراوة الاستبداد السياسى ·

وما وقع لحماة أنكى مما وقع لبيروت الغربية المسلمة ، وقد تواطأ الاعلام العربى على الصمت المهين بازاء هذا البلاء المبين ·

فى هذا الوقت الذى أكل فيه الاستبداد أمتنا تسأل عمامة كبيرة عن

حكم الشورى فى الاسلام فيكون الجواب ، يحسن بالحاكم أن يستشير ، وعلى أهل الرأى أن يقولوا ماعندهم ، وللحاكم بعدئذ أن ينظر فيه (!) فاما قبله ، واما رده ، وله أن يمضى على مايرى وحده (!) ٠

هذا الكلام لو قاله أحد النوغاء فى قطر آخر لضرب على فمه ، واستبعد من عداد أهل الرأى والثقة ، ولكنه فى ميدان الغش الدينى والعبث بالاسلام يقال على أنه دين ٠

ان هذا الكلام قاله بعض الأقدمين دعما لحاكم بأمره أيام انهيارنا التاريخى ، فبأى عقل يقال فى هذه الأيام ؟

واذا كان الحكم الفردى قد وجد قديما من يصطنع الفتوى له ، أفما يستحى من يرى أمته تحت أقدام الطغاة ثم يرسل هذا اللغو ؟ ٠

والاستبداد السياسى فى أقطار كثيرة يمهد لفرية استعمارية خبيثة ، تقوم على أن الأديان كلها وجوه مختلفة لحقيقة واحدة ، وأنه لافرق عند التعمق بين التوحيد والتعديد والمجوسية واليهودية والاسلام والنصرانية ! ٠

وأنه يجب تجاوز الخلافات السطحية بين هذه الملل جميعا ٠

وقد وجدت هذه القالة السخيفة رواجا لها بين زعماء « اندونسيا » واستطاع التبشير العالمى أن يخلق لها قدمين تمشى بهما فى الناس ٠

ثم تبنى هذه الأكذوبة من لا وزن له فى ميدان الفكر ، أهواؤه تغلف حياته الظاهرة والباطنة ، وفى لحظة هوس قرر أن يبنى مجمعا للأديان فى سيناء (!) وزمرت الصحافة وطبلت لهذه الخاطرة المخبولة ٠٠ وفى عيد من الأعياد رأيت صورة لهذا المسئول فى « وادى الراحة » قريبا من المكان المعد لبناء المجمع الموعود ٠

لم أجد حاخاما معه ولا كاردينالا ، ولا كاهنا بوذيا أو هندوكيا ٠

الشىء الوحيد الذى وجدته مع هذا الشخص واحد من الشيوخ الأذلة يتبع مسمار التبشير العالمى ، ويقدم موافقة الاسلام على المجمع المقترح ! ٠

ان الحكم الفردى فعل بنا الكثير ، وأصاب ديننا فى مقاتله ، ولولا أن الله كتب البقاء لهذا الدين لأمسى رفاتا تحت الثرى ، لشدة مايلقاه من كيد الجبابرة والفراعنة •

ومع ذلك تجد رويبضة يتحدث فى الاسلام ، فيصدر الفتوى بأن للحاكم أن يمضى على رأيه ، غير متقيد بأجهزة الشورى ، ولا خاضع لتوجيهها •

والعالم كله يعرف عن الحكام فى دار الاسلام ماتسود له الوجوه ، ويلحق الشين بتراث محمد صلى الله عليه وسلم ووحيه الخاتم •

ان اخطاء كثيرة ، بل خطايا فاحشة تخالط اليوم التقاليد والتعاليم الاسلامية وتكاد تفقد الاسلام وجاهته ومكانته •

وما سقته آنفا مثل وحيد من أمثلة شتى ، وقد أخذ الله علينا الميثاق أن نبين ولا نكتم •

ولذلك ألفت وأؤلف ! وأنا راغب الى ربى بهذه الصحائف ، رجاء أن تكون تكفيرا لسيئاتى ، ونورا يسعى بين يدى يوم الحساب •

حول مجزرة بيروت

تابعت مجزرة بيروت بصدر منقبض يرين عليه القنوط ! ولم أكن أتم قراءة خبر أو سماعه لأن أوائل الكلام تدل على نهاياته ، ولا طاقة لى على مزيد من الأسى ·

قال الأوربيون : القتلى دون الألف ، وقال العرب : فوق الالف ، واتفقوا أن بطونا بقرت واندلقت أحشاؤها ، وأن وجوها شوهت وذهبت محاسنها ، وأن أطفالا طاحوا وأمهاتهم يدفعن عنهم فجمعت بينهم أكوام الجثث ، وأن رجالا ضربوا بالرصاص وهم موجهون الى الجدران واخرين ضربوا وهم يحاولون الهرب ، وأن أسرا أبيدت وهى تتناول الطعام فى أمان ، وأسرا أخرى أبيدت وهى تسمع الاذاعة ·· الخ ·

واختلف رواة المأساة من القتلة ؟ قال اليهود : هم نصارى الكتائب اللبنانية ·

وقال الناس : اليهود مهدوا الطرق وفتحوا أبواب المخيمات وأشرفوا على المجزرة فى رضا وسكون ·

وقال بعض المنصفين : نكون لجنة تحقيق تحدد المجرم ! وقال اليهود : لا ، ان تكوين لجنة تحقيق يوحى بأن هناك جريمة وأننا مساءلون عنها !

وتحركت دول عظمى لتمنع المزيد من القتلى ، أما من سفكت دماؤهم فقد انضموا الى أسلافهم فى « دير ياسين » و « كفر قاسم » و « قبيه » و « تل الزعتر » الخ ··

ما أرخص دماءنا نحن المسلمين ، وما أشد مانزل بنا من هوان ·

وتحركت عواطف الأخوة فى قلبى ، وقلت : على الأهل والاقارب

واخـوان العقيـدة فى كل مكـان أن يتعرفوا مايفعلون ، وأن يتحركوا لمواجهة غد مظلم مشئوم ٠

ومن المصادفات أن تقع مجزرة بيروت قبل عيـد الأضحى بأيـام معدودات فقلت : لابد أن أحدث المسلمين أن السرور حرام ، وأن ملاهى العيد يجب الغاؤها ، وأن مشـاعر الحـزن والغضب ينبغى أن تستوعب العالم الاسلامى كله ، بين المحيطات الهادى والهندى والأطلسى ٠

ثم تذكرت أن صعود المنابر محـرم على وعلى أمثـالى من الموجهين الأحـرار ٠٠ فاحتبست نيتى فى صدرى وأخذت أدور بها هنا وهناك لا أدرى ما أفعل ٠ ! اننا معاشر المسلمين فى أوضاع متردية مهينة تجعل الأوغاد يركبوننا وهم آمنون ، فنحن نضرب ولا نضرب ، وينال منا ولا ننـال من أحد ! ٠

ورمقت صورة أمامى فى احدى الصحف لعظمـاء القوم فى موقف احتجاج على ماحدث لقد قرروا الوقوف دقيقة صمت وحداد ٠٠ نظرت الى القامات المنتصبة فى مظاهرة الرياء والخسة ، ثم أعرضت عنها وأنا أشعر بالازدراء ٠

ان مايفعله أولئك العرب هو هو مافعله الغاضبون للهوان الانسانى فى عواصم العالم الأخرى ٠٠ أهذا كل مانقدمه من عمـل فى مجـزرة بيروت ؟ وأدركت أن ما أرتقبه من غضب وألم وهم واهم ، ان المسلمين شغل بعضهم عن بعض ، وانقسموا الى قوميات شتى لها فى عالم السياسة والاقتصاد مذاهب ، ولها فى شعاب الدنيا منازع ووجهات ٠

انهم على ضفاف الأردن وفى قطاع غزة مضربون لأن الرحم ماسة والصلة قريبة أما فى وادى النيـل والشـمال الافريقى ، أما فى شـبه الجزيرة وآسيا الصغرى فالاحساس أضعف والآلام أخف ، ويتلاشى كل شىء وراء ذلك من دار الاسلام ٠

ولمت نفسى كيف أرتقب حقوق الأخوة الاسلامية اذا كان الاسـلام نفسه فى محنة ؟ ٠٠

ان اليهودى فى « أميركا » يغضب لمصاب أخيه فى « روسيا » لأن اليهودية موجودة ! والولاء السياسى لها قائم ! والتنادى باسمها مسموع ! ٠

أما فى بلادنا فان رئيسا عربيا يواجه هذه الحقيقة بقوله : لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين ، انه يقول ذلك للمسلمين وهو يرى أن السياسة أقامت لليهود دولة على أنقاضنا ، وجعلت الانتماء لها يتجاوز الحدود الاقليمية ، والأوضاع الدولية ٠

فاذا حاول داعية استثارة الشعور الاسلامى ضد مذبحة يهودية وقعت بالمسلمين ، استنكر كلامه واقتيد الى السجن أو المعتقل ٠

لأن السياسة ـ التى أقامت لبنى اسرائيل دولة ـ محظورة على المسلمين المستضعفين ٠٠ والرئيس الذى قال هذا الافك يريد ترضية المسلمين بواقعهم الممزق ووجودهم الصورى ، فهو يفخر بصداقة « بيجن » وهو يريد كسر حاجز الخوف بين العرب واليهود ٠٠ ولقد نوم الناس كما طلب منه ، وأتاح لليهود أن ينفردوا بالفلسطينيين واللبنانيين ويقتلوا منهم عشرات الألوف ٠

ان عبادة « الذات » أو عبادة الدنيا مرض قديم أو هى خمرة أسكرت نفرا من الحكام فدارت برءوسهم وأدارت شعوبهم معهم ، فاذا الكيان الاسلامى يتقطع فى مواضع كثيرة ، واذا الاعداء ينفردون قديما بالقدس أو بأنطاكيه أو ببغداد ، أو الفلبين أو نيجريا ، ويذيقون أهلها الحتوف ، وبقية المسلمين فى المدائن والقرى جاهلون أو عاجزون ٠٠ ! أمس كنت أتابع الاستماع الى آخر الأنباء عن مجزرة الفلسطينيين فى بيروت ، وسمعت أن رفات الموتى لايزال متناثرا فى أنحاء المخيمات ، وأن عفونة الجثث بدأت تغير رائحة الجو ، وأن رجال « الصليب الأحمر » شرعوا يحفرون مقابر جماعية ليخفوا آثار المأساة أو ليمنعوا انتشار الأبئة ٠

وحولت مؤشر « الراديو » لأسمع كلاما آخر فان روحى يكاد يزهق من الحـزن ! ٠

وصدمت أذنى اذاعة القاهـرة وهى تقـدم للمسـتمعين فى فترة الظهيرة من ٢١ سبتمبر سنة ١٩٨٢ أو أيلول الأسود كما يسميه البعض أغنية عبد الوهاب « ليلنا خمر ٠٠ » ! !

ورأى أحد جلسائى تغير وجهى ٠٠ وهمست وأنا مستغرب : كان من الممكن أن تقدم الاذاعة للمغنى نفسـه ، وللمؤلف نفسـه قصيـدة « أخى جاوز الظالمون المدى » فما هذا العمى ؟ ٠

ان قصيدة « ليلنا خمر » مايجوز أن تذاع أبدا ٠٠ فالاسلام يحرم الخمر ليلا ونهارا ٠٠ وعندما كانت الخمر مباحة فى الجاهلية العربية حرمها العرب على أنفسـهم عنـدما يضامـون ويكون لهم ثـأر ، حتى لاتنسيهم الخمر ألمهم وتسليهم عن مصابهم ٠

فكيف يسمعون الآن من يغنيهم بصوت رخيم « ليلنا خمر » !

لكن واضعى البرامج والمشرفين على الاعلام فى واد آخـر ، انهم ينادون من مكان بعيد ٠٠ ! ويظهر أن العـرب أصبحوا الآن بعرا على صعيد هذه الأرض ، فهم يتلقون الأذى سكارى أو طلاب سكر ٠٠ ! وفى الوقت الذى يمكن فيه قادة اللهو من تنويم الأيقاظ نمنع نحن من ايقاظ النيـام ! ٠

ماذا يطلب بنو اسرائيل أكثر من ذلك ؟

ماذا يطلب صانعو المذبحـة أكثـر من تخـدير المشـاعر وتدويخ الأفكار والحيلولة دون كل احساس بالفاجعة وطلب للقصـاص وأخـذ بالثـأر ؟ ٠

لكن لماذا تهدر دماء المسلمين عالميا على هذا النحو الشائن ؟ ٠

هناك سببان قائمان لهذه المجازر ، أولهما يرجـع الى تعاليم حرب الابادة التى حواها العهد القـديم ، ولايـزال يعتنقها كثير من اليهـود والنصارى ، وقد شرحناها فى مكان آخر من كتبنا ٠

أما السبب الآخر فيعود الى طبيعة الحكم فى البلاد الاسلامية . والفجوات العميقة بين الشعوب وأصحاب السلطة ووقوع أزمة الأمور عادة بين جلادين لايرحمون ٠

اننى ــ وأنا أكتب هذه السطور ــ أقرأ وأسمع عن الاضراب العام الذى أعلنه العمال فى انجلترا احتجاجا على سياسة الأجور ٠

الألوف المؤلفة تحدت الحكومة هناك ، وانتهى اليوم العاصف دون أن تسفك قطرة دم أو يخدش ظفر عامل أو شرطى ! ٠٠ لقد حسدت هذه الأمة ! أيمكن أن نرتفع الى مستواها ؟ ٠

وراقبت الصراع فى « بولندا » بين الحكومة الشيوعية والشعب الكاثوليكى ونقابة « التضامن » التى ينتمى اليها جمهور العمال ، لقد ظلت الاضرابات نحو أسبوع ، وطال الصراع بين الجيش والعمال ، وكانت الحكومة شديدة الغضب عالية الوعيد ! ٠

وانتهت الأزمة وقالت الحكومة قتل ثلاثة ، وقال الشعب قتل خمسة ٠٠

وقلت فى نفسى : لو وقع مثل ذلك لدينا لقتل مئات ! بل ان أحداث بيروت أعقبتها مظاهرات صاخبة ــ من الغاضبين للانسانية المجردة ــ فى بعض مدن أوربا ٠٠ أما العواصم العربية الكثيرة فان المظاهرات فيها ممنوعة ٠

الواقع أن حقوق الانسان وكرامات الشعوب والضمانات المادية والأدبية الموفورة للفرد والمجتمع تسود أغلب عواصم الأرض ، أما العرب الأشاوس فلهم تقاليد أخرى وشئون وشجون ٠

وعندما تهون الرعايا على الرعاة فكيف يغليها الأعداء ؟ ان أغلب الرؤساء لدينا يتولون السلطة بأساليب غير طبيعية ، ثم يحاولون اضفاء الصبغة الشرعية عليها بعد ذلك وفى ظل قطيعة تامة بين الأمة والحكام يتم الصلح مع اليهود ، وتصدر قرارات يرفضها الاسلام جملة وتفصيلا ٠

ويمكن استئجار أعداد من الغوغاء للتصفيق ، ونفر من حملة الأقلام للتسويغ ، أما جماهير الخاصة والعامة فلا علاقة لها بما يكون ٠

وقد تكشفت هذه الخبايا للعالم غداة مقتل السادات ، فقد توافد رؤساء الصليبية والصهيونية لتشييع الجنازة ، ولم ير غيرهم حول النعش تقريبا ٠

أما سواد المصريين فكان يشيع قافلة الموت ببرود غريب ، ونظرات عابرة كأن الأمر لا يعنيه أو كأن شيئا لم يحدث ٠

وتأملت الوفود القادمة أبناء القاهرة وهم مستغرقون فى حياتهم اليومية لا يلفتهم أحيانا الا تبادل النظرات الصامتة وراء الجنازة وتساءل كثيرون أين الكثرة الساحقة التى كانت تؤيد الصلح مع اسرائيل ؟ ٠

لقد اختفى الأجراء ! وصعب استئجارهم مرة أخرى ولو ليستروا موكب الموت ٠٠ !

والحكام من طراز السادات اذا وقعت بينهم وبين شعوبهم نفرة وشجار كان الموت الذريع هو الفيصل الحاكم

خَرِسَتْ لَعَمْرُ اللهِ أَنفُسنا لَمَّا تكلم فوقَهَا الْقَدَرُ

أما السوريون فان البعث العربى المتسلط أوقع بهم مجازر رهيبة وجدد ذكرى « نيرون » عندما دمر حماة كما دمر الامبراطور الهالك مدينة « رومة » ٠

والذين شهدوا فاجعة حماة يؤكدون أن مصاب بيروت دونها ، وأن ألوف المسلمين من رجال ونساء وأطفال بادوا فى هذه الغارة البعثية ٠

ولقد سمع الارهابى « بيجن » يعتذر بما وقع فى حماة عما أوقعه هو ورفاقه بالعرب فى بيروت وغير بيروت ٠

بيد أن فساد الحاكمين فى بعض الأقطار ، ومصاب الأمة بهم حينا من الدهر لايخفف من الفظائع التى تخلفها الحروب الفاجرة ، ولا يقلل

من غضب الناس عليها ، خصوصا عندما يصحب هذه الفظائع توحش شاذ ، يقول الأستاذ مصطفى أمين :

« سوف يحتاج الرأى العام العالمى لمائة عام ، قبل أن ينسى مذبحة اللاجئين الفلسطينيين فى بيروت فى مخيمى صبرا وشتيلا ولن تكفى مياه الأنهار فى الدنيا كلها لغسل أيدى المجرمين الملوثة بدماء الأبرياء الذين ذبحوا الأطفال وخنقوا النساء وصلبوا الرجال • الذين دفنوا المدنيين العزل تحت التراب أحياء • الذين أرسلوا البلدوزر ليهدم البيوت بمن فيها ، ويحول السكان الآمنين الى أنقاض •• الذين فرشوا شوارع بيروت بدم الأبرياء ، وعلقوا جثثهم على الأشجار بعد أن كانت تعلوها الورود والأزهار •

لم يحدث فى تاريخ العالم أن ذبح غزاة الأطفال فى أسرتهم والعجائز فى مخادعهم •

لم يحدث أن الجثث شوهت بعد قتلها ، والسكاكين بقرت البطون بعد ذبحها وجماجم القتلى ديست بالأقدام بعد اغتيالها • هذه الوحشية لم نشهد لها مثيلا فى جيلنا • سمعنا عن هولاكو وهتلر وستالين ، ولكننا رأيناهم بأعيننا فى بيروت • صراخ الثكالى واليتامى والأبرياء يصل حتى الآن الى آذاننا ، يحول الصامتين الى صارخين ، والمسالمين الى غاضبين والمتفائلين الى متشائمين ، وأنصار السلام الى منادين بالانتقام •

ان القبر الهائل الذى حفرته اسرائيل لن يتسع لشعب فلسطين كله وسيبقى مفتوحا ليضم الذين دبروا الجريمة البشعة والذين حرضوا عليها » •

وهنا سؤال : من الذى يقتص من « بيجن » ؟ ويعاقب الارهابى الكبير وصحبه المجرمين ؟ •

حاكم عربى يقول له مدللا : أيها الصديق العزيز « بيجن » ؟

حاكم عربى ينظر خلفه فيجد شعبا يتربص به ويتمنى الخلاص منه؟

حـاكم أميركى يقلب الحقـائق ويتهـم المكـافحين الفلسـطينيين بالارهاب ؟

حاكم شيوعى يبيع السلاح للمدافعين بأغلى سـعر ، ويخذلهم فى السـاعات الحرجه ؟

اذا لم يعتنق العرب الاسلام وينتموا اليه ظاهرا وباطنا فلينتظروا خسفا ومسخا ومذابح أخرى ! •

مَن طَوَى هٰذه الصّفحة ونشَرَ غيرها ؟

المؤسسات التى تشتغل بالتنصير لاتخفى أغراضها ، ولا تلتزم النزاهة فى وسائلها ! ويسكت عنها فى أغلب الأحوال اذا كان عملها بين المسلمين مهما أسفت فى سلوكها ! وربما تعرضت للنقد اذا كان نطاق نشاطها بين قوم آخرين ٠

● وقد قرأت فى صحيفة الجمهورية ـ المصرية ـ غضبة للرأى العام فى بريطانيا على هيئة « **وورلد فيجن** » التى تقوم بالتنصير فى أقطار افريقية الوسطى والجنوبية وأمريكا اللاتينية ٠

● وتحت عنوان « **معونات اقتصادية للضغط الدينى** » قالت الجريدة :

● ان من بين الاتهامات الموجهة للهيئة المذكورة لجوءها المتكرر الى التهديد بقطع المعونات الغذائية لارغام الفقراء الذين يتلقونها على حضور الأنشطة الدينية ، وتعاونها مع قوى الأمن القمعية فى هذا المجال وفشلها فى الدفاع عن حقوق الانسان بين اللاجئين الذين تقوم برعايتهم ٠

وأرى أن هذه التهم يتضاءل كل مافيها من شر اذا ووزنت بما وقع أو يقع للمسلمين الذين يتعرضون للحملات التنصيرية ويذوبون فى صمت تحت وهج حقد لايفتر ! ٠

أحوال المسلمين فى الفلبين :

نشرت مجلة « **رابطة العالم الاسلامى** » مقالا من كتاب لمؤرخ غربى منصف يصف أحوال المسلمين فى الفيليبين ، والمقال تحت عنوان « **عذراء ماليزيا** » والمترجم المعلق هو الدكتور مصطفى مؤمن ٠

وأنقل هذه العبارات من المقال الكبير : ان لجنة تنمية (**ميندانا و**)

وضعت خطة لتطوير الصناعات هناك . غايتها اقصاء المسلمين واحلال العمال الصليبيين محلهم ، بحجة أن المسلمين لم يتلقوا تدريبات ! ومن ثم كانت نسبة العمال المسلمين فى هذه الصناعات واحدا فى الألف ٠

وجزيرة (**ميندانا و**) يسودها المسلمون ، وهم كثرتها الكبرى بيد أن التنظيم الادارى للبلاد كان همه تشتيت الجماعات الاسلامية . وتفتيت كتلتها والحاق الفئات الاسلامية المهشومة بمناطق يسودها النصارى ، وذلك لافناء وطمس الشخصية الاسلامية ٠

ثم يتحدث المؤلف عن الثروات المعدنية فى البلاد فيقول :

لعل وجود الذهب فى (**ميندانا و**) والفحم فى (**زامبوانجا**) وهى مناطق اسلامية ما يفسر الرغبة فى اخراج المسلمين واحلال المهاجرين من النصارى محلهم ٠

ويقول المؤلف : ان جماعة « **ايجلاس** » أو الفئران هى أخطر الجماعات الكاثوليكية وأشدها تعصبا ضد المسلمين ، ولها تنظيم سرى هدفه الأول الاستيلاء على الأرض الاسلامية ، وابعاد أهلها عنها ٠

ويتدرب أفراد هذا التنظيم فى اسرائيل ! ٠

تسعيرة للتنكيل :

وحفزا للهمم فى الحاق الأذى بالمسلمين والتنكيل بهم وضعت تسعيرة بالمكافآت التى تصرف لمن يصيب مسلما بأحدى هذه العاهات :

(١) أذن المسلم ثمنها ١٠٠ بيزوس ٠
(٢) أنف المسلم ثمنه ١٠٠ بيزوس ٠
(٣) أصبع المسلم ثمنها ٥٠ بيزوس ٠
(٤) كف المسلم أو ذراعه ثمنها ٢٥٠ بيزوس ٠
(٥) عين المسلم ثمنها ألف بيزوس ، أى : مايوازى خمسة وثلاثين جنيها استرلينيا ٠٠

ما أرخص المسلمين ! ..

وتشن هذه العصابة حرب ابادة على المسلمين لاخلاء الأرض منهم ، وتوريثها للصليبيين .. وذلك تحت سمع الحكومة وبصرها ، ورضاها وتأييدها .

يقول الدكتور **مصطفى مؤمن** : ان الرئيس « **ماركوس** » يؤمن بالمثل القائل : « **فم يسبح ويد تذبح** » ! !

فهو طالما أعلن للمسلمين : أنه مدين بحياته لجندى مسلم ، أنقذه من الموت ، ابان القتال مع اليابانيين .

وبرغم هذا فأصابع الاتهام كلها تشير اليه ، بل لا تشير الا اليه فى جميع المجازر والجرائم وحمامات الدم التى تسبح فيها جثث الضحايا من المؤمنين الموحدين .

والرئيس « **ماركوس** » أنموذج عادى لأسلافه من الكاثوليك الاسبان الذين غزوا جزيرة سولو ، وسائر الجزر الاسلامية المجاورة ، ونشروا فيها النصرانية بالسيف ، وأطلقوا عليها اسم « **الفيليبين** » نسبة الى ملكهم فيليب ، أحد الذين أطاحوا بالوجود الاسلامى فى الأندلس .

وقد بدأ غزو هذه البلاد فى القرن السادس عشر ، وابرازا للغاية المنشودة منه ، فقد رصت جثث المقاومين الشجعان على نحو هيئة صليب وذلك سنة ١٥٧٦ م ، ويقول المؤلف :

انه أول صليب صنع بأجساد المسلمين ، ونرجو أن يكون آخرها .. !! ترى هل تحقق هذا الرجاء ؟

حملة صليبية ..

على أية حال لقد أخذت الحملة الصليبية مسارها المرسوم فى هذه الجزر النائية عنا (!) ففى هذه السنة أصدر الحاكم الاسبانى العام

« **فرانسيسكو دى ساندى** » أمرا لقائد الحملة المغيرة على أرض الاسلام هذا نصه :

« **اننى آمرك بسد أفواه الدعاة الى دين محمد ، اذ هو دين شرور وآثام ! وليس هناك من بديل عن النصرانية عقيدة ودينا** » ولما كان الدعاة القادمون من « **بورنيو** » مثلهم ـ يعنى مثل اخوانهم **فى جزر سولو وميندناو وغيرها** ـ فواجبك مصارحتهم بأن غرضنا هو **تعميم النصرانية ؛ ولدى اعتناقهم لها فسنتركهم يعملون فى أرضهم دون أن يصيبهم أذى من جانب سادتهم النصارى الاسبان ، وترصد بقوة من يدعو لدين محمد ، وألق القبض عليه ، ثم سقه الى مكبلا مخفورا** » ٠

وظلت هذه الحرب الصليبية ثلاثة قرون ، اعتمد المدافعون على أنفسهم فى كسر تيار الفتنة ، وصد العدوان الهاجم من وراء البحار ، على حين كان الاسبان يتقدمون نحو هدفهم بثبات ويضعون خططهم بتؤدة ، وأوروبا كلها مسرورة بالثغرة التى أنشؤوها فى جنب الأمة الاسلامية ويرتقبون تعميقها والنفاذ الى مابعدها ٠

وفى مطالع القرن العشرين هبط عدد السكان المسلمين الى الثلث فى الجزر التى غلبت عليها التسمية الجديدة « **الفيليبين** » ٠

عذراء ماليزيا ٠٠

ووقع تغيير جديد فى تاريخ الجزر المحروبة ففى ١٣ آب (أغسطس) ١٨٩٨ م نزل الأمريكيون « **بعذراء ماليزيا** » فقد اشتروا « **بمائتى مليون دولار** » هذه البلاد من مستعمريها القدامى ، أخذها الاسبان « **خلو رجل** » كما يقول المترجم ٠

وأعلن الشعب المسلم الثورة ضد الغزاة الجدد ، واستمر القتال ثلاث سنين انهزم المسلمون بعدها ! وماذا يستطيعون ؟

وفى آذار (مارس) عام ١٩٠١ م تألفت لجنة من الكونجرس الأمريكى لوضع تشريعات أخرى للفيليبين ٠

الحـرب البكتيرية ..

قال المؤلف : لقد حاولت صرف المسلمين عن دينـهم دون جـدوى ، ولما يئست من تنصيرهم اتجهت الى عمل آخر فقد رأى الأمريكيـون أن خير علاج للمسلمين هو اجتثاث جذورهم بشـن الحـرب « **البكتيرية** » عليهم وعلى ماشيتهم ، فاجتاحت أوبئـة الكوليرا والجـدرى والطاعون البانوبى جزيرة مينداناو ثم جزيرة سولو سنة ١٩٠٣ م .

وبلغ ضحايا حرب الأوبئة حسب تقـدير لجنـة « **تافت** » مائتى ألف أو يزيدون ، ونفقت مئات الألوف من الـدواب بأوبئـة الجمـرة وطاعون الماشية .

وهكذا خسر المسلمون أنفسهم وأمـوالهم بالخسـيس المـزرى من الغدر ، كما تعرضت للهـلاك آلاف مؤلفـة من الـدواب العجمـاء التى لاتعرف قبيلا ولا دبيرا .

حمـلات الافنـاء ..

ثم استقلت الفيليبين عقب الحرب العالمية الثانية ، بعـدما وضعت خطة للقضاء الأخير على المسلمين فى ظل حكم متعصب قذر ! .

ان الغـارة التى شنت على أرض الاسـلام كانت من السـعة بحيث شملت أغلب قارة آسيا ولنعترف بأنها نجحت فى انزال رايات الاسـلام عن بقاع كثيرة ، بدءا من شرقى الأورال الى أودية تركسـتان الخصبة الى فيافى سيبيريا ، الى أعماق الهند ، وسنغافورة ، وتايلاند ، والملايو ، وأندونيسيا .

ومن مئات السنين ونيران المقاومة تشتعل ، ومع تلاحق الهزائم فان الجماعات المجاهدة لم يلحقها يأس ، ولم تلق السلاح .

وقد لبس الأعداء أقنعة شتى ، وجربوا خططا ماكـرة ، واستعانوا بالتقدم العلمى ، واستفادوا من الخطـأ والصـواب ، ومع ذلك فالقتال ناشب ، والنتائج ان استقرت فى ناحية فلن تستقر فى أخرى .

وهنا أسائل نفسى : **أين نحن من هذه الحقائق المذهلة ؟**

لقد درسنا ونحن طلاب تاريخ العالم القديم ، وتاريخ العصور الوسطى ، ونبذا كبيرة من التاريخ الحديث ، فلم يذكر لنا شيء من هذه الحقائق ! أكان آباؤنا وأجدادنا يعرفونها ؟ ٠

ما أظن ، وما أظن طرفا من هذه الأحداث الهائلة درس فى الأزهر أو الزيتونة أو القرويين أو الحرمين الشريفين ، أو الأموى فى دمشق ، أو الامام الأعظم فى بغداد ٠

اذا كان هذا الجهل عن غفلة فهو جريمة يستحق مقترفوها العقاب واذا كان الأمر هو تجاهل العارف ، فالمتجاهلون هنا أقرب الى الكفر منهم الى الايمان ٠

ان الاسلام يقيم بين أتباعه أخوة تناصر وتساند ، ويفرض على الجسد كله السهر اذا أصيب جزء منه ، ويعتد موالاة المعتدين على حرماته نفاقا وارتدادا ، فأين الأجهزة الثقافية والسياسية فى الأمة الاسلامية ؟ وأجنحتها فى الشرق الأقصى تحطم ، وقلبها يهدد وهى لائذة بالصمت ٠

فوضى ٠٠٠ وجاهلية ! ٠٠

لقد وقع تغير كبير داخل الأمة الاسلامية ووراء حدودها ٠

كان عصر الاحياء ابتداء من القرن السادس عشر الميلادى يرقى بالأوربيين رويدا رويدا من الظلمات الى النور ٠٠ من الخرافات الى الحقائق ٠

أما المسلمون فان الفوضى الهائلة كانت تنحدر بهم الى الحضيض ، فوضى سياسية جعلت مناصب الحكم بعيدة عن كل موازين الشرف والكفاية ٠

وأمسى العمل السياسى سوقا لاصطياد المغانم والأسلاب ، واختفى

منه تقريبا الوفاء بحقوق الله والناس ، والسهر على مصالح الأمة الدينية والمدنية ٠

كانت جاهلية من طراز آخر تعصف بالمسلمين شرقا وغربا ، وتوهى صلتهم برسالتهم الخالدة ودعوتهم الكبرى ، وتجريهم وراء شهواتهم سكارى وما هم بسكارى ٠

اهتمامات ٠٠ بعض المسلمين ٠٠

وفساد الادارة السياسية يعطى حق الحياة لنوع معين من العلم الدينى ، ان الحديث عن الحلال والحرام والمعروف والمنكر مرفوض ٠

هناك حديث آخر يمكن التوسع فيه والحماس له وشغل الغوغاء بقضاياه ، **مثل الصلاة بالنعل أفضل أم مع الحفاء ؟ الحج مع التمتع أفضل أم مع الأفراد أو القران ؟ مس احدى السوأتين ينقض الوضوء أم لا ينقضه ؟ التراويح ثمانى ركعات أم عشرون ؟ القنوت فى الفجر بدعة أم سنة ؟ ٠٠ الخ ٠**

ومع الاستبحار فى هذه القضايا هناك قضايا أخرى يجب الانتهاء فيها الى رأى زائغ « **الحاكم لاتقيده الشورى** » « **الحاكم المغتصب للسلطة لايقاوم** » « **الانحراف عن الحاكم فتنة** » « **اعتزال الفتن ايمان** » « **تطليق الدنيا أساس التقوى** » ٠

ثم تشد خيمة الغيبيات السماعية لتنسحب على مساحات كبيرة من عالم الشهادة ، فاذا التدين أحاجى وسحر وطلسمات غامضة ، وقصور شائن فى ميدان الفكر والاجتهاد وشؤون الدنيا ٠

وبهذا التخلف الادارى والعمرانى ، وبهذا العجز العقائدى والأخلاقى ، استقبل المسلمون الاستعمار الحديث ، فكانوا يصابون بهزيمة تلو أخرى ، وتسقط بلادهم بلدا بعد بلد ، وبعضهم لايعرف شيئا عن الآخر ولا عما يلاقيه ٠

العرب .. والمسؤولية الضخمة ..

والعرب خاصة يحملون مسؤولية ضخمة لايحملها شعب آخر ، فان أصول الاسلام والتراث الاسلامى من الكتاب والسنة اكتمل بلغتهم ، ونهر المعرفة الدينية والأدبية تفجر من منابعهم ، وامتد مع التاريخ بلسانهم .

فما مبلغ قيامهم بالدعوة الاسلامية ؟ وما مدى جهدهم المعنوى فى نقلها من قارة الى أخرى ؟ .

صحيح أن الاسلام سوى بين الأجناس كلها فى الحقوق والواجبات العامة ، وهذه التسوية هى التى مكنت الفرس والترك وغيرهم أن يحكموا العرب ، ويأخذوا منهم الخلافة .

ولكن ذلك لايغير من حقيقة أن العرب هم دماغ الاسلام وقلبه ! وأن نزول الوحى بلغتهم يجعلهم ـ حكاما كانوا أو محكومين ـ قادة الفكر والفقه والأدب والتربية .

وقد حكم الترك ، وسقطت الخلافة الأخيرة وهى فى ربوعهم ، وكان فساد بعضهم الادارى وعوجه السياسى وراء المأساة الفادحة . لكن الحكم الفردى المستبد لم يكن اختراعا تركيا ، بل كان امتدادا لشبيه له فى دمشق وبغداد .

والأمر يحتاج الى تصحيح جرىء نرضى به ربنا ، ونلتزم أهدافنا ، ونعود به الى قواعدنا الأولى فى الدعوة والجهاد ..

الغزو الثقافى ..

ان الثقافة الجيدة الغنية هى صورة الأمة ، وأمارة عظمتها ، والسلطة مهما قويت لاتعد شيئا طائلا سالم تكن جزءا من حضارة الأمة ومعرفتها وتفوقها .

وقد رأينا الدول الاستعمارية تسحب جيوشها وتترك أقطارا

احتلتها ، غير أنها وكلت الى ثقافتها الغـلابة أن تحتفظ لها بكل شيء فاذا الغزو الثقافى أنكى من الغزو العسكرى ، واذا احتلال العقول أقسى من احتلال الأراضى ٠

انه لايستهين بأثر الثقافة الا أحمق ، ومذ أفلح الجهال فى بلادنا ، وعبثت أصابعهم بقيادنا ، واضمحل العلم وانزوى أهلـه شرعنا ننهزم فى كل ميـدان ٠

وماذا يفعل العقل الاسلامى فى مواجهة خصومه اذا كان فى ميدان العلاقات الانسانية يرخص الشورى وحقوق الانسان وآشـواق الفطرة وضمانات العدالة وحرمة المال العام ، ويعطى فى ذلك توجيهات ناقصة أو غامضة أو هيابة لأن سطوة الحكم الفردى تعقل لسانه ؟ ٠

الثقافة الاسلامية فى محنـة ٠٠

ان الثقافة الاسلامية فى محنة محزنة ! وقد ورثنا خليطا هائلا من المعارف الدينية والمدنية يحتاج الى نظر فاحص واختيار لبيب ٠

وتعجبنى كلمة الاستاذ « **عمر عبيد حسنة** » **انه يجب اعادة ترتيب العقل الاسلامى من جديد** ٠

أساس هذا الترتيب فيما أرى : تنسيق شعب الايمان فى سلم يكشف أدناها وأعلاها ، وباحصاء شؤون الدنيا التى لايقوم الايمـان الا بها ، وتوزيع قوى الجماعة عليها ، والتعريف بالقطعيات والظنيات فى آفاق التشريع ومواطن التقليد والاجتهاد ، والمحاكمـة المسـتمرة لأعمـال السلطات الاسلامية وتبيين الخطأ والصواب فى مسيرتها ، والمراجعـة الواعية لأرباحنا وخسائرنا طوال القرون الماضية ٠

وينضم الى ذلك كله درس مستمر لأحوال العالم من حولنا ، ومبلغ تأثرنا به وتأثيرنا فيه ٠

فاننا لم نحتكر الحياة على ظهر هذا الكوكب ، ويستحيل أن نؤدى رسالتنا فيه ونحن جهال به ٠

ولا أزال أؤكد الكلمة الحكيمة : **دين الله أشرف من أن يؤخذ من أفواه الحمقى ..**

لابد من محو هذه الفوضى الفكرية ، واعادة الرشد الى حياتنا الثقافية ، وتمكين أولى الألباب من عرض الاسلام دون تحريف ولا مغالاة دون قصور ولا فوضى .

وعودا الى صدر هذا الحديث ـ على ما به من كآبة ـ أريد أن أعرف : **الى متى يبقى احساسنا ضعيفا بآلام اخواننا فى العقيدة ، وشركائنا فى المبدأ والمصير ؟**

وظيفتنا العالمية

الاسلام أمة ورسالة ..

أما الرسالة فهى الهدى الالهى الذى يخط لنا الصراط المستقيم ، ويدعونا الى السير فيه .

وأما الأمة فهى الجماعة التى تنقل التوجيه الالهى من ميدان النظر الى ميدان التطبيق، أى تفهم الوحى وتنفذه وتدعو الآخرين الى اعتناقه.

والمفروض أن تكون الأمة صورة حسنة لرسالتها ، صورة لاتفاوت فيها ولا تشويه .

ولكن البشر لم يرزقوا العصمة ، ولابد أن يقع منهم خطأ فى الادراك أو السلوك .

وهنا ينهض جهاز عتيد بالتنبيه الى الخطأ والتحذير من بقائه ، جهاز الدعوة والأمر والنهى ، ان هذا الجهاز يقوم بعمل « الكرات البيضاء » فى الدم عندما تتصدى للجراثيم الغازية فتردها أو تموت دون الاستسلام لها .

انه جهاز يمثل خصائص المناعة ضد العلل المغيرة ، ومهمته ابقاء الرسالة والأمة معا على الدرجة المطلوبة من السلامة والاستقامة .

وبقاء هذا الجهاز ـ شعبيا ورسميا ـ يؤدى وظيفته يعنى أن الاسلام بخير ، وأن أمته تستجيب للأمر الالهى

وتعميم الخير ، وحراسة المعروف ، ومقاومة المنكر ، ليست وظائف محلية ينهض بها المسلمون داخل بلادهم فقط ، ولكنها واجبات عالمية يتصايح بها المسلمون شرقا وغربا ليعرف الناس : من هم ؟ وماذا يريدون ؟ .

على أن صلاحية الداخل رصيد لابد منه للدعاية الناجحة فى الخارج ، ولا يقبل من امرىء رث الملابس أن يدعو الى الأناقة ٠

ثم ان القضية الأولى ـ قبل نجاح دعاية ما ـ هى أن تكون الأمة صورة لرسالتها ، ووعاء نقيا طهورا لما تحمل من تعاليم وقيم ٠

وواضح أن جهاز الدعوة والأمر والنهى ، هو الخاصة الأولى للرسالة الخاتمة ، ولعله سر خلودها الى آخر الدهر ، فهو يجدد كيانها ويصون حقائقها ، ويغنى عن رسالات أخرى تحل محلها ٠

والنشاط الشعبى فى هذا الميدان كان ـ فى تاريخنا ـ أبقى وأنمى وأجدى ٠

وقد سد الثغرات التى أحدثها تخلخل الحكم فى التاريخ الاسلامى المديد ، أو رتق الفتوق الرهيبة التى وقعت ٠

فعندما سقط الخليفة الأعظم فى بغداد ، وتهاوت الدولة العجوز تحت مطارق التتار ، استيقظت أسباب المناعة فى الأمة الجريح وتحركت طوائف الدعاة هنا وهناك ، ووقع حدث من أعجب الأحداث فى تاريخ الدنيا ! فقد أسلم التتار ٠

وفشلت الأجهزة الرسمية للكنيسة فى اجتذابهم وعاد المندوب الباباوى الى ايطاليا يجر أذيال الفشل ٠

وتم قريب من ذلك فى مطاردة صليبيى العصور الوسطى ، فان الدعاة اعترضوا روح الهزيمة عند بعض الحكام ، وتوارثوا اشعال نار المقاومة وزودوا صلاح الدين بجيش من الفدائيين ينشدون الشهادة فى البر والبحر ٠

وبعد تسعين سنة تحررت القدس ، وبعد قرن آخر كان كل شبر من أرض الاسلام قد غسل غسلا من آثار الهمج المغيرين ٠

يقول التاريخ : ان هناك رجالا لم نعرف أسماءهم ولكننا رأينا آثارهم هم الذين أقالوا العالم الاسلامى من عثرته وأنهضوه من كبوته ٠

انهم الدعاة الربانيون المتجردون الذين عرفوا الحق ، واستشعروا السعادة فى نصرته ٠

انهم العلماء الذين يوزن مداد أقلامهم بدماء الشهداء ٠

انهم جنود مجهولون فى هذه الدنيا ، ولكنهم ــ غدا ــ أعلام شامخة فى ربى الخلد ٠

ومضى العالم الاسلامى الى الأمام وهو يحمل فى طياته أسباب دائه ودوائه ، ولم تكن القوى المتربصة به غافلة عما يجرى فوق أرضه ، بل لعلها كانت أعرف بذلك من بعض أبنائه الناعمين ٠

وما حدث فى القرون الأخيرة جدير بالدرس العميق اذ أن الفجوة بين الأمة ورسالتها اتسعت اتساعا مكن الأعداء المتربصين من توجيه ضربات هائلة الى الكيان المهتز ٠٠ فلننهض بواجبنا ليبدأ من جديد جهاد الدعوة ٠

ليست الدعوة الى الله عاطفة ساخنة يتحرك بها شخص أو يستفز بها جمهور ، فربما كان فساد الأديان ناشئا عن مشاعر حارة وراء أفكار مرفوضة ٠

يجب أن يكون الحق محور سلوكنا العام والخاص على سواء ٠

وشرف أمتنا يجىء من توافق هواها مع هدايات الله ، ومن تطابق عملها مع أوامر الله ونواهيه ٠

وقد استبان لى أن الخطأ لايولد ضخما يوم يولد ، انه يبدأ عوجا محقورا ، أو انحرافا طفيفا ثم يستفحل شره على مر الأيام ٠

والمتأمل فى علل المسلمين الاجتماعية والسياسية يجد أن جراثيمها قديما ولدت ، وأنها لم تبلغ مبلغها اليوم الا وسط ظروف معقدة لا مكان هنا لشرحها ٠

والمقياس الفذ العاصم من الزلل أن نتحاكم الى كتاب الله وسنة رسوله ، وأن نستصحب معنا فى هذه المحاكمة سيرة الخلفاء الراشدين

والفقهاء الأئمة ، فان الحق قلما يفوت هؤلاء الكبار فى مجالى السياسة والثقافة ·

ثم ان الفقه الاسلامى لم ينشأ من فراغ ، ان له أصولا محترمة من جهلها وجب الحذر منه ، بل هو فى نظرى ليس أهلا للعمل فى ميدان الدعوة ·

اننى أقول ذلك لاحساسى بالأزمات العصيبة التى يمر بها ديننا ، فالأمة الاسلامية تحارب بقسوة فى مراحل التربية وساحات القضاء وتقاليد المجتمع ! انها محنة لم يمر الاسلام بمثلها خلال القرون الماضية ·

وجهاز الدعوة الذى قام قديما برأب الصدع وجمع الكلمة يجب أن يستأنف نشاطه ، بيد أنه لن يقدر على ذلك اذا فاته حسن الفقه وصدق البصيرة وخلوص الغاية ، فانه حين يفقد هذه الخصال لن يقدم للناس الاسلام الصحيح ·

ولقد ضربنا مثلا قضية الشورى ، انها فى الكتاب والسنة أساس مجتمع ، ولكن الحكم الفردى الباطش استبعدها ، فجاء من يعدها من مواد الترف ! ثم جاء من يعدها لمن قبلها غير ملزمة ، بل يمضى على مايرى هو ·

ثم تاهت أجهزتها فى دوامة الاستبداد الأعمى فما يدرى كيف يتم لها تكوين ·

ثم أطبقت ذئاب الأرض من كل فج على أمة أكلها كبراؤها ! ! ولايزال البعض شديد الحرص على أن تكون الشورى وأجهزتها ونتائجها فى مهاب الريح ·

وتعجب لسلفى يتشاجر مع حنفى هل لمس المرأة ينقض الوضوء أم لا ؟ وكلاهما يوجل من كلمة الشورى ·

الأول لايسأل نفسه : كيف جلد ابن حنبل ؟ وكيف اختير الحاكم الذى جلده ؟ وما وقع له من عقوبة على تعديه ؟ وكيف توقى الأمة مستقبلا أمثال هذا الحاكم ؟ ·

ان هذه أسئلة لايجوز ايرادها ٠

والآخر لايسأل نفسه : كيف مات أبو حنيفه فى سجنه ؟ من الذى سجنه ؟ وفى أى تهمة ؟ ومـا مصير من عـذبه ؟ وكيف يحمى الخاصـة والعامة من بطش أولئك الجبارين ؟ ٠

هذه أسئلة لايجوز ايرادها ٠

الذى يجب قوله : أن الشورى تفضل من عظمة الحاكم قد يلتزمها اذا شاء ، وقد يرفضها اذا شاء ، وهذا هو الاسلام ٠

والغريب أن سياسة الحكم عند بعض الدعاة لاتتعدى هذا المفهوم الذى طبقه المأسوف على شبابه المعتضد بالله ، وتبعه السـلطان مراد ، والسلطان الغورى ! ٠

وقد جاءنى أحدهم متعالما يقول : بلغنى أنك ترى تعدد الأحـزاب السياسية ٠

قلت : نعم مادام هناك داع للتعدد ٠

قال : ماهذا الداعى ؟ قلت : فى شئون الدنيا هم أعلم بها وتختلف وجهات نظرهم كيف شاءوا ٠

وفى شـئون الدين لهـم أن يجتهـدوا ـ حيث لانص ـ وهـم على اختلاف آرائهم مأجورون ٠

قال : أكانت هناك أحزاب على عهد الصحابة ؟ قلت : نعم ، وحلوا خلافاتهم فى معارك الجمـل وصفين ، ونريد حلهـا الآن ، وحـل كـل مايعرض من خلاف فى مناظرات كلاميـة ومجـادلات سلمية تحت قبـة مجلس حر ! ٠

قال : انك تريد تقليد ديمقراطية الغرب ٠

قلت : بل أريد منعكم من جعـل الاسـلام سـورا يحمى الهرقليـة والكسروية والفرعونية ٠٠

انكم مساكين تريدون اعادة الجاهليات القديمة باسم الاسلام ٠

الحق أن عالمنا الاسلامى المحروب المغلوب على أمره لن يحل مشكلات الحرية فيه دعاة يعيشون فى طبائع العبيد ، بل ان هؤلاء الدعاة أنزل رتبة من أن يحلوا مشكلات أنفسهم ٠

وننظر الى العالم من حولنا فماذا نرى ؟ انه فى أثناء عدة شهور تغيرت الأحزاب الحاكمة فى ثلاث من الدول الكبرى تغيرا حاسما ، لأن رجل الشارع يفرض رقابة صارمة على حكامه ٠

ويقول : لا فتتوقف مواكب ! ويقول : نعم فتنطلق أخرى ٠

كيف نعرض الاسلام على هؤلاء الناس ؟ أنرسل لهم أولئك الدعاة العجاف يقولون لهم : خذوا عقيدة التوحيد مقرونة بنظام الحزب الواحد ، وبأن الشورى لاتلزم حاكما ؟ ٠

ان الشعوب سترد أولئك الحمقى محشوة أفواههم بالتراب ! ٠

ويوم تقوم الساعة يحاسب أولئك على أنهم فتانون يصدون عن سبيل الله ٠

اننى ألفت الأنظار الى أن العقل الاسلامى كان قبل ثلاثين سنة أنضر منه الآن ، لأن الأغبياء يومئذ ماكانوا يستطيعون هذه الثرثرة ٠

كان اختصاصهم لايعدو فقه « دورة المياه » فما الذى جعلهم الآن يضعون للأمم الدساتير ؟ ٠

الفقه الذكى قبل الدعوة الحماسية ٠٠

ان الفتوى الجاهلة ، والبدعة المحدثة ، والحديث الموضوع ، والخرافة المقدسة ، كل ذلك لون من تزوير الوحى ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، والشهادة على الله بما لم يقل ٠

من أجل ذلك أطلب ــ فى ميدان الدعوة ــ أن تعرض الحقائق المسلمة الثبوت ، وأن تطوى جانبا خلافات الفقهاء ووجهات النظر العائمة ، وقبل ذلك كله أن تطرح المرويات الشاذة ، والسخافات العلمية ٠

ما معنى أن تعرض عقيدة التوحيد مقرونة بأن الأرض لاتدور ، أو أنها محمولة على قرن ثور أو أن الحكم فى الاسلام يجعل الحاكم فوق الشورى ·

لحساب من يتم هذا العرض الغبى ؟ ولحساب من يتم عرض قضية المرأة على أن وجهها عورة ، وأن ذلك موقف الاسلام القاطع مع أن جمهرة الفقهاء على غير هذا ؟

قلنا : ان الاسلام رسالة من السماء ، وأمة تطبقها على ظهر الأرض وقد أجمع علماء الأصول على تعريف الحكم الشرعى بأنه خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ·

ومعنى ذلك أن الحكم لايكون شريعة الا اذا كان له سناد الهى ·

والتراث الاسلامى مضبوط الاستدلال فى هذه الميادين ، وهو يتحدث بجلاء عن المقطوع والمظنون والواجب والمندوب والمحرم والمكروه وعما سكت الوحى عنه لنتصرف نحن بعقولنا فيه

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم : ٦٤)

وأرى أن الأوان قد آن لاقصاء الدعاة الذين لافقه لهم ، أو الذين يريدون الباس الاسلام عقالا بدويا أو تقليده سيفا تركيا ، ثم يعرضونه فى عواصم الغرب والشرق التى ازدحمت بأذكى المبادىء وأمكرها ·

ولو عرضوه فطرة الله فى الأنفس ، وكشفوا عن طبيعة الوحى الأعلى فى مثل قوله ـ سبحانه :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد : ٢٥)

لكان أقوم وأجدى

ومأساة الدعاية الاسلامية ترجع الى قرون خلت ، فان العطب فى أجهزتها الرسمية كان فادحا ، وأظن الأمر بلغ حد الخيانة ·

وقد تساءلت فى أحد كتبى : لماذا لم ينعقد مجمع علمى اسلامى لبحث الضياع الاسلامى فى الأندلس ؟ أو فى الجزر المسماة بـ « الفلبين » ؟ أو السقوط الأول « لبيت المقدس » فى أيدى الصليبيين ·· أو سقوط بغداد فى أيدى التتار وانتقاض النصارى يومئذ على الكثرة المدحورة ·· الخ ·

والأمثلة التى مرت بنا ولاتزال تمر كثيرة ، وأقلها شأنا يحتاج الى وقفات طوال لاعادة النظر والتوجيه ، فكيف بأدهاها ؟ ·

هل انحلال عروة الحكم من قديم سبب هذا البلاء ؟ لانسارع بالاجابة ! من المؤكد أن ولاء الحكام الأقدمين كان للاسلام ، فقد كان شعارهم المرفوع ومنطلقهم المعلن وملاذهم عند المفاخرة والمنافرة ·

واذا كانوا قد تولوا الحكم بطرق غير اسلامية فقد حرصوا على تطبيق الاسلام واقامة معالمه وحراسة حدوده ، واستمدوا وجاهتهم من بذل الجهد فى ذلك المضمار ·

يستوى فى ذلك الملوك والامراء ممن حكموا فى ظل استبداد سياسى بين ·

فعبد الملك بن مروان الذى قضى بالسيف على خصوم الحزب الأموى مهد لابنه الوليد حركة الفتوح التى بلغت الهند والصين شرقا وفرنسا وسويسرا غربا ·

بيد أن العوج الفقهى أو الطريق غير الشرعى الذى جاء به أولئك الخلفاء الملوك أو الملوك الخلفاء ترك طابعه على المعاملة التى لقيها قادة هذه الفتوح من عباقرة الحرب ، ورجال المبادىء ·

فما مصير محمد بن القاسم فاتح السند ؟ وما مصير طارق بن زياد؟ وموسى بن نصير ؟ وقتيبة بن مسلم ؟ وغيرهم وغيرهم ·

ان الحكم الفردى كالمرأة الغيور لايطيق رؤية العظماء ، ولا يزن أقدار العلماء ·

ولذلك أخذ أولئك النابغون يتناقصون فى تاريخنـا ، ومن يظهر منهم لأمر ما يحيا مستوحشا منغصا ٠

واستطاعت القوى المعادية للاسلام أن تستغل هذه الفوضى الضاربة فى شئوننا كلها ، فشنت غاراتها فى القـرون الأخيرة ، واستولت على العالم الاسلامى كله ، وصيرته موزعا على سبعين قومية خاصة ، وشرعت تجهز على الاسلام فى كل قومية على حدة ٠

وتحركت أسباب المناعة فى الكيان الذى هاجمته علل هائلة ، وقام الدعاة فى كل بلد ينافحون عن التراث المنهوب ٠

الا أن هناك ناسا يشتغلون بالدعوة ثقافتهم مغشوشة قرءوا كتبا ألفت فى عهود الاضمحلال ، أو حفظوا آراء قالها قوم عديمو الفقه ٠

وقد يتعصبون لأوضاع جرت على الاسـلام البـلاء ، أو تمـر بهم أحداث حافلة بالعبر فما يفيدون منها عبرة ٠

وقد يعرفون من الحق بعضه ويجهلون أو يجحدون البعض الاخر ٠

أما علمهم بما جد فى أرجاء العالم من أطـوار ، وما يستتبعه ذلك من أقضية ذكية فصفر ٠

اننا نطلب الى هؤلاء أن يصلحـوا أنفسـهم أو يتركـوا مواقعهم ، فلسنا بحاجة الى علل أخرى

السلبية لاتخلق بطولة ..

أكره فتنة الغنى كما أكره فتنة الفقر ، الغنى قد يطغى والفقر قد يذل ، والمؤمن يأبى أن يكون طاغيا كما يأبى أن يكون ذليلا . ! هل هذه كل آفات الغنى والفقر ؟ كلا .. ان الكثرة قد تعين على انجاح العقائد ومساندة أصحابها .. والقلة ربما خذلت الحق ، وجرأت عليه ! ومن هنا يسعى أهل الايمان الى دعم أنفسهم ومبادئهم بالمال الكثير والتمكين فى الأرض ، وفى أدبنا العربى طرائف فى هذا المعنى تستحق الذكر يقول عروة بن الورد :

دعينى أطوف فى البلاد لعلنى
أفيد غنى فيه لذى الحق محمل !
أليس عظيما أن تلم ملمة !
وليس علينا فى الحقوق معول ؟
فان نحن لم نملك دفاعا لحادث
تلم به الأيام فالموت أجمل !

ويخيل الى أن الشافعى كان يتأوه وهو يرى المال قد فقد وظيفته الاجتماعية عند بعض الناس فهو يقول ضائقا محزونا :

وأنطقت الدراهم بعد صمت
أناسا طالما كانوا سكوتا
فما عطفوا على أحد بفضل !
ولا عرفوا لمكرمة بيوتا !

لكن هل الحياة لاتعرف الا غنى طاغيا وفقرا ذليلا ؟ كلا فما أكثر الأغنياء الشاكرين وما أكثر الفقراء المستعفين ! ما أكثر الذين ملكوا فدنوا وخدموا وأعانوا ، وما أكثر الذين حرموا فتماسكوا وانتصبت قاماتهم وعاشوا كراما .

ويظهر أن بعض المفسرين ، وجامعى السنن فاتهم تسجيل هذه الحقائق فأساءوا من حيث لايحتسبون الى الأمة الاسلامية ، والى مسارها الحضارى ، والى موقفها أمام أعدائها .. مما يجعلنا نستنجد بالفقهاء كى يضعوا الأمور فى مواضعها الصحيحة .

فتحت عنوان « الترغيب فى الفقر ، وقلة ذات اليـد ، وماجاء فى فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومجالستهم » ذكر الحافظ المنذرى رحمه الله أكثر من مائة حديث لاينتهى المـرء من قراءتها حتى يقرر تطليق الدنيا بينونة كبرى ٠

وماذا يكسب الاسـلام عندما يطلق المسـلمون الدنيـا ويتزوجها غيرهم ؟ وكيف تسير الأمة اذا كان غنى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف قيدا يؤودهم فلا يدخلـون الجنـة الا زحفـا ؟ على حين تطير الصعلكة بأصحابها فيسبقون الى النعيم المقيم ٠

ان هذه الآثار تحتاج الى مراجعـة أسـانيدها ومتونها وعنـاوينها والحشود التى أقبلت فيها ٠

وأعلم أن جمهور الناس قد جرفتهم الطبيعة المادية للعصر الحديث ، ولكن الشباب الذى يريد العودة الى ربه والاستقامة على طريقه يقرأ هذه المرويات فتغلبه الحيرة ويزيغ عن الصراط ومثـل هذا الاضطراب فى ضبط القيم الدينية تجده فى بعض التفاسير الشائعة ٠

فى تفسير سورة الصافات عند قوله تعالى :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

(الصافات : ٥١ ـ ٥٥)

ذكر ابن كثير فى تفسيره حكاية اسرائيلية عجيبـة ، كان هنـاك شريكان فى عمل رأسماله ثمانية آلاف دينار ، أحد الشريكين بار والآخر فاجر ، انفضت الشركة لأن الشريك الفاجر ضاق بصاحبه ، فهو لاحرفة له بينما الفاجر محترف ٠ ونسأل : لماذا لايكون المؤمن صاحب حـرفة ؟ وفى الحديث : « ان الله يحب المؤمن المحترف » !

وأخذ كل شريك نصيبه فاشترى الفاجر لنفسه دارا بألف دينار ٠ وتصدق البار بألف من عنده لتكون له دار فى الجنة ! ٠

ونسأل : لماذا لاتكون للرجل الصالح دار فى الدنيا ؟

ثم تزوج الفاجر بألف دينار ، فتصدق الرجل بألف دينار لتكون له زوجة من الحور العين فى الآخرة ! ونسأل : لماذا لايتزوج هذا التقى بامرأة ينفق عليها ويعف نفسه ويعفها وتكتب له أجور وحسنات فى الجنة لاحصر لها ؟

واشترى الفاجر بساتين بالألفين الباقية عنده ، على حين تصدق البار بألفيه نظير بساتين فى الدار الآخرة ، وبقى صعلوكا محسورا ·· وهذا التصرف مرفوض شرعا ·

ولكن الطبرى ، وابن كثير حكيا القصة ، على أن سياقها يشهد لقراءة أخرى

﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾

بتشديد الصاد أى المتصدقين ! وأسهب ابن كثير فى شرح هذه القصة على نحو مثير ذكرت معه قصة الصوفى الذى وصف حظه من هذه الدنيا بقوله ··

ليس لى والد ولا مولود
لا ولا حزت مذ عقلت عيالا !
أجعل الساعد اليمين وسادى
ثم أثنى ـ اذا انقلبت ـ الشمالا !

وهذا منطق يجتث الحياة من جذورها ! اننى بهذا القول لا أريد أن أصوغ قصيدة غزل فى جمال الحياة ، والاقبال عليها ، فأنا رجل مسلم أعلم أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، وأعلم أن تداعى الامم علينا سببه حب الدنيا وكراهية الموت ·

اننى أريد افهام المؤمنين أن الحياة فى سبيل الله كالموت فى سبيل الله جهاد مبرور ! وأن الفشل فى كسب الدنيا يستتبع الفشل فى نصرة الدين ! وأن الواجد الذى ينزل عما عنده خير من المفلس الذى لاينزل عن شىء ، لأنه لايملك أى شىء ··

ان السلبية لاتخلق بطولة، لأن البطولة عطاء واسع ومعاناة أشد ·

هل نواجه هذه الحقائق ؟ ..

يخطىء من يحسب الدعوة الى الله عظة منبر حارة الأنفاس أو باردتها ، ان هذه العظات جليلة القدر عندما تذكرنا بالله وتدفعنا الى مرضاته وتصدنا عن سخطه ، ولكنها بعض أساليب التعليم والتربية ، ولا تمثل الا جزءا يسيرا من النشاط الاسلامى الرحب .

ان الدعوة تعنى عرض الاسلام كله ، وشرح كتاب جعله الله تبيانا لكل شىء ، وتقريب نبوة جعلها الله ريادة الى ميادين الكمال الانسانى كله .

ومن هنا فلابد أن يكون الداعى مستكمل الزاد من جميع العلوم الشرعية والانسانية والأدبية حتى يقدر على تحمل هذا العبء واجتياز الدروب الشاقة به .

والمسلمون فى هذا العصر يواجهون حقيقتين مرتين ..

الأولى أن خلافتهم غاربة ، ووحدتهم الكبرى معتلة ، وشرائعهم معطلة ، وأخوتهم العامة منكورة ، ومنابعهم الفكرية كدرة ، وأخطاءهم القديمة باقية ، وأمانيهم فى المستقبل مشوشة ، والقوى التى هزمتهم من الخارج لاتزال مكشرة الأنياب ، والجراثيم التى هدتهم من الداخل لاتزال تسرح فى كيانهم دون وجل .

ما أشبههم بشركة تجارية أفلست تحت وطأة فوضى ادارية ، ومنافسات أجنبية ، فلما أرادت تجديد ذاتها واستئناف نشاطها أتت بجهاز يريد استحياء ذات الأساليب الأولى وتجديد نفس الظروف القديمة .

أريد أن أسائل كل غيور : لماذا لاندرس أخطاءنا ببصيرة وأناة وشجاعة .

لقد وصف الله الحق بخصائصه العظيمة عندما قال :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الرعد : ١٧)

ان الحق يرفع أصحابه وينفع الانسانية كلها ، و بالحق ساد سلفنا وأنشأوا حضارة أجدت على العالم واستظل بها الأعداء والخصوم ٠

فما الذى فقدناه نحن من عناصر هذا الحق الغالى ؟ فى مجالات الخلق والحكم والعلم والحضارة والقانون ، حتى هبطنا من الأوج الى القاع ٠

ألا ندرس بتواضع واخلاص ماعرانا حتى نحسن الخلاص من عللنا

يؤسفنى القول أننا نتعمد اهمال هذه الدراسة ، ونحاول الاستشفاء من أدوائنا بأدواء أخرى ، وعندما ألقى نظرة سريعة على رجال الدعوة وما يشغلهم من قضايا أشعر بالأسى ٠

أما الحقيقة الأخرى التى تواجه المسلمين المعاصرين ، فهى فى العالم الكبير الذى يبدأ مباشرة وراء دار الإسلام ٠

ان هذا العالم أضحى أشد منا قوة وأعز نفرا ، حتى عبيد الأصنام فجروا الذرة ومازلنا نحن نفكر ونؤمل ! لماذا لانعرف هذا العالم معرفة دقيقة صحيحة ؟

ان هناك نشاطا بشريا موارا يدور فى جوانبه ، أعنى أن نشاطه يتناول الخصائص العليا والغرائز الدنيا فى الانسان ، العقل يفكر بقوة والشهوة تنطلق بحدة ، والموازنة بينهما متروكة للفرد والمجتمع ٠

ويبدو أن التقدم العلمى والصناعى يتابع طفراته دون عائق كما أن التراتيب الادارية فى كل أفق يسودها نظام صارم ٠

ومع عرام النزوات الفردية والمظالم المرقية فان كفة الانسانية الأرقى لاتزال أرجح ٠

بيد أن ذلك لايحمل صفة الدوام ، فقد تنتحر هذه الحضارة بسبب

التناقضات التى تنتشر فيها ، أو بسبب تنكرها لله رب العالمين ورفضها الاعتراف به والاستعداد للقائه ٠

على أن تناحر الأقوياء لايجدى الضعاف اذا بقوا صرعى عللهم ، وعلى المسلمين أن يستشفوا أولا مما نزل بهم ، وآن يحسنوا الافادة من آثار الفطرة السليمة فى كل شبر من أرض الله ليمكن أن يرثوا الأرض ٠

ان أمامنا ــ نحن الدعاة المسلمين ــ مصدرين للمتاعب يجب التغلب عليهما ٠

الأول أسباب الهبوط الموروثة من تقاليد فكرية واجتماعية وسياسية تتبخر عندما تعرض على كتاب الله وسنة رسوله ٠

والثانى أمواج الغزو الثقافى التى انتهزت فرصة انحلال الشخصية الاسلامية وحاولت جعل الهزيمة العسكرية ارتدادا عاما عن الاسلام ٠

الحق أن المقاومة الاسلامية صمدت بنجاح ، بل انها استعادت بعض المراكز التى فقدتها ، وهى ماضية الى غايتها بعزم شديد ٠

لكن الهجوم متتابع ، ودواعى القلق تزيد ولا تنقص ، والأمر لايغنى فيه كفاح فرد ، ومنذ أربع سنين انعقد فى المدينة المنورة مؤتمر عالمى لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة تمت فيه مقررات حسنة ، والسؤال الآن : هل انتهت مشكلات الدعوة والدعاة ، واستغنى المسلمون عن عقد مؤتمر آخر ؟ ٠

الواقع أن الحال تتطلب مزيدا من الدراسات ، ومزيدا من المقررات التى تجد طريقها الى النور ٠٠ والمهم أن نصدق فى تشخيص عللنا ، وتتبع جذورها فى الماضى القريب والبعيد ٠

ان أحدا غيرنا لن يدفع ثمن المغالطة والخداع ، اننا وحدنا المسئولون ٠

مـراجعـة لا رجـوع

لا أزال ألح على مراجعة تفكيرنا الدينى ، وأساليب حكمنا على الأشياء والأشخاص .

لقد سقطت الخلافة العثمانية من ستين سنة ، وانفرط عقد الأمة الكبيرة على الصعيد العالمى ، وكانت خسائر « الرجل المريض » قد تلاحقت قبل وفاته ، ثم تقاسم الأقوياء تركته ، وأمست الأمة الاسلامية بلا أبوة روحية ولا ثقافية ولا سياسية ، فهل وقفت الأمة اليتيمة وقفة تأمل واعتبار فيما أصابها ؟

وهل تساءل العقلاء عن أسرار نكبتها ؟

كم كتابا ألف فى أسباب تخلفها الحضارى ؟

كم كتابا ألف فى تشريح العوج السياسى ، والقصور العلمى ، والانهيار اللغوى ، الذى عرا هذه الأمة ؟

كم كتابا ألف فى طبيعة التركيب الجنسى ، والخلافات العرقية التى كانت تكون الدولة الغاربة ؟

كم كتابا ألف فى تطور العلاقات الدولية مع جمود الفقه عندنا ، أو فى تطور النهضات الانسانية مع عكوفنا على الصور والأشكال الجوفاء ؟

بم شغلنا ؟ وبماذا نشتغل الآن ؟

ان مراجعة تفكيرنا الدينى ضرورة ماسة ، ولا أعنى بتاتا رجوعا عن أصل قائم أو فرع ثابت ، فهذا والعياذ بالله ارتداد مقبوح .

هناك فرق بين الرجوع والمراجعة .

اننى أعنى بالمراجعة : الحساب العقلى الشديد على مواقفنا من أنفسنا ودِيننا ، وماذا فعلنا ، وماذا تركنا ، وماذا قدمنا ، وماذا أخرنا ؟

وكل محاولة للنهوض ـ دون هذه المراجعة الواجبة ـ قد تكون تكرارا للمأساة ·

وهذه المراجعة سهلة ما دمنا ننطلق من قواعد معصومة ، أساسها الكتاب والسنة ·

على أنه لابد من ابعاد العقول الملتاثة عن علم الكتاب والسنة ، ولابد من تنقية منابعنا الثقافية حتى تروج أقوال الأئمة والعباقرة ، وأهل الذكر ، وتستخفى أقوال المعلولين وأذناب السلطات وأشباه العوام ·

أؤكد أننا لانبدأ من فراغ ، فالعلماء الراسخون كثيرون فى تاريخنا الطويل ، وان كان فساد الحكم قد طوى أسماءهم ، وأهان تراثهم وقدم عليهم من لايساوى قلامة أظافرهم ·

والآن ـ بعد ما دفعنا ثمن هذه الخيانات ـ يجب أن نراجع ثقافتنا وسياستنا ·

ان الحق يدعم صاحبه وينفعه ، والذى يعيش وفق جملة من الحقائق العقلية والخلقية والاجتماعية غير الذى يعيش فى عالم من الترهات والأباطيل ·

والاستيحاش من الحق أو الاستكبار عليه لايتركه القدر دون عقاب عاجل أو آجل ·· فان حافظ السموات والأرض لايترك أصحاب الهوى يفسدونهما كيف شاؤوا

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون : ٧١)

والمهم عندما نتيه عن الحق ألا يطول شرودنا عنه ، وأن نعرف بدقة ما الخطأ الذى ارتكبناه ؟ وما الصواب الذى نتشبث به ؟ ·

وفى تراب الهزيمة التى حلت بنا ماديا وأدبيا وقف مسؤول مخبول يقول : ان الصلاة والصيام هما علة ضعف الانتاج ·

وقلت ، وقال أهل الرشد كلهم : ان الطريقة التى وليت بها الحكم أيها المستبد الأعمى هى سر تخلفنا العام ٠

وقال أحد الزهاد : ان حب الدنيا وكثرة المال هما ٠٠ وقبل أن يتم حديثه ، قلت : الأمريكيون أكثر من العرب مالا وأعز نفرا ٠٠ وهم خير من العرب حالا ٠

وقال آخر كلاما لا أثبته ! ! ٠

ان علاج أمة ظلت قرابة ألف عام رفيعة القدر ثم هوت من حالق دائخة الفكر ، مضطربة الخطو ، لايمكن أن يتم بكلمات مرتجلة وأحكام نزقة ٠

أولى الخطوات الشجاعة أن نعترف بأغلاطنا ، وهى كثيرة ومفزعة ومتغلغلة فى ماضينا ٠٠ ثم نبدأ حركة التصحيح بتؤدة وعزم ومضاء ٠

ويحزننى أن أقول : ان جيشا من الدهماء يملأ آفاق العمل الدينى لايحسن درس القضايا ، ولا اصدار الأحكام ٠

والجنون مراتب ، هناك جنون مطبق يسقط عن صاحبه التكليف ، ويريح المجتمع من محاسبته ، ولا شأن لنا بهذا ٠

وهناك جنون جزئى يجمع بين المتناقضات دون حرج ! والى هذا النوع من الجنون يشير القرآن الكريم عندما يقول لنفر من أهل الكتاب :

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ٤٤)

نعم أين العقل فى هذا التصرف ؟ ٠

فى هذا الميدان رأيت نوعين من الناس ، نوعا لايستطيع الرؤية لعجز فى حاسته ، ونوعا يرى ولكنه مشدود بالهوى الى شىء آخر مسيطر عليه ، كلا النوعين لايصلح لعمل اسلامى محترم ، لأن الاسلام لايصلح له الا أولو الألباب ٠

والواقع أن سلامة التفكير واستقامة الخطو هما لباب الدين ، وأين تجد الدين مع الغباء المستحكم والعوج الغالب ؟ الدين عندئذ مراسم مجلوبة على فراغ ، ولا قيمة للتاج على رأس مجنون ٠

هناك آيتان تتحدان موضوعا وان تغايرتا أداء ٠٠ قوله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت : ٦٩)

وقوله تعالى :

﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود : ٥٦)

العمل الحسن المتقن الجيد هو الطريق الى الله ، وبقدر جهد صاحبه فى ابرازه على خير وجه ، وابتغاء وجه الله به ، تكون مكانته ، هذا معنى الآية الأولى ٠٠

أما الآية الثانية فقد أشار صدرها الى حقيقة فلسفية مقررة هى قيام الكائنات بربها ، واعتمادها فى وجودها وبقائها على ايجاده وامداده ٠

فمن تتبع هذا المعنى فى الأنفس والآفاق ، ولزم فى سيره هذا الخط القويم عرف الله ، وتجاوب مع وصاياه ، واستقر على هداه ٠

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود : ٥٦)

أى تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذى لايجور فى حكمه ، فانه على صراط مستقيم ، روى الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه قال :

قال : يأخذ بنواصى عباده ، فيلقن المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده ، يقول : ماغرك بربك الكريم ؟

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ، ودلالة قاطعة على صدق ماجاء به وبطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام التى لاتنفع ولا تضر ولا توالى ولا تعادى ، وانما يستحق اخلاص العبادة الله وحده لاشريك له ، الذى بيده الملك وله التصرف ، وما من شيء الا تحت ملكه وقهره وسلطانه .

وينظر صاحب المنار الى الآية من جهة أخرى فيقول :

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود : ٥٦)

أى على طريق الحق والعدل ، لايسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ومتبعيهم من أوليائه ! ولا يضيع حقا ولا يفوته ظالم .

وما يقوله الشيخ رشيد يقع بعد الاختبار المحتوم بين الحق والباطل وهو اختبار قد يتعرض فيه الحق للهوان، وقد يملك الباطل فيه السلطان ولكن الى حين ! ثم تكون العاقبة للمتقين .

ان كلا المفسرين الكبيرين وضح طرفا من الآية ، والذى أريد ابرازه أشمل وأخصر .

ان الذى يتحرى الحق ويلتزم منهجه ، ويحرص عليه ويتجنب الانحراف والزيغ لابد أن يصل الى الله ، وذلك معنى قوله تعالى :

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل : ٩)

قال مجاهد : « طريق الحق .. على الله » أى يدل عليه ويبلغ اليه حتما ويؤيد ذلك ابن كثير فيقول : أخبر سبحانه وتعالى أن ثم طرقا تسلك اليه فليس يصل منها الا طريق الحق ، وهى الطريق التى شرعها ورضيها وما عداها فطرق مسدودة والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال :

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾

أى حائد مائل ٠٠ والحائد عن الصراط المستقيم لايصل الى الله أبدا ٠

وعندما تبجح ابليس ، وظن أنه قادر على اغواء البشر ، أخبر رب العزة أن الطريق اليه لايتطلب عبقرية خارقة ، ولا يكلف مشقة بالغة ، انه طريق سهل قريب ممهد

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر : ٤١ ـ ٤٢)

والمقارنة بين خلال (صفات) المحقين والمبطلين تكشف عن طبائعهم وتحدد وظائفهم الاجتماعية ، فالبعداء عن الله لايعرفون الحق ولا يقولون به ؟ مواهبهم البشرية مطموسة وقدراتهم مشلولة ، ومن هنا فان مجتمعاتهم طافحة بالشرور ، مشدودة الى الوراء ، لاتقدر أن تقدم لنفسها ولا لغيرها خيرا ، وتدبر قوله تعالى يصف أولياءه وأعداءه :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل : ٧٦)

ان الأمة المسلمة حقا بريئة من الصفات الأولى ، معروفة بالصفات الأزكى والأرقى ، فهى مشهورة بالعدل آمرة به ، وهى فى الاسرة الدولية قوامة بالقسط فى كل مجال ، وهذا القيام ناضح من اقساطها فى حياتها الداخلية وبناء شعوبها على المعروف والحق ٠

أمر المسلمين لايقوم على دعاية كذوب ومزاعم جوفاء ، وما تقوم أمة على هذا الهزل ٠

الذى نرى أنه يداوى الجهل بالعلم ، والخطأ بالصواب ، وأنه بالتربية النفسية والعقلية يعرف المرء به ، وباستقامة اللب والقلب يلتقى المرء مع مولاه ٠

وأن التدين مع العوج الفكرى والنفسى نوع من الخبال تتجاور فيه المتناقضات ، وقد تضيع فيه الحقيقة ويبقى الشكل الذى لا وزن له ٠

وهذه الحقائق تشمل الأفراد والجماعات ، بل لعل آثارها السلبية والايجابية تكون أكثر وضوحا فى تاريخ الأمم منها فى تاريخ الآحاد من الناس ٠

ان الارتقاء العقلى والخلقى لمجتمع ما قد يغطى القصور لدى بعض الناس ، ولكن الارتقاء الجزئى لايغطى قصور الجماعات ولا يوارى سوآتها ٠

التقيت بالأستاذ الامام حسن البنا قبل يوم من استشهاده ، وعانقته وأفزعنى أنى عانقت عظاما معلقة عليها ملابس ، كانت الهموم قد اخترمت جسد الرجل فلم تبق منه الا شبحا يحمل وجهه المغضن العريض ٠

وشرع يحدثنى كما يحدث أى تلميذ له ٠

قال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لعدت بالجماعة الى أيام « المأثورات » ٠

واستبنت مايعنى ، لقد واجهت قلة من المؤمنين طوفانا من المتاعب والمآسى نما مع الليالى السود ! أين الناس ؟ أين المسلمون ؟ ٠

وهؤلاء المصلون الخارجون من المساجد ! أما يهتمون بدينهم الموشك على الغرق ؟ انهم كثيرون لكن لا وعى ولا حراك ! ان القصور الفقهى والأدبى حولهم الى غثاء لاخير فيه ٠٠ ان السواد الأعظم يحتاج كل الاحتياج الى احياء تربوى طويل ، والمعركة قبل ذلك قليلة الغناء ! نعم سيضرب الدعاة جند أشبه بالآلات ، وسيقف الجمهور يتفرج ويتسلى كأن الأمر لايعنيه ٠

ألا نعيد النظر فى تفكيرنا ووسائلنا ؟ ٠

تذكروا الإسلام ... ياعرب

أريد أن أسأل العرب ـ وهم أمتى الكبيرة وعشيرتى الأقربون ـ هل درسوا علاقتهم بالعالم الاسلامى خلال هذا القرن ، أو خلال القرون الماضية ؟ ان هذه الدراسة مطلوبة ، وان الغفلة عن عبرها جريمة دينية وتاريخية ضخمة ! ان هذه الدراسة ليست عمل الساسة والحكام ، بل هى شغل الدعاة والفقهاء والادباء ، وتكاد تكون فى هذا العصر فريضة كذلك على الاجتماعيين والاقتصاديين .. لقد أفزعنى أن هناك نزعة مجنونة تشغل العرب بقضاياهم الخاصة ، وتصرفهم عن مشكلات العالم الاسلامى الواسع ، وتحبس التفكير والاهتمام فيما يمس المصلحة العربية وحدها ، أما ما وراء ذلك فالاشتغال به من فضول البحث أو لغو الكلام ، وظهرت هذه النزعة دميمة الوجه محقورة الفكر عندما أغارت الشيوعية على أفغانستان المسلمة ، فان دولا وجماعات عربية رأت أن هذه الغارة لاتقلق الضمير ! ! ولا ينبغى أن تشغلنا عن قضية فلسطين مثلا .. !!

الحق ان هذا الموقف يجعلنى اميط اللثام عن خيانات فاجرة اقترفها عرب كثيرون ضد الاسلام وضد المنتمين اليه فى شتى القارات فان السكوت عن ذلك طعنة نافذة تصيب الاسلام فى يومه وغده وتهدد امتنا الاسلامية الكبرى بأفدح التمزق والخسران .

ان المسلمين فى أوغندا ـ وفى مقدمتهم قبيلة الرئيس السابق عيدى أمين ـ يتعرضون لحرب ابادة ، ولا أحد يتحدث عن مصابهم . وكذلك المسلمون فى زنجبار وتانجانيقا والمسلمون فى الحبشة وأرتيريا والصومال ، أولئك كلهم يفنون فى صمت ! واذا تجاوزنا التبشير المكتسح فى وسط القارة ، قارة أفريقية ، وجنوبها وغربها وشرقها ،

وذهبنا الى قارة آسيا وجدنا المسلمين فى « تايلاند » تطاردهم مذابح البوذيين ، وهم أكثر من أربعة ملايين مسلم لانعرف عنهم شيئا ! ووجدنا كذلك حرب الاستئصال تجتاح جنوب الفلبين ، أما مذابح المسلمين فى الهند فهى أمراض متوطنة أو أمطار موسمية !

والتبشير الصليبى يأكل أندونيسيا ، والغول الشيوعى قبل أن ينشب أظافره فى أفغانستان كان يغتال مائة مليون مسلم فى روسيا والصين ! وعندما نتوجه الى أوروبا نرى مسلمى « البانيا » وهم الدولة الاسلامية الوحيدة على شاطىء الادرياتيك يهلكون دون ضجة أو صريخ وعلى غرارهم ضاع المسلمون فى دول البلقان كلها ، وذبحوا كقطعان غنم لا رعاة لها ! يحدث ذلك كله والعرب مشغولون بشئونهم الخاصة ، وقضاياهم التى لن تظفر بذرة من عناية السماء مادامـوا بهذه الاثرة السمجة ٠

كان الشيخ محمد رشيد رضا اذا أصبح مكتئب النفس مقطب الجبين قالت له أمه : مالى أراك حزينا هل حدث شىء لمسلم فى الصين ؟ ٠٠

كان الرجل مهموما بأمور المسلمين كلهم لأنه « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » كما جاء فى الحديث الشريف ٠

ماذا كسب العرب من ترك التناصر بالاسلام ؟ ماذا كسبوا من الانحصار فى جنسية ضيقة ؟ لقد ضلوا وأضلوا ، وضاعوا وأضاعوا ، ثم جاء يهودى من بولندا اسمه « مناحم بيجين » لينزل بأرض فلسطين ويقول لعربها : باسم التوراة هذه أرضى وأرض آبائى ، لا مكان لكم هنا لقد هتف باسم التوراة عندما قرر العرب أن ينسوا أو يتناسوا اسم القرآن ! وباسم التوراة طرد القضاة والعمد والخاصة والعامة والرؤساء والمرءوسون ٠٠ ترى أيقول واحد من أولئك التائهين عن وطنهم المغصوب : لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! ان البكاء على رباط العقيدة التى أوهيناها أول علائم اليقظة ، وأظن العرب قد آن لهم أن يستيقظوا فليس من بديل لليقظة الا الموت المحقق وخزى الابد !! ٠

العرب وغير العرب سواء فى أنهم خلقوا لعبادة الله وأداء حقوقه والاستعداد للقائه ٠٠ لكن العرب وحدهم أولى الأجناس بمعرفة الله والتزام حدوده ، اذ أن حاجتهم الى الدين تفوق حاجة غيرهم وفرص التسامى التى تتاح لهم يوم يتقون الله أضعاف الفرص التى تتاح لغيرهم

ان العرب جنس حاد المشاعر جامح الغرائز ، عندما يطيش يفقد وعيه وعندما يعقل يبلغ الأوج ٠٠ ولقد قرأت رأى ابن خلدون فى العرب ، وترددت فى تصديقه ثم انتهيت أخيرا الى أن العرب لايصلحون الا بدين ولا يقوم لهم ملك الا على نبوة ، وأن العالم لايعترف لهم بميزة الا اذا كانوا حملة وحى ، فاذا انقطعت بالسماء صلتهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وغشيهم الذل من كل مكان ٠

وتاريخ العرب الأقدمين مع الدين مثار عبرة ! لقد قرأت سير الأنبياء العرب مع أقوامهم وعجبت لضياع رسالتهم أمام عواصف التكذيب التى هبت عليهم من كل مكان ! فى جنوب الجزيرة العربية كانت عاد وسبأ وفى شمالها كانت ثمود ومدين وقرى المؤتفكة ٠٠ ان الرسل الكرام أعجزتهم الطباع المستكبرة والرذائل المتمكنة ، فمضت سنن الله تحصد المجرمين وتؤدب العاتين ٠ وجاء فى سورة هود ـ وهى نموذج لهذا التاريخ فى القرآن الكريم ـ قوله سبحانه :

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود : ١١٦ ـ ١١٧)

وشاء الله أن يتجدد العرب مع الرسالة الخاتمة ، ان الأوائل الذين بادوا فى حريق الجحود جاء من بعدهم من أخذ الكتاب بقوة ، وخدم الايمان بعزم ، وانتصب لحرب الجبابرة ببأس شديد ! والواقع أن الجيل الذى رباه محمد صلى الله عليه وسلم كان من طراز فذ ، لقد ألان

القلوب لله حتى بلت دموعها المحاريب ، وأخلص النيات فما بقى هوى ولا غش ، وتمهدت الميادين لنصرة الحق ٠

وقيل : ياخيل الله اركبى ! فاندكت صروح للباطل ماظن أحد أنها تزول ، وتلاشت أوهام وخرافات طالما حقرت الانسانية وأزرت بها ونشأت حضارة اسلامية أسهم فيها العرب وغيرهم فى ظل اخاء عام وفطرة سليمة ٠

ولكن العرب نسوا معقد شرفهم وعروة مجدهم ، وظنوا أنهم بغير الاسلام يمكن أن يكونوا شيئا ٠٠ وقوى هذا الشعور أو ضعف حسب انكماش الايمان وامتداده ٠

وجاء دور الهزيمة العامة فى تاريخ العرب الاخير ، والعرب يفخرون بأصلهم لا بدينهم ، ويتحدثون عن دمهم لا عن نسبهم الروحى الثاقب ٠

ولعل أغرب مفارقة فى تاريخ الحياة كلها أن يقبل اليهود فى موكب تقوده التوراة على حين ينسى العرب قرآنهم ، بل تستعجم لغتهم على أفواههم فما يحسنون النطق بها ٠

وبديه أن تتلاحق المخازى فى شئون العرب السياسية والاجتماعية ، وألا يبدو لهم نصر فى أفق من الآفاق ٠ كيف ؟ وقد تيقظت الشهوات ، وصرخت الاثرة وشرع العرب المعاصرون يحيون كما كانت عاد وثمود ، يبطشون بطش الجبابرة ولا يروى لهم عطش الى الملذات الحرام ٠٠ لقد قرأت فى احدى الصحف خبرا يذكر بمرور سبعين عاما على مأساة دنشواى أيام الاستعمار الانجليزى ، وقلت فى نفسى : ماتكون مأساة دنشواى الى عشرات ومئات القتلى الذين أودى بهم الاستعمار الداخلى

ان العرب ــ بعيدا عن الاسلام ــ لن يكونوا الا حطب جهنم ! ذاك فى الدار الآخرة أما فى هذه الدنيا ، فان العرب بعيدا عن الاسلام سيأكل بعضهم بعضا ، ثم يأكل بقيتهم اليهود والنصارى !

اذا كان الدين ضرورة انسانية لرشد الناس ، وقيامهم بحقوق خالقهم ، فان الدين للعرب هو الهواء الذى يبقى حياتهم ، أو الغذاء الذى يمسك كيانهم ، فليروا رأيهم ، ان شاءوا الحياة أو شاءوا الممات٠

دُنيـــا وآخـــرة

التعريف بالآخرة حق ، وهو شيء آخر غير التجهيل فى الدنيا ! كما تحدث انسانا عن مستقبله وضرورة الاعـداد له ولا يعنى ذلك بداهـة لفته عن حاضره وصرفه عن مواجهته ..

لكن بعض المربين والدعاة تغيب عنه هذه الحقيقة فيسيء أكثر مما يحسن ، ويترك فى النفوس انطباعا بأن الدين عدو الدنيا ، وأن أحدا لايبلغ حقيقة التقوى الا اذا عاش وهو يعانى كآبـة المنظر فى الأهـل والمال ، أو الا اذا عاش وهو جاهل بحقائق الحياة وقوانين المـادة وسنن الله فى كونه . واختلال الميزان العقلى فى هذه النظرة السـيئة أنشـأ أجيالا من المسلمين لاتفقه دينا ولا تملك دنيا ، بل لعله من أهم الأسباب فى التخلف الحضارى الذى أهان المسـلمين فى المشـارق والمغـارب .. نحن لاننكر أن الدين أطال الحديث عن الدار الآخرة ، وبث فى النفوس الأشواق الى نعيم الجنة كما بث فيها المخاوف من عذاب النار ، لكن هذا الاسهاب فى الوعد والوعيد هو لتهذيب الغـرائز وكبح جماحها ، ومنع طغيان العاجلة على الآجلة ، واخراج المرء من القوقعـة الأرضيـة التى يحتبس داخلها غالبا ، وفتح بصيرته على آفاق أوسع وحياة أخلد .

أما القصور فى فهم الدنيا ، والضربة على سطح الأرض ، والعجز عن امتلاك زمام الحياة ، فهذا كله لايـدل على تقـوى ، بل يـدل على طفولة فكرية يضار بها الدين وتنكس بها الويته وتتقهقر بها تعاليمه . وليت شعرى ماذا يغيب الاسـلام من رجـل مكن الله له فى الأرض فلـم يتمكن ، أو جعلها له ذلولا ليركبها ويبلغ بها غايته ، فاذا هى تجمح به ، وتسقطه من فوق ظهرها . فاذا هو طريح الثرى والعجز ؟ .

وما العمل اذا استطاع ملاحدة ومخرفون امتلاك أسرار الحياة ، ثم طوعوا مايملكون لدعم كفرهم وتغليب أهوائهم ؟ ٠

اننى أشعر بالأسى لأن نفرا من المتحدثين فى الدين ليس على مستوى هذا الحديث ، وقد قال علماؤنا : انه لكى يصح العمل ويقبل لابد من صدق النية وسلامة الطريق ! ويعنى سلامة الطريق ، أو صحة الطريقة بعبارة أجلى ، أن يتم العمل وفق العقل أو النقل فلو أن امرءا صام عن الكلام لا عن الطعام ماقبل صومه ، ولو أن امرءا صلى بغير ركوع ولا سجود ما قبلت صلاته ، لابد من موافقة الشارع فيما رسم ، كذلك لابد من موافقة العقل فيما وكل الينا شكله وموضوعه ، فلا يقبل جهاد بالعصا فى وجه الدبابة ، ولا جهاد بالخيل فى وجه التفجير الذرى ! والغريب أن الأعمال الصالحة فى هذا الميدان العقلى أضعاف مثيلاتها فى الميدان النقلى ! والمسلمون المعاصرون فى كلا الميدانين زائغو البصر مضطربو الخطى ، والخلخلة التى تسود أجواءهم العلمية تثير الفزع ، وتجعلنا نخشى على المستقبل ٠

وسمعت خطيبا يشرح سورة « التكاثر » ويزهد الناس فى الدنيا ويسوق نصوصا أكثرها مقبول بيد أنى شعرت بحيرة ، وكنت أقرب الى الضيق منى الى الرضا ٠٠ ان النهى عن الأكل فى صحاف الذهب والفضة وارد ، غير أن سوق هذا الى الخدم والعمال لامساغ له ! والأمر بالعدل بين الزوجات مطلوب وتوجيه هذا الكلام الى نزلاء السجون شىء مضحك وما أزعم أن عامة المسلمين أحسنوا مواقفهم من الدنيا واستغنوا عن النصح الطيب ٠ فأغنياء المسلمين وفقراؤهم سواء فى الحاجة الى فهم طبيعة الحياة ، سواء قل نصيبهم منها أو كثر ٠٠ ان كلمة « ألهاكم التكاثر » بالغة الدقة فى تصوير رذائل الحياة ، هناك تنافس مجنون على جمع الحطام شغل أصحابه عن الوظيفة الصحيحة للمال ، ذلك أمر مذموم يقينا ، لأنه عبادة للدنيا وذهول عما وراءها ٠ أما الأموال التى قال الله فيها :

﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفاً﴾

(النساء : ٥)

فان جمعها وتنميتها حق ، والمفروض أنها لاتلهى مؤمنا عن واجباته ، بل هى صون لهذه الواجبات وتحصين لها ، محور هذه السورة هو التعريف بالآخرة لا التجهيل فى الدنيا ولا التزهيد فيها ان هذا الاعلام بحقائق الآخرة تكرر ثلاث مرات فى قوله تعالى :

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

(التكاثر : ٣ ـ ٤)

والتعريف بالآخرة ليس تجهيلا بالدنيا أو صرفا عنها كما يتصور البعض فربما أوجب عليك الاسلام أن يكون لك مال قارون ، على ألا يكون لك كبره أو شحه أو فساده .

ان الصعلكة لاتقيم جهازا للجهاد ولا تبنى جامعة للمعرفة ، انما ينشىء ذلك كله كثرة لاتلهى وسعة لاتطغى ودنيا يسخرها مالكها لخدمة الدين .

عبادة يستغربها العصر الحديث

أظن الحضارة الحديثة تكره الصوم وتنكر فلسفته ! فهى ـ بشقيها الغربى والشرقى ـ تعبد الجسد ، وتلبى رغباته وتستغرب اعتراضها ، ثم هى لاتمد البصر الى أبعد من هذه الحياة الدنيا ، فما بعد الموت وهم لامساغ لتصديقه ولا للاعداد له! ويعنى ذلك اشباع النهمة الى هذه الحياة العاجلة ، وانتهاز الفرصة للوجود هنا كى ننال كل شىء ، اذ لاشىء بعد ·

وقد صور القرآن الكريم هذا الاحساس المادى المغرق بقوله :

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾
(الحجر : ٣)

والتشبع من الحياة قبل أن تنتهى ، وينتهى معها الوجود كله هو تفكير الجاحدين للألوهية ، المستبعدين لليوم الآخر ، المعولين على أعمارهم فوق هذا التراب وحده! وربما كان ذلك مسلكا شاذا أو نادرا بين الأقدمين ، ولكنه الآن مسلك شائع بين جماهير من الضائقين بالأديان سقيمها وسليمها ·· وهؤلاء يقيناهم المعنيون بقوله سبحانه :

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾
(محمد : ١٢)

ان أحدا من هؤلاء لايفرط فى تناول طعامه ، بل لايفرط فى تناول سيجارته من أجل ثواب يتخيل ، انه عبد يومه وحسب ·· وقد نتساءل : كيف يوصف أولئك « المثقفون » بأنهم يأكلون كما تأكل الأنعام مع أنهم يحسنون التفكير والانتاج ؟ والجواب أن الأكل عند هؤلاء مصدر الطاقة اللازمة للبدن والرفاهة المطلوبة للحياة فهو غاية تقصد لذاتها ،

ولا يقبل ارجاؤها أو انتظار بديل عنها فى عالم الغيب ، ان المتعة فى هذه الدار وحدها ، وذاك ماشرحته آيات أخرى :

﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (غافر : ٧٥)

أو قول الله فى تحديد الدائرة التى يحيا الكافر داخلها :

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ (الانشقاق : ١٣ ، ١٤ ، ١٥)

وشريعة الصيام لها محور آخر تدور عليه ، وأشواق أخرى ترنو اليها ، وهى تناقض مناقضة تامة قصة أن الحياة جسد لا روح ، ودنيا لا آخرة .. اننا نحن المسلمين نعتقد أن الوجود الانسانى طويل ذاهب فى الطول ، وأن الموت ليس نهاية له كما يتصور البعض ، اننا بالاسلوب الذى نحيا به هنا ، نصنع المستوى الذى نحيا به هناك ، فاذا عرفنا ربنا فى هذه الأرض نضر وجوهنا يوم لقائه ، وكان لنا عنده مهاد صالح . أما عبيد التراب فالويل لهم !

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الاعراف : ٤٠)

بيد أن الأمر يحتاج الى مزيد من الشرح،فان بعض المتدينين ظن ذكر الآخرة اضاعة للدنيا ، وظن ترجيح الروح توهينا للجسد ، وحسب أن التسامى الروحى وكسب نعيم الآخرة انما يتمان على حساب عافية واهنة ودنيا غلبها الذبول ! .

والحق أن هذا جهل بالاسلام وظلم لتعاليمه ، فان الدين لم يطلب أكثر من احكام الرقابة على الغرائز البشرية حتى لاتطغى وتزيغ ،

والمرء اذا استجاب لكل رغبة ، وسارع لكل شهوة فقد كرامته وأدبه لا محالة ! ويعجبنى قول الشاعر العربى :

إذا الْحلم لم يَغْلِبْ لك الجهلَ لم تَزَلْ
عليك بروقٌ جمَّةٌ ورواعدُ !
إذا أَنت لم تترك طعاماً تحبه !
ولا مقعداً تُدْعَى إليه الوَلائدَ !
تجلَّلَت عاراً لا يزالُ يشبُّه
سِبَابُ الرجالِ نثرُهُمْ والقصائدُ

نعم فلابد من ضبط النفس وكبت شهوات كثيرة تهدم ولا تبنى وتقعد ولا تقيم ·· وهذا معنى الصوم ، وأثره المنشود ،

ولاشك أن قمة الكمال فيه أن يتم ايمانا واحتسابا ، فان الفضائل كلها تتهاوى وتفقد رصيدها السماوى عندما يقارنها الرياء أو الغش ونسيان الله ·· والدين يضع الدنيا موضعها الصحيح ، فلا يبخسها ولا يغالى بها ، لو كان عمر الآخرة عشرة أضعاف عمر الدنيا لوجب توزيع الاهتمام على شئون الدنيا والآخرة بهذه النسبة ! فكيف والآخرة أخلد وأجدى ؟ ومع ذلك فان الدين ما استهان بالدنيا ، وانما رفض الاغترار بها والتكاثر فيها والاحتباس فى مآربها

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران : ١٤)

فهل نفهم هذه الحقائق العالية من رمضان ومن فريضة الصيام فيه والقيام فى لياليه ؟ ان سعارا ماديا محرقا يجتاح المدن والقرى ليباعد الناس عن ربهم ، وعلى المؤمنين أن يطفئوا هذا السعار ، وأن يحموا حقيقة الشهر المبارك وأن يجعلوا من الصيام المفروض مجلى للروحانية المقبلة على الله المؤملة فى رضاه ·

في ترتيب السور

أحيانا أشعر ـ وأنا أتلو القرآن ـ ببعد المسافة الزمنية بين سورة وسورة ، أو آية وآية ، وأتساءل : هل اشعار القارىء بهذه المسافة البعيدة مقصود فى سوق الآيات وترتيب السور ؟

ولأضرب مثلا لما أعنى ، فى الجزء الأخير من المصحف الشريف تعقب سورة النصر سورة الكافرين وسورة النصر من آخر مانزل بالمدينة المنورة وسورة الكافرين من أول مانزل بمكة المكرمة ، أى أن بين السورتين أكثر من عشرين سنة يطويها القارىء فى لحظات سريعة وهو ينتهى من هذه ويبدأ فى تلك ٠

السورة الأولى نزلت فى غربة الدين وعناء الدعاة وعناد الكافرين نزلت لترسى دعائم التوحيد العملى ، وتمهد له الطريق مهما فدح الثمن وازدادت العوائق ٠

والسورة الثانية نزلت وبشائر النصر تلوح فى كل أفق والقبائل التى نفرت من التوحيد أول أمرها أخذت تثوب اليه وتقبل عليه ، وصاحب الرسالة العظيم يستعد للعودة الى ربه بمزيد من التسبيح والاستغفار بعدما قضى العمر فى جهاد يضنى الابطال ويوهى الجبال ٠

كلتا السورتين تقابل الأخرى كأن الأولى تصور البذر والاخرى تصور الحصاد ! وأتساءل مرة أخرى : هل هذا الشعور مقصود فى ترتيب السور ؟ ٠

ويعود السؤال على نحو آخر عندما نتدبر سورة ق المكية بعد سورة الحجرات المدنية ٠ ان السورة المدنية تبرز طائفة من الآداب المطلوبة فى مجتمع مستقر ، له قيادة يجب توقيرها واحسان التلقى عنها ، مجتمع له مشكلات يجب التلطف فى حلها كى تبقى الأمة موحدة الصفوف واضحة

الهدف ٠٠ أما السورة المكية فان الكلام فيها طال عن البعث والجزاء ، وعن قمع الطبائع المتمردة بأهوال النار وشدة الحساب ، أو استهواء النفوس النائية بالخيرات الحسان والمغفرة الشاملة ٠

وبين السورتين قرب معنوى وان فصل بينهما مكان وزمان ٠ فان الأخلاق الزكية والسير الطاهرة انما تنبجس من قلب مؤمن ، يعرف الله ويتهيأ للقائه ويرجو وعده ويخشى وعيده ٠

ان الايمان بالله واليوم الآخر هو العدو الأول للاباحة والفوضى والعنصر الأول للتسامى والأدب ! وكأن مجىء سورة ق بعد سورة الحجرات تذكير بمصدر الطاقة الروحية وراء كل تربية ناجحة واتجاه سليم ٠

ان القرآن الكريم كتاب تدور معانيه على محاور متقاربة وغايات متشابهة ٠ وتوضيح هذا قد تعنى به التفاسير المطولة ، وانما نلفت النظر هنا الى شىء ذى بال ! أن الموضوعات الكثيرة التى يستعرضها الكتاب العزيز تتعاون كلها على تكوين عقل مؤمن أو قلب بصير يستطيع الاستقامة فى الدنيا والانتصار على همومها وعقدها ٠٠ ذاك مايصنعه القرآن وهو يصف الكون ، أو حين يروى تاريخ الأولين ، أو حين يعرض مشاهد الحساب والثواب والعقاب ، أو حين ينشىء العبادات ويقوم الأخلاق ويزجر عن الآثام ٠

ان هذه القضايا القرآنية تتساوق كلها على بناء انسان سوى المواهب العقلية والخلقية ، مأمون الحكم ، محترم الفطرة ، معتدل المنهج محيط بأطراف الدين مدرك للنسب القائمة بين فروعه وأصوله ٠

ومن ثم فاننى لم ألق بالحفاوة رجلا يشتغل بالدعوة كان قليل التلاوة للقرآن ، قليل التدبر فى معانيه ، وهو فى الوقت نفسه كثير الاشتغال بالأحاديث ، طويل الانكباب على بعض أبوابها ٠٠

قلت له : ان الاسلام يقوم يقينا على الكتاب والسنة ، وقد اتفق العلماء على أن الكتاب الكريم هو الأصل الأول ، وأن السنة مبينة

ومفصلة ·· وقد يحتاج الصيادون الى كل ماورد فى الصيد من سنن ، وقد يحتاج اللحادون الى كل ماورد فى الأكفان والأغسال من سنن ·

أما الصورة العامة للاسلام ورسالته العظمى فلها شأن آخر ينبغى أن يعرفه عارضو الاسلام فى هذا العصر المواز بشتى الفلسفات والنزعات ··

وعلاقة المسلمين بقرآنهم هى أسمى العلاقات وأرسخها ، ولذلك يجب أن ندع نفوسنا للقرآن الكريم يشكلها بتوجيهاته وهداياته ويضبط اهتمامها بشعب الايمان فلا يطغى فرع على أصل ولا يموت فرع بازاء أصل ··

ان الموظف فى ديوان المحاسبة قد يحيا فى عالم من الأرقام ، ولكن هل العالم كله أرقام ؟ ان الاسلام دين تحدث فى شئون الحياة كلها ، بيد أن القرآن الكريم هو الكتاب الذى أعطى الخطة العامة والملامح الرئيسية ومجموعة الظلال والأضواء التى تكشفها ·

طبيعة لم تغيرها القـرون

قديما ، لما مس بنى اسرائيل الضر وطالت عليهم الأيام النحسات تحت حكم الفراعنة ، قالوا لنبيهم الكبير موسى عليه السلام :

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الاعراف : ١٢٩)

واستمع موسى الى شكوى قومه، وهو بهم خبير، وتساءل فى أعماقه: ترى ماذا تكون حالهم اذا ملكوا أزمة السلطة واستطاعوا تصريف الأمور ؟ أيكونون خيرا من الفراعنة وأدنى الى مرضاة الله ؟ أم يكونون شرا من الفراعنة وأقبح سيرة وخلقا ؟

ولم يصارح موسى قومه بما يدور فى نفسه ، واكتفى بأن قال لهم هذه الكلمات :

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الاعراف : ١٢٩)

وهى كلمات لها دلالات بعيدة تحمل قدرا غير قليل من الريبة فى مستقبل بنى اسرائيل لو حكموا ووقعت فى أيديهم مصاير الآخرين ..

وشاء الله أن تزول دولة الفراعنة ، وشاء أن تقوم لبنى اسرائيل ـ فى التاريخ القديم ـ دولة ! ونظر الناس الى المستضعفين القدامى وقد أصبحوا سلاطين ينهون ويأمرون . وعجبت الدنيا لأن لونا آخر من الفراعنة قد برز ، وصورة أخرى من الجبروت قد ظهرت ، ان اليهود لما حكموا تنفست فيهم غرائز الشر والجور ، وسيطرت نوازع الأثرة

والقسوة ، وقطعت رؤوس أنبياء كرام ، ورجال عدول ! وأصبح لكلمات الشرف والوفاء رنين النقود المزيفة فاختفى التعامل بها على حين شاع الربا والغنا .. أكان موسى يخشى ذلك كله من قومه عندما قال لهم وهم تحت أقدام الفراعنة :

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

على أية حال أذن القدر لدولة بنى اسرائيل الأولى أن تقوم ، وانتشى القوم بخمرة القوة فعربدوا ماشاءوا ، وملأوا الأرض بالازمات الروحية والخلقية ومفاسد الاستعلاء والهوى ، ثم طويت رايتهم كما طويت راية الفراعنة من قبل مصداق القانون الالهى الصارم ..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (آل عمران : ٢١ ـ ٢٢)

وتوارث الناس بعدئذ أن اليهود اذا ملكوا اختفت من الأرض العدالة والبركة ، وأن عواقب نقضهم لعهد الله تتبعهم حيث كانوا ، نعم لقد أخذت عليهم المواثيق أن يؤمنوا فلا يكفروا وأن يصلحوا فلا يفسدوا وأن يعدلوا فلا يظلموا ، والغريب أنهم يقترفون شر الآثام ثم يرتقبون جزاء المؤمنين المصلحين الأوفياء .. ! وتقوقع اليهود عمدا فى الحارات التى اختطوها لأنفسهم داخل المدن الأوربية الكبيرة . وذلك كيلا تذوب شخصيتهم وسط الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها ، وبقى لهم طابعهم الفذ المنحرف الذى يدعى الأصالة ، أو الطريد الذى يدعى أنه المختار ! .

ومنذ حاولوا قتل عيسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ظلت جراثيم الفتك بكل مصلح تسرح فى دمائهم ، وتغريهم بأقبح الفعال • ولم يكن مستغربا أن تتنكر الدول الأوربية كلها لهم على امتداد الأعصار والأمصار •• وانما كان موضع الغرابة أن يستدير بنو اسرائيل الى العرب فيبطشوا بهم ، وينالوا منهم ، ويمحوا معالمهم ، ويدكوا قراهم ، ويشتبكوا معهم فى صراع فناء ! •

والغرابة تجىء من أن العرب أحسنوا الى اليهود ، ولم يحاول حاكم عربى ابادتهم طوال القرون الماضية على حين حاول ذلك الأوربيون جيلا بعد جيل ! قال لى صديق ـ بعد أن ضرب اليهود المفاعلات الذرية ببغداد ـ ليس هذا أول غدر للقوم ولن يكون الآخر ! ان اليهود اغتالوا عددا من علماء الذرة العرب ، الرجال والنساء ، قتلوهم فى معاهد العلم أو فى الفنادق التى ينزلون بها • وهم سيغيرون على أية عاصمة عربية أو اسلامية تخاصمهم دون رعاية لأى عهد دولى أو محلى ! • وصوت اليهود يعلو عن القيم والأخلاق أيام ضعفهم وحسب فاذا ملكوا القوة تحركوا فى كل اتجاه ، وضربوا بكل سلاح •• ومادامت العصا التى تردع غائبة فلا شىء يمنع الغزو والسطو والتبجح والصياح•

ان القرآن وصف هذا المسلك الخسيس بأنه ليس سلوك بشر طيبين وانما هو سلوك حيوانات شرسة :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (الانفال : ٥٥ ـ ٥٦)

وعلاج هذه القطعان الخئون لايكون بالهوادة والرفق ، بل ارقبهم واستعد لهم فاذا تحركوا للغدر فاضرب من ظفرت به ضربة يطير لها قلب البعيد ، وتنفض بها جموع الخونة

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ﴾ (الانفال : ٥٧ ـ ٥٨)

فى المأساة التى تمر بالعرب الآن لا ألوم الا اليد العزلاء بين المخالب المفترسة ، والعين الهاجعة بين العيون الخائنة ، والصف المختل أمام جبهة متساندة من الجزارين العتاة ٠

قلنا انه عندما يتحول التدين الى حركات بدن ، واتقان شكل ، فان حقيقته تضيع وغايته تبعد أو تتلاشى ٠

المعنى الأصيل للتدين أن يكون حركة قلب ، ويقظة فكر ، أما المراسم الجوفاء والصور الشاحبة فلا دلالة لها على شىء ، ومن عجز عن تصحيح قلبه ولبه فهو عما سواهما أعجز ، ويوم يتولى عملا ما فى المجتمع فسوف يكون نموذجا للفشل لانه لن يدفع تيارات الحياة الى حيث يجب ، بل ستدفعه هذه التيارات الى حيث تشاء ٠

وهنا الهزيمة الشنعاء للدين والدنيا ٠

والتدين المغشوش يبدأ بعقد صلح بين الهوى الخاص والتوجيه الأعلى ، وبطريقة ما يبلغ المرء غرضه مع حسبان أنه لم يغضب الله ! كذلك فعل اليهود عندما وجدوا السمك يجىء كثيرا يوم السبت ـ والصيد فيه حرام عندهم ـ ويكاد يختفى بقية الأسبوع ٠

هكذا اختبرتهم الاقدار ، فكيف يحتالون لصيد السمك الكثير دون العدوان على السبت ؟ صنعوا حاجزا وراء السمك المقبل ، وتركوه فى الماء وديعة محفوظة ثم استخرجوه يوم الأحد ٠

قوله تعالى :

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يفْسُقُونَ﴾

(الاعراف : ١٦٣)

والحيلة مكشوفة ، ولكن الشهوة الغالبة يعنيها فقط ان تمضى فى طريقها ٠

وقد جاء الاسلام بجملة من الضوابط الخلقية والفكرية لتبرئة التدين من هذا العوج ، ولاستبقائه نقاوة فى الصدر وشرفا فى القصد واستقامة على النهج واستشرافا للرضوان الأعلى ٠

ويتجلى ذلك فى تصحيحه للمفاهيم الشائعة ، أو فى تجلية معان قد يذهل عنها الجمهور الكبير لانه مرتبط ذهنيا بالمعانى القريبة ٠ فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأعراضهم ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ٠٠ والغنى غنى النفس والطمع هو الفقر الحاضر ٠٠ انك تلمح فى هذه التوجيهات كيف يتحول التدين من كمال نفسى الى كمال اجتماعى ، وكيف تنضح التقوى على البيئة فتملؤها بالنظام والعفة والأمان ٠ ولما كان العرب تجارا يكرهون الكساد والافلاس ، فقد استغلت هذه الغرائز فيهم ليطلبوا الاشرف والازكى ، فقال تعالى :

﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف : ١٠)

وجاء فى الحديث الصحيح هذا التساؤل الذى يحول الايمان الى سلام وشرف وخلق رفيع : « أتدرون ما المفلس ٠ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع ٠ فقال : ان المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة

بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا » ٠

انه مفلس ، لأن عبادته كلها طاشت فلم تغن عنه شيئا بعدما اقتص رب العبـاد منه ٠

ان التدين ليس شقشقة لسان ، أو عادات أعضاء تلتوى وتنفرد ، انه قبل كل شيء قلب سليم وفكر مستقيم ، ينشأ عنهما مجتمع كريم ٠

على هذه الطريقة فى تحـديد المفاهيم الصحيحة ، ولفت البصائر الى حقائق اثمن ٠

تـأملت فيمـا ذكـره البيـهقى مرويـا عـن النبـى صلى اللـه عليه وسلم : « هل تدرون ما الشديد ؟ قلنـا : الرجـل يصرع الرجل ! قال : ان الشديد كل الشديد الرجل الذى يملك نفسـه عند الغضب ٠ اتدرون ما الرقوب ؟ قلنا : الرجل الذى لايولـد له ! قـال : ان الرقوب الرجل الذى له الولد ولم يقدم منهم شيئا ـ يعنى فى سبيل الله ـ قال : أتدرون ما الصعلوك ؟ قلنا : الرجل الذى لا مال له ٠ قال : ان الصعلوك كل الصعلوك الذى له المال لم يقدم شيئا ـ لله تعالى » ٠

ان الشـكليات التى أولع بها نفـر قليـل أو كثيـر من المتدينين لاتزيدهم من الله الا بعدا ، ولا تزيدهم للاسلام الحنيف الا ظلما ٠

فهل نعود الى الحقائق المجردة نهتم بها ونعول عليها ؟ ٠

حـديث مظلـوم

حديث يعطى معناه للوهلة الأولى حكما لم يقل به الفقهاء ، ومن ثم فان قبوله مطلقا أو رفضـه مطلقا لايجـوز ! والواجب استبانة معنـاه الحقيقى كما قرره الراسخون فى العلم ٠

والحديث من رواية البخارى « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله ، فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها ٠٠ » مصدر الخطأ فى الفهم كلمة «أقاتل الناس» فقد طارت أذهان الى ان كلمة (الناس) تعنى البشر كلهم ! ٠

وهذا غلط باجماع العلماء فانهم اتفقوا على أن الحديث لايتناول أهل الكتاب من يهود ونصارى ٠

لماذا ، لأن المعتدين من هـؤلاء اذا ضربت الحـرب بيننـا وبينهم ، ونسوا منطق الايمان والحلال والحرام فى تصديهم لنا ، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين بـل اذا كسر الله شوكتهم ، بقـوا على أديـانهم ، وجردناهم من اسلحة العدوان ، وتولينا نحن الدفـاع عنهم اذ هاجمهم احـد ٠

وعليهم ـ والحالة هذه ـ ان يسهموا فى نفقات الحرب ٠

وهذه ما أبانته سورة براءة :

﴿ قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

(التوبة : ٢٩)

فليست الغاية من القتال اذن ان يقولوا : لا اله الا الله ، كما جاء فى الحديث ٠

فاذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور ، فهل هو يتناول الوثنيين كلهم ؟ والجواب : لا ! ففى حديث آخر صحيح الحاق للمجوس بأهل الكتاب « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » ٠

الحق ان الحديث فى مشركى العرب الذين ضنوا على الاسلام وأهله بحق الحياة ، ولم يحترموا معاهدة مبرمة ، ولا موثقا مأخوذا ٠

وقد منح هؤلاء أربعة شهور يراجعون أنفسهم ويصححون موقفهم ، فان ابوا الا القضاء على الاسلام وجب القضاء عليهم ٠

وقد فصلت سورة براءة هذه القضية فى أوائلها :

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة : ٤)

اما من نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده الى آخر رمق فلا يلومون الا انفسهم ٠

وقد يتساءل البعض : لماذا جاءت كلمة الناس عامة فى الحديث « امرت ان اقاتل الناس » والجواب ان (الـ) كما يقول علماء اللغة للعهد ، تأمل قوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾

(آل عمران : ١٧٣)

فكلمة الناس الأولى : تعنى بعض المنافقين ، والثانية : تعنى بعض الكفار وهذا هو المعهود فى أذهان المخاطبين وتأمل قوله تعالى :

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً﴾

(النصر ٢)

ان الناس هنا ليسوا البشر جميعا ، انهم العرب وحسب ٠

رأيت فريقا من الناس يخدعه الظاهر القريب فى هذا الحديث فيتوهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام يشن حربا شاملة على البشر • ولا يزال يحرجهم حتى ينطقوا بالشهادتين •

وهذا فهم ـ كما أسلفنا ـ لم يقل به فقيه ، ولا يستقيم مع مرويات أخرى فى غاية الصحة والوضوح •

ولم يؤثر عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون « الامبراطوريات » الاستعمارية التى اظلم بها وجه الحياة قرونا عدة •

ورأيت ناسا آخرين يسارعون الى تكذيب الحديث ، دون وعى ، ويتخذون منه ذريعة الى مهاجمة شتى الاحاديث الصحيحة دون تمحيص لسند أو متن ، ودون تقيد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق •

وقد رأيت لأولئك القاصرين أفهاما فى كتاب الله لابد من محاربتها واهالة التراب عليها •

هـل الفـاعل مجهـول ؟

فى دراساتنا لعلوم الكيمياء والفيزياء والأحيـاء كنـا نستعرض خواص المادة وقوانينها أو مظاهر الخلايا الحية وأطوارها ، ثم نمر مر الكرام على ذلك كله ، فلا نعرف له صاحبا ولا نذكر له مصـدرا ونكاد نقرر بلسان الحال أو بلسان المقال أن الفاعل مجهول ٠

والسبب فى هذا الجحود السـائد ان نشـأة تلك العلوم كانت فى بيئات مادية تكره الـدين وتضيـق بمنطقـه وترفض أغلب احـكامه ! ومعروف أن نزاعا داميا نشب بين الكنيسـة والتقدم العلمى ، جعـل جمهور المفكـرين يعد الدين مرادفا للجمـود والوهـم !

والحقيقة أن الكنائس فى العصور الوسيطة حاربت المنطق العقلى وبحوثه المنتجة لأنها اعتبرت ذلك تأثرا بالاسلام واستجابة لتوجيهه ٠

ومن ثم عالجت اليقظة العلمية بالحديد والنار ، وخشيت آن تكون هذه الحركة طليعة لتقدم اسلامى مدنى يسبق تقـدمه العسـكرى ، فلم تهادن مكتشفا ولا باحثا وسفكت الدم بغزارة ٠

ورأت بهذا المسلك انها تخدم الدين ، وما درت انها تخدم الالحاد ، وتمهد أمامه الطريق ، وان العلم لما انطلق الى غاياته كفر بالدين كله ، وتحدث عن المادة ناسيا ربها وعن قوانينها ناسيا من أحكمها ٠

وغفا المسلمون غفوتهم الكبرى ، وتأخرت بلادهم تأخرا مخـزيا ، ثم استيقظوا يطلبون العلم من مظانه فاذا النقلة والمترجمون يعرضون الدراسات الكونية والحيوية مبتوتة العلاقة بمبـدع الكون والحيـاة ، لا تذكر له اسما ، ولا تنبىء له عن وصف ، كأن العالم لاصـانع له ، أو بتعبير العصر كأن الفاعل مجهول ٠

وهذه سوأة فكرية يلزمنا عارها ان لم نتداركها بالايمان العاقل ،

أو العقل المؤمن ، فنربط الكون بخالقه وفق المنهج الذى رسمه القرآن الكريم ومشت فيه ثقافتنا الصحيحة وقامت عليه حضارتنا الاولى ٠

ان بعض الناس يظن الدين نوعا من الادبيات الحالمة أو الوجدانات العائمة ! وهذا كلام ينطبق على الأديان الوثنيـة أو نصف الوثنيـة ، ولكنه لاينطبق أبدا على الاسلام الذى تدعمـه الحقـائق ، ويسـانده البرهان فى كل مجال ، والذى يرفض كل مايأباه العقل ويناقض أدلته ٠

كنت أقرأ قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج : ٦٣)

فتوقفت قليلا ثم أعدت النظر فيما قبل الآيتين وما بعدهما فوجدتنى أمام سبعة عشر اسما أو صفة لله تعالى ، جاءت مع الحديث عن الكون والحياة والمكان والزمان وكأنها تقول للناس : ماترون فى كل أفق هو صنع الله ، ان الفاعل غير مجهول ، عند أصحاب العقول !

وتدبـرت صفتى اللطف والخبـرة مقـرونتين باخضرار الأرض وسريان الحياة فى كيانها بعد هطول المطر ، ثم قلت لنفسى : ما أحرانا نحن المسلمين بتصحيح منهج الدرس لعلوم الكون والحياة ، وتأليف كتب أدق فى علوم الكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان وسائر العلوم الأخرى كتب تزيل الابهام والريب عن أسرار الحياة ، وخلق العالم ٠

اننا بهذا التصحيح الواجب نؤدى رسالة الاسلام ونستحيى حضارتنا الأولى ، ونرفض الفكر المادى فى صوره القديمة والحديثة على سواء ، ونعقد الصلح الواجب بين الايمان والعلم ، ونقطع الطريق على التدين المغشوش حين يحاول فرض نفسه على العالم ، بالكهانة والتهويم ٠

الأمانة فى نقل التراث (١)

بعض الأمم يكون تراثها وساما على صدرها أو حلية فى معصمها ، فهى تزهى به كما يزهى امرؤ عادى بشىء يزينه ! لكن العرب لهم شأن آخر ، اذ أن التراث بالنسبة لهم ضرورة حياة وأساس بقاء ٠

التراث بالنسبة للعرب وجودهم المادى والأدبى كله ! ونعنى بالتراث ماضيهم الفكرى والأدبى والحضارى ، وما أسدوه للعالم ونالوا به درجة الاستاذية ٠

والاسلام ولى هذه النعم ، وينبوع ذلك العطاء ، الاسلام لا غير ٠

انه خلد لسانهم لما نزل به الوحى ، وشرف جنسهم لما اصطفاهم الله للرسالة الخاتمة ، وابتعث منهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وكرم أرضهم لما جعل قبلة المصلين اليها ، وكعبة الحجاج فيها ٠

ونحن العرب نرى أنفسنا فى تراثنا ، ونثبت وجودنا بالحفاظ عليه ، ونحترم شخصيتنا حين نتحاكم الى شرعه ، ونستبقى شرفنا حين نقدم للعالم هذا التراث رحمة عامة وانسانية متجردة ، وانعطافا الى الله تعالى وزلفى اليه ٠

والهجوم شديد فى هذه الأيام على تراثنا ، فأعداء الله يريدون تحويل الهزائم العسكرية للاسلام الى انسحاب عام من كل ميدان ، بل الى اندحار شامل يقطع يومنا عن الأمس الزاهر ، ويجعل المسلمين أمما مقطعة محسورة ، تجهل كل قطعة منبتها ومصيرها وتفقد القدرة على الحركة الذاتية ، فلا يبقى أمامها الا أن تلتحق بقطار آخر يجرى ذات اليمين أو ذات الشمال ، ولا يستقر أبدا على الصراط المستقيم ٠

---

(١) محاضرة بجامعة قطر ألقيت فى الرد على مسلسل « على امام المتقين » الذى كانت تنشره صحيفة الاهرام للاستاذ عبد الرحمن الشرقاوى، وقد توقفنا عند هذه الكلمة اذ وعد الكاتب مشكورا بمراجعة ماسبق نشره عند جمعه فى كتاب ٠٠

كذلك يريد الغزو الثقافى ، وبهذا يتحرك سماسرته فى الصحف وسائر مجالات الاعلام ، ولكننا لهم بالمرصاد ٠

سنقاومهم ونهزمهم باذن الله ، ونستنقذ الاسلام من هذه المآزق المرسومة له ٠

ونحن نعرف أن أمة سلخت أكثر من أربعة عشر قرنا وهى تحمل رسالة كبيرة لابد أن تكون لها سلبيات وايجابيات ! وهزائم وانتصارات٠

وأرى ألا نفر من أخطائنا ، بل نحاسب أنفسنا عليها ، فذلك أحرى ألا نقع فيها ، ان اليهود استنوا لأنفسهم البكاء عند حائط فى المسجد الأقصى ، ومن العبرات المراقة كتبوا لهم تاريخا آخر ٠

أما نحن فما أكثر ما فقدنا ، وما أكثر البلاد التى عمرناها بالاسلام ثم طردتنا الأقدار منها بعد أن فقدنا أهلية البقاء فيها ! ليت شعرى لماذا لانبكى على خطايانا ــ كما أمرنا نبينا ــ لابكاء اليائس بل بكاء التائب الذى يأسى على صفحة سيئة ليكتب صفحة مضيئة ٠

ان دراستنا للتراث قاصرة ، بل لعلها جزء من الغيبوبة التى نالت منا ولاتزال ٠٠

وقد كنا الى أمد قريب نحارب الاستعمار الثقافى الذى يريد اقتلاعنا من جذورنا ، ويشدنا الى ملل ونحل لانعرفها ولا نريد أن نعرفها ٠

حتى فوجئنا بمن يغوص فى تراثنا ليحرف الكلم عن مواضعه ، ويبرز لنا سلفنا الأول أقزاما ملتاثين ، أو سباعا تتهاوش على أعراض الدنيا ومآربها الخسيسة ٠

ومن ثم يمكن الالتواء بزمامنا كى نلتحق بفلسفة أخرى ونستبدل بوحى السماء هوس الأرض ٠

ان القاصى والدانى والذكى والغبى يعرفون أنباء الفتنة الكبرى التى وقعت فى صدر الاسلام ٠

ولما كانت دراسة الماضى تقع للعبرة لا للتجريح ، وللبناء لا للهدم ، فان أئمة الفقه والتاريخ والتوجيه العام قالوا : دماء طهر الله أيدينا منها فلا نلوث أفواهنا بها ! وقد حكمت كثرة المسلمين بأن فلانا أصاب وفلانا أخطأ ، وكان ذلك عن اجتهاد يعرف علام الغيوب ماوراءه من قصد وسيحكم بينهم فى اللقاء الاخير ٠

ونحن ننظر الى ماحدث ونقرأ قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ١٤١)

ولما كان الأمر شديد التعقيد فقد وضعت فى كتابى « دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين » مقترحات أولية لتقريب الفوارق بين أهل السنة والشيعة ، وحاولت تجفيف أو تخفيف المنابع التى ترشح بالحقد وتفيد أعداء الاسلام وحدهم ، واذا الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ينشر سلسلة مقالات بعنوان « على امام المتقين » ينكأ بها الجروح القديمة ويحيى بها الطائفية الهامدة ، ويشحن السلسلة بأخطاء وأهواء توقظ الفتنة وتشغل المسلمين المعاصرين عن مواجهة خصومهم الى محاكمة الموتى ، ونسبة جرائم كاذبة الى رجال ونساء أبرياء ٠

لقد أدركت منذ مدة أن الكاتب ميال الى الشيوعية ، وأنه مع نفر من رفقائه ألفوا ماسموه باليسار الاسلامى ٠

وكان عرض التاريخ الاسلامى من زاوية الفلسفة المادية نصيب الأستاذ الشرقاوى ، فألف كتابه « محمد رسول الحرية » على أساس أن الاسلام مظهر للصراع بين الطبقات (!) وأن الأصنام تم نصبها حول الكعبة لأسباب مادية ، وتم هدمها كذلك لأسباب اقتصادية ٠

وقد اعترض الأزهر تداول الكتاب ، وكتب مفندا ماجاء به ، ولكن الكتاب بقى لأن رجال الثورة يريدون بقاءه ٠

ومضى الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى فى طريقه يفسر الوقائع

بمعايير الفكر اليسارى ، ويقرأ كتب التاريخ غير مميز بين حقيقة وشائعة ، وبين صحيح وموضوع ، وغير مدرك لمكانة الرجال الذين يتحدث عنهم فجاءت مقالاته بعيدة كل البعد عن المنطق العلمى ، كما جاءت بعيدة الأثر فى الاساءة الى الاسلام والصحابة ·· والى الآمال المرجوة فى الصحوة الاسلامية ، وجمع الشمل ·

وهاك نماذج من المقالات القليلة التى وقعت فى يدى ·

قال : ان عليا رضى الله عنه خطب الناس : انما أنا بشر مثلكم فان قلت حقا فصدقونى ، وان قلت باطلا فردوا على ! أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وأنا أولى الناس به ، وبالناس من بعده (!) قالوا : اللهم نعم ! قال : فعدلتم عنى وبايعتم أبا بكر رضى الله عنه ، فأمسكت ولم أحب أن أشق عصا المسلمين وأفرق جماعتهم ، ثم ان أبا بكر جعلها لعمر رضى الله عنهما من بعده فكففت ولم أهج الناس ، وقد علمت أنى كنت أولى الناس بالله ورسوله ومقامه فصبرت ! ولما قتل عمر رضى الله عنه وجعلنى سادس ستة لم أحب أن أفرق بين المسلمين ·· الخ ·

نقول : هذه خطبة مكذوبة على على رضى الله عنه ، وهى تعنى أمورا هائلة تعنى أن الخلفاء الثلاثة الأوائل كانوا مغتصبين حقا ليس لهم ، وأنهم طلاب دنيا وعشاق رياسة ، وأن جمهور الصحابة جبن عن مناصرة على رضى الله عنه صاحب الحق المقرر ، وباع كذلك دينه ارضاء لأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ·

أى أن نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم فشل فى انشاء جيل يصون الأمانات ويؤديها لأصحابها ، وأن أركان دولة الخلافة كانوا خطافين ·

هذا هو المحور الذى يدندن حوله الكاتب ، ومن اليسير بعد ذلك طعن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ! وما قيمتهم اذا كان أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم اغتصبوا ماليس لهم ؟ ·

وعندى أن الاسلام كله سوف ينهار اذا تقرر أن جمهور الصحابة على النحو الهابط الذى أبرزه به الشرقاوى ٠

وكذبة أخرى ! روى الشرقاوى أن امرأة جاءت الى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بعد معركة الجمل وسألتها : يا أم المؤمنين ، ماتقولين فى امرأة قتلت ابنا لها صغيرا؟ فأجابت عائشة رضى الله عنها : وجبت لها النار ! قالت المرأة ــ وكان لها ولدان قتلا فى المعركة كما يحكى الشرقاوى ــ فما تقولين يا أم المؤمنين فى امرأة قتلت من أولادها المؤمنين الكبار عدة آلاف ؟ فصرخت عائشة رضى الله عنها : خذوا بيد عدوة الله ، ثم بكت وتشنجت وغشى عليها ٠

ان ادخال عائشة رضى‌الله عنها النار امتداد لتفسير رافضى متداول بين أصحابه جاء فيه أن عائشة بنت أبى بكر وحفصه بنت عمر رضى الله عنهما هما المرأتان اللتان عنتهما الآية الكريمة :

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

(التحريم : ٣)

٠٠ الخ وأن الله أشار الى حال المرأتين وعاقبتهما عندما قال فى آخر السورة :

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾

(التحريم : ١٠)

وهكذا ، بعد القضاء على سمعة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ،

يقضى على ابنتيهما ، وهما من أمهات المؤمنين ، ليتوهم القراء أنهما من أهل النـــار ٠

وقال الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى فى أرض فدك التى طالب على وفاطمـــة رضى الله عنهمـــا بامتلاكها ميراثا عن النبى صلى الله عليـــه وسلم ، ان فدك ملكها اليهود من بنى النضير من زمن بعيد (!) حتى اذا كانت السنة السابعة من الهجرة جاءوا الرســول صلى الله عليه وسلم ، ودخلوا فى الاسلام طائعين بدون حرب ، فطلب المسلمون أن تقسم عليهم أرض فدك كغيرها من الغنائم ، فنزل قوله تعالى :

﴿وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحشر : ٦)

وهذا كلام ينطوى على فوضى وجهالة ! فلو فرضنا زورا أن فـــدك لبنى النضير ، وأن بنى النضير أسلموا فلماذا تؤخذ منهم أرضهم ؟ وهل يعنى ذلك الا أن المسلمين قطاع طريق ؟ ٠

والصحيـــح أن فـــدك ليست لبنى النضير ، وأن بنى النضير لـــم يسلموا ، ولم يفكروا يوما فى اسلام ! وأنهم حاولـــوا قتـــل النبى عليه الصلاة والســـلام عنـــدما كان بينهم فى بعض الشـــئون التى تفرضهـــا المعاهدة المعقودة معهم ، وكان ذلك فى السنة الثالثة من الهجـــرة ، فلما أحس غدرهم انسحب وأعلـــن عليهم الحـــرب وحاصرهم حتى أوقع فى صفوفهم الفزع وأخيرا جلوا عن المدينة ، ونزلت فيهم سورة الحشر أو سورة بنى النضير ٠

وفى هذه الســـورة يقـــول الله ســـبحانه وتعـــالى فى وصف يهـــود بنى النضير :

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّا نِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي ٱلْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

(الحشر : ٢ ـ ٤)

فكيف يوصف هؤلاء بأنهم أسلموا ؟ أما فدك فتقع شمالى المدينة على طـريق خيبر ٠

وقد كانت العلاقات بين المسلمين واليهود تسـوء سنة بعد أخرى ، وكان اليهـود لايفتؤون يكيـدون للرسـالة الخاتمـة ، ويبيتـون الشر للرسول وصحبـه ، فرأى النبى صلى الله عليه وسـلم أن يجهـز على وجودهم العسكرى ، وأن يهدم حصون خيبر التى يستندون اليها ،فسار اليها فى السنة السابعة وتمكن من الاستيلاء عليها ، وكانت خيبر أغنى وأقوى مستعمرات اليهود فى الجزيرة العربية ، فلا عجب اذا استسلمت فدك وتيماء ووادى القرى ٠

وبذلك زال الخطر اليهودى وتفرغ المسلمون لتأديب الوثنية التى طالما لقوا منها الويل ٠

وهناك قضية وهب لها الأستاذ الشرقاوى فكره ونشاطه ، ويريد أن يجر الاسلام اليها جرا دون هوادة ! هل للمسلم أن يدخر ، أو يكتنز بعد أن يؤدى الحق المقرر عليه فى ماله ؟ أم يجب ألا يمسك عنده شيئا فوق حاجتـه ؟ ٠

الأستاذ الشرقاوى يؤكد أنه لايجـوز استبقاء شىء لصاحبـه فوق

نفقته العادية ، ومازاد ينبغى توجيهه الى الأمة الاسلامية الممتدة شرقا وغربا ٠٠ أى أنه ميال الى نظرية كارل ماركس « لكل حسب حاجته » ٠

ولكنه يصور الرأى الذى ارتآه بأنه فقه الكتاب والسنة (!) وأن الرأى الآخر هو مذهب عثمان ومعاوية وكعب الأحبار رضى الله عنهم ٠

فهل هذا التصوير صحيح ، وهل حقا يرفض الاسلام أن تكون للأفراد مدخرات شخصية بعد ما أدوا الحق المعلوم ؟ ٠

أو بتعبير أصرح هل حق التملك واهى الأركان على هذا النحو ، وأن مبدأ الملكية ليس له عند الله سند أو وجاهة ؟ ٠

الذى نعرفه ، ويعرفه جمهور المسلمين أن مبدأ الملكية له احترامه التام بشروط ٠٠

١ ـ أن يكون التملك من وجوه الحلال فلا تقبل ملكية من طريق محرم أو مشبوه ٠

٢ ـ أن يؤدى المالك الزكوات المفروضة عليه فى أصناف المال التى يملكها ٠

٣ ـ أن يلبى مطالب الدولة فيما تفرضه من ضرائب ـ أو خراج بالتعبير القديم ـ لصيانة المجتمع مدنيا وعسكريا ٠

وغنى عن البيان أن الدول فى عصرنا الحديث قد تبلغ بضرائب الدخل حد الارهاق ، لضمان التماسك الاجتماعى ، وتأمين القدرة الحربية ، وذلك كله مع بقاء مبدأ الملكية قائما ٠

ولو أن الشروط التى ذكرناها تحققت أو قامت أجهزة دقيقة لتقييد حركة المال بها ، ماكانت هناك شيوعية ولا الحاد ولا تطرف ولا محاولة لتزييف الوحى ٠

ولكن الخلل الرهيب فى طرائق الكسب وأساليب الانفاق تبعه خلل مثله فى مقترحات العلاج وجعل البعض ـ لجهله بالاسلام ـ يتخيل أن الاسلام دين شيوعى أو يمكن جعله كذلك ٠

وعيب الأستاذ الشرقاوى وأمثاله أنهم يريدون تطويع النصوص لمذهب ردىء ، وتفسير الوقائع لخدمة فلسفات شرها أضعاف خيرها ، كأن الله أرسل رسله كى يمهدوا لكارل ماركس ٠

وهو يحاول أن يجعل على بن أبى طالب رضى الله عنه ضد رأس المال مهما أدى ماعليه من حقوق ، فلماذا طالب وطالبت زوجته فاطمة رضى الله عنها بامتلاك فدك ، وهى بتعبير عصرنا « عزبة » كبيرة رأى أبو بكر رضى الله عنه تنفيذا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون صدقة على المسلمين ، ورأت فاطمة وزوجها رضى الله عنهما أن تعود لهما ملكا شخصيا ؟ ٠

وهو يحاول أن يجعل عثمان رضى الله عنه كأحد الباشوات أو اللوردات الذين يشبعون شهواتهم ويرجمون المجتمع بفضول أموالهم ! وقد كان عثمان رضى الله عنه غنيا واسع الثروة ، ولم يزعم خصم أو صديق أن الرجل كان بخيلا أو أنه ضن على مصالح المسلمين بدرهم ، وكذلك كان عبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير رضى الله عنهم ، لقد كانت لهم أموال ممدودة ، فما قصروا فى عطاء ، ولا فكروا فى استعلاء ، ولا استكبروا على الجماهير ٠

اللهم الا أن يكون الغنى من الحلال المحض جريمة لاتغفر ، وأن يكون الانفاق السمح فى وجوه البر عوجا لايقبل ٠

ونرى هنا أن نفسر مسالك وأعمالا تحتاج الى زيادة ايضاح ٠

أكان أبو ذر يحرم الكنز ويتجه الى مانسميه اليوم « الشيوعية » على عكس عثمان رضى الله عنه الذى كان « رأسماليا » مترفا كما يزعم البعض ؟ ٠

قال ابن تيمية : كان أبو ذر رجلا صالحا زاهدا ، وكان مذهبه أن الزهد واجب ، وأن ما أمسكه الانسان فاضلا عن حاجته فهو كنز يكوى به فى النار ، واحتج لذلك بمالا حجة فيه من الكتاب والسنة ، ولما توفى عبد الرحمن بن عوف وخلف مالا جعل أبو ذر ذلك من الكنز الذى يعاقب

عليه ، وقد ناظره عثمان رضى الله عنه فى ذلك ، حتى دخل كعب الاحبار ووافق عثمان رضى الله عنه فضربه أبو ذر ! وكان قد وقع خلاف قبل ذلك بين أبى ذر ومعاوية فى الشام ٠٠ « قال ابن تيمية : ان الخلفاء الراشدين وجماهير الصحابة والتابعين على غير مايقول أبو ذر ٠٠ » فالكنز المحرم هو المال الذى لم تؤد حقوقه ، وقد قسم الله المواريث فى القرآن الكريم ، ولايكون ميراث الا من مال مدخر ، وفى الحديث : « **لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس** » ٠

ـ رواه الجماعة ـ

ومع رواية ابن تيمية ورأيه فى وصف أبى ذر فنحن نحسب أن أبا ذر لايحرم الكنز ، ولا يحارب فضول الأموال ٠

فمتى نبت هذا الرأى فى دماغ أبى ذر ؟ ٠

لقد عاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بين مكثر ومقل فلم يعترض هذا التفاوت ، وعاش فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فما هاجم الأغنياء أو طالب بتقسيم ثرواتهم ! وعاش فى عهد عمر رضى الله عنه فما نبس ببنت شفة ضد من وسع الله عليهم ٠

الحق أنا أبا ذر هاجه الترف المقبل ، والتوسع فى النعم ، فتحرك ضد ما رآه من تغير فى سير الجماعة الاسلامية ، وتطير من نتائجه ، وشرع يهاجم أصحابه ففهم الناس من كلامه مافهموا ، والرجل فى نظرى لم يتوهم أن الغنى جريمة ، وأن من أخرج حقوق المال يعتبر عدوا للشعب ٠

وأبو ذر رجل معروف بالصراحة ، وملكاته النفسية تعجزه عن المناصب الادارية ، وقد أوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يتولى عملا ، لأنه لايطيق توجيه الناس وحياطة أمورهم ، ومن هنا فانه آثر العزلة فى مكان قريب من المدينة اسمه « الربذة » ٠

ويكذب على عثمان رضى الله عنه من قال انه نفاه برغمه الى هذه الضاحية فقد روى البخارى عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فاذا

أنا بأبى ذر ، فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة : ٣٤)

فلما قدمت المدينة كثر على الناس حتى كأنهم لم يرونى من قبل ذلك ! فذكرت ذلك لعثمان رضى الله عنه ، فقال لى : ان شئت تنحيت فكنت قريبا .. فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أمروا على عبدا حبشيا لسمعت وأطعت » .

وقال الاستاذ الشرقاوى ان عثمان رضى الله عنه نفى عليا رضى الله عنه الى ينبع ! ولا أعرف من أين جاء بهذا الخبر ؟ .

وقد شعرت ـ بعد طول تأمل فى سيرة عثمان رضى الله عنه ـ أن الرجل جنى عليه نبله الغريب ، وحياؤه الشديد ، وايثاره ترك حقوقه عن التعرض لطلبها ممن يطمع فيها ، ولو كان فى ذلك فقدان الحياة ! .

وتستطيع معرفة هذه النفس الزكية من مسلكه عندما واجه القتلة المحيطين به ، قال صاحب سبل السلام « صح أن عثمان رضى الله عنه منع عبيده أن يدفعوا عنه ، وكانوا أربعمائة ـ مسلحين ـ وقال : من ألقى سلاحه فهو حر .. » ! لقد سمع الحديث المعروف : « تكون فتن فكن فيها عبد الله المقتول . ولا تكن القاتل ! » .

ولو كان أحدنا مكان الرجل النبيل ، لأمر أنصاره أن يقتلوا كل هاجم ولو زهقت أرواح الألوف ! لكن هذه الفلسفة العثمانية أمست علما على نوع من السلوك يفضل لقاء الله مع تحمل الأذى على سفك قطرة من دم .

والناس يحبون فى معاملة رجل مثل عثمان رضى الله عنه أن يستدينوا منه ، لأنهم موقنون أنه لن يخاصمهم على وفاء ! ويحبون أن يعملوا معه لأنهم سيظفرون فى ظله بما يشاءون دون أن يبطش بهم .

كان ينبغى أن يكون مع عثمان رضى الله عنه وزير صدق يحميه من نبله المفرط وينفع الناس بجوانبه الدميثة وخلائقه الرفيعة لكن العرب فتحوا على أنفسهم أبواب شر لم تغلق حتى الساعة من جراء تقصيرهم هذا ٠

واستطالت ألسنة السوء فى عثمان رضى الله عنه وذكر الأستاذ الشرقاوى ــ لا أدرى لماذا ؟ ــ وصفا لما كان بينه وبين عروسه نائلة ، اخلعى كذا ، ثم اخلعى كذا ٠٠ ثم ٠٠ على نحو ما تفعله الراقصات التى تتعرى للنظارة فى المسارح الأوربية القذرة ٠

أكان المؤرخ الكبير ينظر من ثقب الباب ؟ أم كان يثبت بهذا المجون أن عليا رضى الله عنه أمام المتقين ؟ ٠

ان عثمان رضى الله عنه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل تستحى منه الملائكة ، وقد ظلم حيا وميتا ، وهو على أية حال ممن تتناولهم الآية :

﴿وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾
(التوبة : ١٠٠)

وقد حكى الأستاذ الشرقاوى أمورا تنال من مكانة عدد من الصحابة عندما تولوا مناصب كبيرة ، وهم أبرياء كل البراءة مما قذفوا به ٠

وقبل أن نناقش التهم المزعومة نذكر مقدمة تنير الطريق للباحثين ٠

عندما تولى أبو بكر رضى الله عنه شئون المسلمين هم أن يظل تاجرا يأكل من كدحه فى ماله ، ولا يأخذ من المسلمين شيئا على تدبيره لشئونهم ! بيد أن المسلمين أبوا ذلك ، وقدروا لأبى بكر رضى الله عنه مرتبا دون ماكان يكسب لقاء عمله للأمة ٠

وقبل أبو بكر رضى الله عنه ما فرض له وهو يقول : لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن نفقة أهلى ! وقد شغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبى بكر رضى الله عنه من هذا المال ، ويحترف للمسلمين فيه ٠

على أن الرجل الكبير رأى قبل مماته ألا يمسه من مال المسلمين شىء وان كان حلالا فأوصى ابنته عائشة رضى الله عنها أن تبيع عقارا كان يملكه وأن ترد الى بيت المال كل الرواتب التى صرفت له ، حتى تكون ادارته صدقة على المسلمين ! ٠

ان الله لم يكلف بهذا أبا بكر رضى الله عنه ، ولا غيره من الناس وحسب الرئيس أن يخلص وينصب للحفاظ على مصالح الأمة الدينية والدنيوية ، وعلى الأمة أن تكفل له معيشته على نحو كريم ٠٠ ومع ذلك فان أبا بكر رضى الله عنه رغب الى الله بما صنع ، وخرج من الدنيا دائنا لا مدينا لأحد ٠

ونحن نقدر مسلك الخليفة الأول ، ولا نراه سنة تتبع ، بل نرى أن الموظف فى أى منصب كبير أو صغير يأخذ مافرض له ، دون تزيد ، ويؤدى واجبه كاملا ٠

وضمان المصلحة العامة انما يتم بهذه السياسة ! وقد جاء فى الحديث « من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقا ، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » ٠ رواه أبو داود والحاكم

فلما تولى عمر رضى الله عنه الخلافة ، وكان محبا لأبى بكر رضى الله عنه ومعجبا به قال : أنا فى مال المسلمين كولى اليتيم ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف ٠

ويعلم العدو والصديق أن عمر رضى الله عنه أضنى نفسه وأهله بسيرته الخشنة ومعيشته الجافة ٠

وأنه كان يحمل أسرته على مستوى قاس من الانفاق ٠

وحاول عمر رضى الله عنه أن يكون الولاة وكبار الرؤساء على هذا النسق ، فلا يأخذون مرتبات كافية ٠

وان كانت لهم أجور مجزية على أعمالهم ، وأمكنهم اقتصادها فليتركوها لبيت المال ٠

وقد رفض معاذ بن جبل هذه السياسة ، ورفض أن يعطى عمر رضى الله عنه مدخراته من رواتبه لما طلبت منه ٠

ولكن عمر رضى الله عنه أخجل أبا هريرة وغيره حين قاسمهم أموالهم وحكم برد شطرها لبيت المال ٠

ان أحدا من هؤلا الولاة لم توجه له أى تهمة باستغلال سلطته ، أو التوسع فى المال العام ٠٠ كل ماحدث أن عمر رضى الله عنه أراد أن يحمل رجاله على خطة ماكلفه الله بها ، فسلك معهم كما سلك مع نفسه هذا المنهج الناشف الغليظ ٠

فكيف يجىء مخبول فيصف أبا هريرة بأنه لص ، وأنه ضبط متلبسا بأخذ مال الأمة ، وأن عمر رضى الله عنه استرد منه ما أخذه ؟ ٠

ان عمر رضى الله عنه حاكم عبقرى ، ورجل من رجالات الاسلام الأوائل ، وقد يعجب الكثيرون بزهده ويرمقون الأفق الذى يفكر فيه باكبار ٠٠ لكن الواقع الذى لامحيص من مواجهته هو أن الأمور لاتساس بنسق من الترفع تعجز الخاصة عنه فكيف بالجماهير ؟ ٠

وعندى أن عمر رضى الله عنه فى اقتدائه بأبى بكر رضى الله عنه واقتفائه أثره نسى توجيها نبويا يبت فى هذه القضية ، فقد صح عن عبد الله بن عمرو السعدى أنه قدم على عمر رضى الله عنه فى خلافته فقال له عمر رضى الله عنه : ألم أحدث أنك تلى من أعمال المسلمين أعمالا فاذا أعطيت العمالة كرهتها ـ العمالة الأجر ـ قال عبد الله : بلى ! فقال عمر رضى الله عنه : ماتريد الى ذلك ؟ قال : ان لى أفراسا وعبيدا وأنا بخير ، وأريد أن تكون عمالتى صدقة على المسلمين ! ٠

قال عمر رضى الله عنه : فلا تفعل ، فانى كنت أردت الذى أردت ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينى العطاء فأقول : أعطه أفقر اليه منى ! ٠

حتى أعطانى مرة مالا ، فقلت : أعطه أفقر اليه منى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم خذه فتموله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا اشراف ـ طمع ـ فخذه ! ومالا فلا تتبعه نفسك » ٠

وربما كان عمر رضى الله عنه يريد من كبار الصحابة الذين ولاهم أن يكونوا مثله فى النظر الى مال المسلمين عندما قال كلمته الآنفة «أنا كولى اليتيم ان استغنيت استعففت ،وان افتقرت أكلت بالمعروف» ٠

ونقول : هو لزوم مالا يلزم ! وتكليف أرباب المناصب الكبرى بجعل أعمالهم صدقة اتكالا على تقواهم واخلاصهم لاتصلح به الأوضاع ٠

وننصح أخيرا من يتلمسون العيوب لأشراف الناس أن يستحوا ، وعلى أية حال فان أقدار الرجال لاتهدم بهذا الغباء ، فلا أبو هريرة ولا أبو موسى ولا سعد بن أبى وقاص ولا غيرهم افتاتوا على مال الأمة أو نالوا منها ما ليس لهم بحق ٠

وتزكية على بن أبى طالب رضى الله عنه لاتتم بشتم هؤلاء الأكابر ولا بغمزهم من بعيد ٠

وثم أمر ذو بال ! ان محمدا عليه الصلاة والسلام هو امام المتقين فى الأولين والآخرين ، ثم يجىء بعده فى الفضل الرجال الذين حملوا معه الرسالة وأدوا الأمانة ونشروا الاسلام فى المشارق والمغارب ، وجعلوا عالميته حقيقة ملموسة ، وتصدوا بالنفس والنفيس لطواغيت الأرض فكسروا شوكتهم وسحقوا دولتهم ، وأعنى بهؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى طليعتهم الخلفاء الراشدون ، ومن بينهم على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ٠

وقد حدثت مآس مؤلمة فى جيل الصحابة ، ترجع الى بساطة العرب فى فن السياسة ، وعدم تقديرهم لمؤامرات عدوهم ، وثأر المهزومين لأنفسهم ·

أليس مما يثير الدهشة أن تكون المدينة مفتوحة لما هب ودب من المجوس واليهود وأتباع الملل التى اجتاحها الاسلام ، فاذا هم يملكون فى داخلها حرية الكيد والفتك ! واذا الخلفاء الثلاثة بعد أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين يقتلون وكأنهم ذهبوا ضحايا أحقاد شخصية أو ثورات محلية ·

كيف يقتل مجوسى عمر رضى الله عنه بهذه السهولة ؟ وكيف يزعم كعب الأحبار أنه وجد مقتله فى التوراة ؟ أى توراة ؟ أليس ظاهرا أن المجوس واليهود تظاهروا على ارتكاب جريمتهم فى جو البراءة السائد بين المسلمين ·

وكيف قتل سعد بن عبادة زعيم الأنصار قبل أن يقتل عمر رضى الله عنه ! ثم يشاع أن الجن قتلته ! أى جن ؟ ·

ألم يفكر أحد أن الرجل قتل لاحداث وقيعة بين المهاجرين والأنصار ؟ ·

وكيف اقتحمت وفود مجلوبة من أقاصى البلاد دار الهجرة ، وأصبحت سيدة الشارع الاسلامى ، وصاحبة السطوة فيه لتقتل الخليفة الثالث بكل هدوء ؟ ·

ان كتب التاريخ عندنا حافلة بالعجائب ، ومن المحدثين من يراها من الناحية العلمية ساقطة القيمة ! ونحن نراها كتبا جمعت الغث والسمين والخير والشر والحق والباطل ·

وهى كتب تحتاج الى أمناء يستخلصون منها الحق بالنزاهة والمثابرة والمقارنة ·

ونحن نقرر بقوة أن روايات جورجى زيدان ، وكتابات عبد الرحمن الشرقاوى لاتحكى تاريخا اسلاميا محترما ، فالأول صليبى

ينفث ضغائنه على الاسلام بلؤم والثانى يسارى يريد جعل الاسلام وتاريخه مصبوغين باللون الأحمر والتفكير المادى ، ويسوق الحوادث سوقا لخدمة هذا الغرض ٠

هل صحيح أن الصراع بين التوحيد والوثنية كان صراعا طبقيا كما يقول الأستاذ الشرقاوى « الأغنياء يدافعون عن وجودهم ! والفقراء عن حقهم فى الحياة الكريمة وعن أحلامهم فى عالم أفضل » ! أى أحلام هذه ؟ وأين طلب الآخرة ٠٠ ؟

وهل صحيح أن موسم الحج كان « ليستثمر هؤلاء الأغنياء أموالهم فى البيع والشراء والربا فيربحون ويربحون ! وهذه الأصنام هى التى تمنحهم كل سلطاتهم على الأجراء والمعدمين والعبيد وأبناء السبيل ! وواجه محمد عليه الصلاة والسلام هذا كله بأن الأصنام ضلال مبين فهو يلعن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله »

هكذا يقول الشرقاوى فى تصوير الرسالة الاسلامية ! صراع بين الغنى والفقر لا وجود له الا فى دماغ المؤلف ٠

وآية عدم اكتناز الذهب والفضة نزلت بعد ثنتين وعشرين سنة من بعد الرسالة أى قبل وفاة الرسول بسنة تقريبا ، ولا صلة لها بعبادة الأصنام ، أو الحرب التى شنها الاسلام على الوثنية من أول يوم ٠

حتى الهجرة الى المدينة المنورة جعل لها الأستاذ الشرقاوى أسبابا اقتصادية فان المرابين فى المدينة كان ضغطهم أقل ، والهوان الذى يتعرض له المدينون كان أخف ! تأمل قوله : هنا مجتمع آخر أكثر تقدما من مجتمع مكة ! هنا علاقات اجتماعية أخرى أكثر قابلية لتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم ! فالمرابى اليهودى لم يكن قادرا على استعباد المدين العربى اذا عجز عن الوفاء كما كان يحدث فى مكة (!) ولم يكن له الحق فى أخذ امرأة المدين أو ابنته لاكراههما على البغاء كما كانت تفعل قريش (!) وأجير الأرض فى المدينة أعلى درجة من عبيد مكة الذين كانوا يحرسون القوافل والمصارف ٠٠ الخ ٠

ليس فى هذا الكلام كله ذرة من صدق ، والقول بأن العرب كانوا يسترقون المدين المعسر ، ويستوفون ديونهم من ارتهان امرأته وابنته وارغامهما على الزنى ، كلام مكذوب ، ماكان شائعا لا فى مكـة ولا فى المدينة ، وبالتالى فلا صلة للهجرة بهذه الأوضاع المختلقة ٠

ان هذا الكلام ليس تشويه تاريخ ، بل هو تزوير تاريخ ، أو كما يقال فى مصر : سمك لبن تمر هندى ٠

وليس فى القرآن الكريم ، ولا فى السنة المطهرة ، ولا فى السـير المؤلفة عن صاحب الرسالة مايترك مثل هذا الانطباع الغريب ، عن الجو الذى بدأت فيه تعاليـم محمـد صلى الله عليه وسـلم (!) كمـا يصف عبد الرحمن الشرقاوى الاسلام ونبيه وما نزل عليه من وحى وما أنشأه من وعى وما تمخض عنه من حضارة ٠

إنه تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الوحي الإلٰهي الأعلى فلا يكاد يتبين .

حسْبُ محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون بشراً عظيماً .. !!

فهرست الموضوعات

- الانسـان فى القـرآن ٧
- كيف غير الاسلام مسار العالم ٢٨
- أبعاد التغيير الانسانى قبل كلمة الله الحاسمة ٣٦
- أولو الألباب فى كتاب الله ٤٤
- ديـن وفطـرة ٥٤
- جدال ٠٠ من ورائه أمور ذات بال ٦١
- من نفحـات اليقين ٧١
- عندما يكون الالحاد أذكى ٠٠ ! ٧٩
- الاسلام وحده يجب أن يبعد ٨٠

ضرورة هتك الاستار ٨١
الطائفية زرع الاستعمار ٨٣
قصـور معيب ٨٤
مقـابلة ٠٠ ومقارنة ٨٥

- وجهة نظر فى أقدار الرجال ٨٦

مع الامام محمد عبده ٩٠
مع جمال الدين الافغانى ٩٢
التعـاون المثمـر ٩٣

- مدرسة رائدة ٠٠٠ وامام ضخم ٠٠٠ ٩٤
- أما تركد هذه الزوابع ؟ ١٠٥
- شائعات فى ميدان العلم ١١٥

● المعالم الأولى فى عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ١٢٧
● الشروق المحمدى لايحجبه دخان وان كثرت المداخن ١٣٨
أبعـاد التغيير ١٣٨
حصنته العصمة الالهيـة ١٣٩
مقـارنة باطـلة ١٤١
صعاليك الأعـراب ١٤٣
الشـبهة الثالثـة ١٤٤
● اليوم أكملت لكم دينكم ١٤٦
● حقائق عن الهجرة ١٥٤
● تأملات وخواطر فى مناسك الحج ١٦٤
● رحلة من العلم الى الايمان ١٧١
● الله هو الحقيقة كلها ١٧٤
مفهوم المادة الواسع ١٧٧
العمل لله يسبقه العلم به ١٧٨
● التعليم الأصلى وهل وفى أهله له ؟ ١٨١
● أسرار وراء تخلفنا ١٩١
● حـول مجـزرة بيروت ٢٠١
● من طوى هذه الصفحة ونشر غيرها ؟ ٢٠٩
أحوال المسلمين فى الفلبين ٢٠٩
تسـعيرة للتنكيل ٢١٠
ما أرخص المسلمين ٢١١
حمـلة صليبية ٢١١
الحرب البكتيرية ٢١٣
حمـلات الافنـاء ٢١٣
فوضى ... وجاهلية ! ٢١٤
اهتمامات ... بعض المسلمين ٢١٥

العرب والمسؤولية الضخمة ٢١٦
الغــزو الثقافى ٢١٦
الثقافة الاسلامية فى محنة ٢١٧
العقل الاسلامى من جديد ٢١٧
● وظيفتنا العالميــة ٢١٩
الفقه الذكى قبل الدعوة الحماسية ٢٢٤
● السلبية لاتخلق بطــولة ٢٢٨
● هل نواجه هذه الحقائق ؟ ٢٣١
● مراجعــة لا رجوع ٢٣٤
● تذكروا الاسلام ٠٠ ياعــرب ٢٤١
● دنيــا وآخــرة ٢٤٥
● عبادة يستغربها العصر الحديث ٢٤٨
● فى ترتيب الســور ٢٥١
● طبيعة لم تغيرها القــرون ٢٥٤
● حــديث مظلــوم ٢٦٠
● هل الفاعل مجهــول ٢٦٣
● الأمانة فى نقل التراث ٢٦٥

مؤلفـــات الشيخ محمد الغـــزالى

(١) الاسلام والأوضاع الاقتصادية
(٢) الاسلام والمناهج الاشتراكية
(٣) الاسلام والاستبداد السياسى
(٤) الاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين
(٥) من هنا نعلم
(٦) تأملات فى الدين والحياة
(٧) عقيـدة المسـلم
(٨) خلق المسـلم
(٩) التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام
(١٠) فقـه السيرة
(١١) فى موكب الدعـوة
(١٢) ظلام من الغـرب
(١٣) جـدد حيـاتك
(١٤) ليس من الاسـلام
(١٥) من معـالم الحـق
(١٦) كيف نفهم الاسـلام
(١٧) الاستعمار أحقاد وأطماع
(١٨) نظرات فى القرآن
(١٩) مع الله ـ دراسات فى الدعوة والدعاة
(٢٠) معركة المصحف
(٢١) كفـاح دين ٠
(٢٢) الاسلام والطاقات المعطلة
(٢٣) حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الأمم المتحدة
(٢٤) هذا ديننـــا

(٢٥) حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى
(٢٦) الجانب العاطفى من الاسلام
(٢٧) دفاع عن العقيدةوالشريعة ضد مطاعن المستشرقين
(٢٨) ركائز الايمان بين العقل والقلب
(٢٩) حصـــاد الغرور
(٣٠) الاسلام فى وجه الزحف الأحمر
(٣١) قذائف الحـــق
(٣٢) الدعوة الاسلامية تستقبل القرن الخامس عشر
(٣٣) فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء
(٣٤) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين
(٣٥) همـــوم داعيـــة
(٣٦) مشكلات تعترض الحياة الاسلامية
(٣٧) مائة سؤال فى الاسلام « جزءان »
(٣٨) نظرة على واقعنا الاسلامى
(٣٩) مستقبل الاسلام خارج أرضه
(٤٠) علل وأدوية ..

رقم الإيداع بدار الكتب القطـرية
١١٠ / ١٩٨٤

تصـــويب الأخطاء

	الخطأ	الصواب
مقدمة فضيلة الشيخ عبد الله الأنصـــاري الصفحة الثانية السطر ١١	منها	منه
مقدمة فضيلة الشيخ محمـــد الغزالي الصفحة الرابعة السطر الثاني	المرئ	المرء
صفحة ٥٠ السطر ٧	قرض	قرضى
صفحة ١٧٦ السطر ٤	يديْ	يدىْ
« ١٧٦ « ٦	الموتى	الموتىٰ
« ١٧٦ « ١١	تتلوا	تتلواْ
صفحة ٢٠٥ السطر ٢٢	يغليها	لا يغلبها
صفحة ٢٥٠ السطر ٦	الولائدَ	الولائدُ
صفحة ٢٨١ السطر ١٦	بعد الرسالة	بدء الرسالة

العلوم
مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٦٧١ — الدوحة — قطر